إيفان تورغينيف

الآباء والبنون

رواية

ترجمة: خيري الضامن



إيفان تورغينيف

الآباء والبنون

روايـــة

ترجمة: **خيري الضامن**

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PG3421 .O8125 2020

Turgenev, Ivan, 1818- 1883

الآباء والبنون: رواية / تأليف إيفان تورغينيف؛ ترجمة خيري الضامن. - ط. 1. - أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

325 ص.؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: Отцы и дети

تدمك: 978-9948-34-597-8

1- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية- القرن 19. 2- القصص العربية- مترجمات من الروسية- القرن 19. أ- ضامن، خيري. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

Отцы и дети- Ivan Turgenev

Original title: Накануне

© НАУКА, 1964

نشرت الترجمة العربية الأولى لهذا الكتاب من خلال دار «رادوغا» السوفييتية في عام 1985



www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae
هاتف: 579 5995 2 +971



الآباء والبنون

رواية

مقدمة

عالج تورغينيف فكرة رواية «الآباء والبنون» في أغسطس 1860 وفرغ من تأليفها في ضاحية سبسكويه في 30 يوليو 1861. ونشرت الرواية في مجلة (روسكي فيستنك) (1862، العدد الثاني). وفي العالم ذاته صدرت في طبعة مستقلة «تكريماً لذكرى فيساريون غريغوريفيتش بيلينسكي».

وفي الحال بدأت مجادلات حادة بخصوص هذه الرواية المكرسة لواحدةٍ من أهم قضايا العصر - مسألة جيل الشباب- واستمرت تلك المجادلات عقداً كاملاً من السنين.

وكانت أنضج محاولة موضوعية لتحليل الرواية في الصحافة الديمقراطية في الستينات هي مقالة الكاتب الاجتماعي والناقد الأدبي دميتري بيساريف (1840- 1868) المنشورة في العدد الثالث من مجلة «روسكويه سلوفو» («الكلمة الروسية») لعام 1862.

كان بيساريف أول من أشار إلى الصدق المدهش عند تورغينيف الفنان في رسم شخصية بازاروف. وكتب بيساريف في مقالته بهذا الخصوص: «عندما ابتدع تورغينيف بازاروف أراد أن يهشمه تهشيماً، ولكنه بدلاً من ذلك، قدم له بالقدر الكامل آياتٍ من الاحترام عن جدارةٍ واستحقاقٍ».

وفيما بعد، وبسبب التهجمات المتواصلة على الرواية، أوضح تورغينيف مراراً فكرتها في مقالاته ورسائله (وأهمها المقال المنشور باختصارٍ في مكانٍ آخر من هذا المجلد بعنوان «بصدد الآباء والبنون»). وكتب تورغينيف إلى الكاتب الروسي العظيم فيودور دوستويفسكي (1831-1881) الذي فهم، باعتقاد تورغينيف، مهمة الرواية بأعمق من الآخرين: «ولا يتصور أحدٌ، على ما يبدو، أنني حاولت أن أجسد في بازاروف شخصيةً مأساويةً. فالجميع يتساءلون: لماذا هو سيئٌ إلى هذا الحدّ؟ أو لماذا هو جيدٌ إلى هذا الحدّ؟». وتحدث دوستويفسكي في سلسلة مقالاته: «ملاحظاتٌ شتويةٌ عن الانطباعات الصيفية» (1863) عن تهجمات النقاد على تورغينيف فقال: «ما أكثر ما عاناه بسبب بازاروف، بسبب هذا الإنسان القلق المتململ (وتلك سمة القلب الكبير) رغم عدميته النهلستية». ومن أهم أقوال الكتاب اللاحقين عن «الآباء والبنون» ما قاله الكاتب الروسي الفذ أنطون تشيخوف

(1860-1904): «ما أروع رواية «الآباء والبنون»... وما أشد تأثير نهاية بازاروف؟ والعجوزان؟ وكوكشينا؟ تلك الشخوص موفقةٌ إلى أبعد الحدود. تلك هي العبقرية».

تكريماً لذكرى
«فيساريون بيلينسكي»

1

- هل ترى شيئاً يا بيوتر؟ - سأل السيد خادمه الشاب ذا الوجنتين الممتلئتين، والذقن المكسو بزغبٍ يميل إلى البياض، والعينين الصغيرتين الذاويتين. كلّ شيءٍ في هذا الخادم: حركاته اللبقة، وشعره المدهون، وقرط الفيروز المتدلي من إحدى أذنيه، ينمّ عن انتمائه إلى الجيل العصري المتقدم، ألقى الخادم بنظرةٍ متعاليةٍ على طول الطريق، وأجاب: «لا أرى شيئاً، يا سيدي، لا شيء».

كان ذلك في العشرين من مايو (1859)، وكان السيد الذي تجاوز الأربعين قد خرج، حاسر الرأس بمعطفٍ مغبرٍ، وسروالٍ مخططٍ ذي مربعاتٍ، من خانٍ يقع على أحد الطرق الكبيرة. توقف على دكّة مدخل الخان الواطئة، وكرر السؤال:

- لا شيء؟

- لا شيء، أجابه الخادم ثانيةً.

تنهّد السيد، وجلس على المصطبة، فلوى ساقيه تحتها، وأخذ ينظر حواليه، وهو غارقٌ في خضّم أفكاره، وما دام على حاله هذه، فلنعرّف القارئ عليه.

اسمه «نيكولاي بتروفيتش كيرسانوف». ولديه، على بعد 15 كيلومتراً عن الخان، ضيعةٌ جيدةٌ؛ قيمتها مئتا نسمةٍ كما يقال عادةً، أو مساحتها ألفا هكتارٍ، كما يقول هو منذ أن انفصل عن الفلاحين، وأنشأ «مزرعةً» له. كان أبوه جنرالاً روسياً فظاً غليظاً، ولكنه لا يحقد على أحدٍ. قاتل في حرب (1812)، وأدّى خدمته الروتينية طوال حياته. قاد في بادئ الأمر لواءً ثم فرقةً، وقضى حياته في الأطراف؛ حيث لعب دوراً كبيراً بحكم رتبته. وُلد نيكولاي بتروفيتش في جنوب روسيا، شأن أخيه الأكبر «بافل» الذي سنتحدث عنه فيما بعد، وترعرع حتى الرابعة عشرة من العمر في داره، وسط جمعٍ من المربين الرخيصين، والياورية الوقحين المتزلفين، وغيرهم من العسكريين، وكانت أمه، وهي من «آل كوليازين»، واسمها قبل الزواج (أغاثا)[1] وبعده «أغافوكليا كوزمينيشنا كيرسانوفا» تعتبر في عداد «أمهات الجنود»، وقد اعتادت على ارتداء قلنسواتٍ فاخرةٍ، وفساتينَ حريريةٍ ذات حفيفٍ

صاخبٍ. كانت أول من يقترب من الصليب في الكنيسة، وهي كثيرة الكلام ذات صوتٍ جهوريٍّ عالٍ...

في كلّ صباحٍ تسمح لأطفالها بأن يقبّلوا يدها، وتباركهم عندما يرقدون في الليل، وباختصارٍ فقد كانت تعيش كما يحلو لها. كان على نيكولاي بتروفيتش الذي لم يتميز بالشجاعة أبداً، بل استحق نعت الجبان، أن ينخرط في الخدمة العسكرية مثل أخيه بافل: فهو ابن جنرالٍ، ولكنّ رجله انكسرت في اليوم الذي ورد فيه الإشعار باستدعائه للخدمة. لزم الفراش شهرين، ثم ظلّ طوال حياته «أعرج». يئس منه أبوه، فتركه وشأنه للحياة المدنية، اصطحبه إلى «بطرسبورغ»، حالما بلغ الثامنة عشرة، وأدخله الجامعة، وفي تلك الأثناء تخرّج أخوه، وعُيّن ضابطاً في فوج الحرس. عاش الشقيقان معاً في منزلٍ واحدٍ تحت رعايةٍ غير ثقيلةٍ من جانب ابن عم أمهما «إيليا كوليازين» الذي يشغل منصباً هاماً. عاد أبوهما إلى فرقته، وإلى عقيلته، وصار من حينٍ لآخر يبعث إلى ولديه رسائلَ مكتوبةً بحروفٍ عريضةٍ، وبخطٍ متقنٍ على ورقٍ رمادي اللون، ومذيّلةٍ بالكلمات التالية المرسومة «بالتواءاتٍ» ورتوشٍ زاهيةٍ: «--- جنرال بيوتر كيرسانوف». في عام (1835) تخرّج نيكولاي بتروفيتش من الجامعة بدرجة ماجستير، وفي العام نفسه وصل الجنرال «كيرسانوف» مع زوجته

«بطرسبورغ»؛ ليقيما فيها بعد أن أحيل على التقاعد بسبب إخفاق أحد الاستعراضات.

كان يستأجر داراً قرب متنزه «تافريتشيسكى»، وينتسب إلى نادي النبلاء الإنجليزي، ولكنه توفي فجأةً بالسكتة الدماغية، وسرعان ما لحقت به «أغافوكليا كوزمينيتشنا» التي لم تستطع التعوّد على الحياة المبهمة في العاصمة؛ حيث نهشتها كآبة عيشة التقاعد، وفي أثناء ذلك وقع نيكولاي بيتروفيتش - منذ أن كان والداه على قيد الحياة، الأمر الذي كدرهما كثيراً- في هوى ابنة الموظف «بريبولوفينسكي» صاحب المنزل الذي سكنه سابقاً، وهي فتاةٌ مليحةٌ، ومتطورةٌ كما يقال، فقد كانت تطالع مقالاتٍ جادةً في ركن «العلوم» في المجلات.

تزوّج نيكولاي بتروفيتش منها حالما انقضت فترة الحداد، فترك وزارة المقاطعات؛ حيث كان قد عُيّن بتوصيةٍ من أبيه، وصار يتمتع بالنعيم مع زوجته «ماشا» في دارٍ ريفيةٍ؛ قرب معهد الغابات أولاً، ثم في المدينة بشقةٍ صغيرةٍ جيدةٍ ذات سلّمٍ نظيفٍ، وغرفة استقبالٍ باردةٍ بعض الشيء. وأخيراً في الضيعة، حيث استقرّ نهائياً، ورُزق بعد حينٍ بولده «أركادي». عاش الزوجان حياةً هانئةً هادئةً دون أن يفترقا ولا مرّةٍ تقريباً، وكانا يطالعان معاً، ويعزفان على البيانو بأربع أيدٍ، وينشدان الأغاني بصوتين.

كانت هي تغرس الأزهار وتتفقد حقل الدواجن، وكان هو يدير شؤون المزرعة، ويتوجّه إلى الصيد في أحيانٍ نادرةٍ، بينما يترعرع أركادي، وينمو هو الآخر بهناءٍ وهدوءٍ. مرت عشر سنواتٍ كالحلم، وفي عام ألفٍ وثمانمئةٍ وسبعةٍ وأربعين توفيت زوجة كيرسانوف، فكادت هذه الضربة تقصم ظهره، وخطّ الشيب شعره في بضعة أسابيعٍ، فشدّ العزم على السفر إلى الخارج؛ بغية الترويح عن النفس، ولو قليلاً... ولكن عام ثمانية وأربعين[2] داهمه. فعاد إلى القرية مكرهاً، وبعد ركودٍ طويلٍ نسبياً شرع بممارسة شؤون الضيعة، وفي عام خمسةٍ وخمسين اصطحب ابنه أركادي إلى الجامعة، وقضى معه ثلاثة شتاءاتٍ في «بطرسبورغ» دون أن يغادر البيت تقريباً، وكان يسعى إلى معاشرة رفاق ابنه الشبّان، وفي الشتاء الرابع لم يستطع أن يزور ابنه، وها نحن نراه في شهر مايو عام (1859)، مترهلاً، أشيب الشعر تماماً، وعلى شيءٍ من الإحديداب. إنه ينتظر ابنه الحائز درجة الماجستير، شأنه شأن أبيه الذي حاز هذه الدرجة في سالف الزمان.

انزوى الخادم وراء البوابة بدافعٍ من اللياقة، أو ربما بسبب عدم رغبته في أن يظلّ عرضةً لأنظار سيده، وراح يدخن غليونه.

طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه، وأخذ يتفحص درجات دكّة المدخل البالية؛ كان فرخ دجاجٍ كبيرٍ زاهي اللون، يتمشى عليها

برزانةٍ، ويصفعها صفعاتٍ شديدةً برجليه الصفراوين الكبيرتين، وألقت قطةٌ ملوثةٌ نظرةً غير وديةٍ عليه، وهي تتناعس على الدرابزون.

كانت حرارة الشمس لافحةً، ورائحة خبز الجودار الساخن تفوح من ممر الخان الداخلي شبه المعتم. غرق بطلنا نيكولاس بتروفيتش في لجّة الأحلام؛ حيث كانت تدور في ذهنه بلا كللٍ كلماتٌ: «ولدي...» أركاشا[3».. ماجستير...». حاول أن يفكر في شيءٍ ما آخر، ولكن تلك الكلمات كانت تعود إليه كلّ مرّةٍ. تذكّر المرحومة زوجته... وهمس مغتماً: «لم يطل بها العمر!»... هبطت حمامةٌ رماديةٌ بدينةٌ على الطريق، وأسرعت ترتشف الماء من بركةٍ قرب البئر، صوب نيكولاي بتروفيتش نظراته إليها، بينما التقطت أذناه طقطقة عجلاتٍ تقترب، اندفع الخادم من وراء البوابة وهتف:

ـ أعتقد أنهم وصلوا.

نهض نيكولاي بتروفيتش بلمح البصر، وسلّط نظراته على طول الطريق. بانت عربةٌ تجرّها ثلاثةٌ من جياد البريد، ولاح من العربة شريط القبعة الطلابية، وبدت ملامح الوجه الحبيب...

- أركاشا! أركاشا!.. صاح كيرسانوف، وهرع ملوحاً بيديه... بعد لحظاتٍ لامست شفتاه خدّ ابنه الأسمر المغبر الذي لم ينبت الشعر عليه بعد.

2

- دعني أنفض الغبار يا أبتي، كيلا ألوثك، قال أركادي بصوتٍ فتيّ جهوريّ مبحوحٍ بعض الشيء بسبب السفر، وهو يردّ بمرحٍ على ملاطفة أبيه.

- لا بأس، لا تهتم، أصرّ نيكولاي بتروفيتش في ابتسامةٍ متيّمةٍ، وطبطب مرتين على ياقة معطف ابنه، وعلى معطفه هو:

- أرنا كيف أنت، أضاف مبتعداً بعض الشيء، ثم اتجه على الفور نحو الخان بخطواتٍ متسارعةٍ، وهو يتمتم: «إلى هنا، إلى هنا، عجّلوا بإخراج الجياد».

كان نيكولاي بتروفيتش أكثر اضطراباً من ابنه، فقد بدا في شيءٍ من الحيرة والتهيّب، أوقفه أركادي قائلاً:

- اسمح لي، يا أبتي، أن أقدّم إليك صديقي الطبيب «بازاروف» الذي كتبت لك عنه الكثير، لقد تفضل، ووافق على أن يحلّ ضيفاً علينا.

استدار نيكولاي بتروفيتش على عجلٍ، واقترب من الشاب الفارع القامة الذي هبط تواً من العربة الكبيرة، في رداءٍ طويلٍ ذي شراريبَ، وأطبق بشدةٍ على يده الوردية العارية التي مدّها له الشاب بتلكؤٍ، فبادره نيكولاي بتروفيتش:

- أنا مسرورٌ من صميم القلب، وممتنٌ لرغبتك[4] في ضيافتنا، آمل يا... اسمح لي بمعرفة اسمك الكريم.

- «يفغيني فاسيليفيتش». أجاب «بازاروف» بصوتٍ رجوليّ متراخٍ، وأزاح ياقة ردائه، فبان وجهه كلّه أمام نيكولاي بتروفيتش: وجهٌ نحيلٌ مستطيلٌ بجبهةٍ عريضةٍ، وأنفٍ مسطّحٍ في أعلاه، ومدببٍ في أسفله وعينين واسعتين خضراوين بعض الشيء، وفودين متدليين بلون الرمل. وانطبعت ابتسامةٌ هادئةٌ؛ لتزين هذا الوجه الذي ينمّ عن ذكاءٍ وثقةٍ بالنفس.

- آمل يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش أن لا ينتابك الضجر عندنا- واصل نيكولاي بتروفيتش كلامه.

كادت شفتا بازاروف الرقيقتان تنفرجان عن ابتسامةٍ، ولكنّه لم يردّ بشيءٍ، بل اكتفى برفع قبعته. ولم يكن شعره الكث الطويل الأشقر؛ ليحجب النتوءات العريضة على جمجمته الضخمة.

- ما رأيك يا أركادي؟، قال نيكولاي بتروفيتش من جديد ملتفتاً إلى ابنه:

- هل نعدّ الجياد الآن، أم أنكما تريدان أن نأخذ قسطاً من الراحة؟

- سنستريح في المنزل، يا أبتي. فليعدّوا الجياد.

فقال الأب مؤيداً:

- في الحال، هل أنت سامعٌ يا بيوتر؟ رتّب الأمر، وبأسرع ما يمكن.

اختفى بيوتر وراء البوابة من جديدٍ، وكان هذا الخادم العصري قد اكتفى بانحناءةٍ من بعيدٍ لسيده الابن دون أن يقترب منه ليقبّل يده.

- عندي عربةٌ مكشوفةٌ، ولكن ثلاثة جيادٍ جاهزةٌ لعربتك أيضاً، قال نيكولاي بتروفيتش مشغول البال، في حين راح أركادي يشرب الماء من إبريقٍ معدنيّ أحضرته صاحبة الخان، وشرع بازاروف يدخّن غليونه، واقترب من الحوذي الذي فكّ أربطة الجياد، وأضاف نيكولاي بتروفيتش: - غير أنّ عربتي بمقعدين فقط، ولا أدري بخصوص صديقك...

- سيرتحل في عربتي، قاطعه أركادي بصوتٍ خافتٍ، لا داعي للرسميات معه، فهو شابٌّ رائعٌ، ومتواضعٌ للغاية، سترى ذلك بنفسك.

اقتاد حوذي نيكولاي بتروفيتش جياده، فقال بازاروف لحوذيه:

- عجّل، يا ذا اللحية الكثة!

- هل سمعت، يا ميتيوخا، كيف نعتك السيد؟، انتعش الحوذي الآخر، ويداه مدسوستان في الشقين الخلفيين لفروته... لحيةٌ كثةٌ بالضبط.

اكتفى ميتيوخا بهزةٍ من رأسه، وسحب عنان فرس المقدمة التي تصببت عرقاً.

- هيا، هيا، يا شباب، ساعدونا، وستحصلون على إكراميةٍ، هتف نيكولاي بتروفيتش.

أُعدّت الجياد في بضع دقائقَ، فاستقلّ الأب والابن العربة المكشوفة، وقعد بيوتر بجانب الحوذي، بينما قفز بازاروف إلى العربة الكبيرة، ومال برأسه على الوسادة الجلدية، وتحركت المركبتان.

3

- حصلت على الماجستير، وعدت إلى الأهل أخيراً، قال نيكولاي بيتروفيتش، وهو يلامس كتف أركادي تارةً، وركبته تارةً أخرى.

- كيف حال عمي؟ هل هو بصحةٍ جيدةٍ؟ - سأل أركادي معجلاً في تحويل الكلام من حالة الانفعال إلى الأمور العادية، بالرغم من الفرحة الصادقة، والطفولية تقريباً، التي تملأ فؤاده.

- بصحّةٍ جيدةٍ. كان عازماً على الخروج معي لاستقبالك، ولكنه غيّر رأيه لسببٍ ما.

- وهل انتظرتني طويلاً؟

- خمس ساعاتٍ تقريباً.

- ما أطيبك يا أبتي!

استدار أركادي بسرعةٍ نحو أبيه، وطبع على خده قبلةً رنانةً.

فضحك نيكولاي بتروفيتش بهدوءٍ. ثمّ قال:

- جهّزت لك حصاناً رائعاً، وستتأكد من ذلك بنفسك، ثم إن جدران غرفتك مزينةٌ بالورق.

- وهل هناك غرفةٌ لبازاروف؟

- سنعدّ غرفةً له هو الآخر.

- أرجوك يا أبتي، اعتن به، فأنا عاجزٌ عن التعبير؛ عن مدى اعتزازي بصداقته.

- يبدو، أنك تعرفت عليه من مدةٍ قريبةٍ، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولذا لم أره في الشتاء الماضي، ماذا يدرس؟

- شغله الشاغل، هو العلوم الطبيعية، ولكنه ملمٌّ بكلّ شيءٍ، ويستعد لاجتياز امتحانات الطب.

- أها، إنّه في الكليّة الطبية، قال نيكولاي بتروفيتش، ولزم الصمت برهةً، ثم سأل من بيوتر مشيراً بيده:

- هؤلاء الراكبون فلاحونا، أليس كذلك؟

التفت بيوتر نحو الجهة التي أشار إليها سيده. كانت عدّة عرباتٍ تجرها خيولٌ مفكوكة الألجمة تنهب الدرب الريفي الضيق.

وفي كلّ عربةٍ فلاحٌ أو فلاحان بفرواتٍ مفتوحة الأزرار.

- بالضبط، يا سيدي، أجاب بيوتر.

- إلى أين يقصدون؟

- إلى المدينة في أغلب الظنّ إلى الحانة، أضاف بيوتر بازدراءٍ، ومال قليلاً نحو الحوذي، وكأنما يأمل أن يجد فيه مؤيداً لرأيه، إلا أنّ ذاك لم ينبس ببنتِ شفةٍ، فهو شخصٌ محافظٌ لا يؤمن بالآراء العصرية، فواصل نيكولاي بتروفيتش كلامه مخاطباً ابنه:

- ازدادت مشاغلي في العام بسبب الفلاحين، إنهم لا يدفعون الجزية، فماذا أفعل لهم؟

- وهل أنت مرتاحٌ من عمالك الأجراء؟

فأجاب نيكولاي بتروفيتش مكرهاً:

- أجل، ولكن المصيبة أنهم يندفعون بالتحريض، ثم إنه ليس لديهم حماسٌ حقيقيٌّ في العمل، وهم يُتْلفون عدّة الخيل، غير أنهم حرثوا على نحوٍ لا بأس به، كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، ولكن

هل تشغل شؤون الضيعة بالك الآن؟

- المصيبة، أنّ الظل معدوم لديكم الآن، لاحظ أركادي دون أن يجيب عن السؤال الأخير، فقال نيكولاي بتروفيتش:

- علقتُ ستارةً كبيرةً على الشرفة من جهة الشمال، وأصبح بالإمكان تناول الغداء في الهواء الطلق.

- سيكون ذلك أشبه بالفلّات الصيفية... ولكن لا يهم، تلك أمورٌ تافهةٌ. فما أروع الهواء المنعش هنا! وما أزكى الروائح! يُخيل إليّ أنّ الروائح الفوّاحة، في هذه البقاع ليس لها مثيلٌ في أيّ مكانٍ في العالم، ثم ما أجمل السماء!!...

سكت أركادي فجأةً، ألقى بنظرةٍ منحرفةٍ إلى الوراء، ثم لزم الصمت، فقال نيكولاي بتروفيتش:

- بالطبع، وُلدت في هذه الأنحاء، ولا بد أن يبدو لك كلّ شيءٍ هنا في صبغةٍ خاصةٍ...

- كلا، يا أبتي، لا فارق في ذلك، مهما كان المكان الذي يولد فيه المرء.

- ولكن...

- كلا، لا فارق بتاتاً.

ألقى نيكولاي بتروفيتش نظرةً جانبيةً على ابنه. ولم يستأنف الحديث بينهما إلا بعد أن قطعت العربة زهاء نصف كيلومتر، حيث بدأ نيكولاي بتروفيتش كلامه:

- لا أتذكر كتبت لك أم لا؟ توفيت مربيتك القديمة يغوروفنا.

- حقاً؟ يا لَعجوز المسكينة!، وهل بروكوفيتش على قيد الحياة؟

- أجل، ولم يتغير قيد أنملةٍ، فهو على عادته في المقدمة، وعلى العموم لن تجد تغيراتٍ كبيرةً في مارينو.

- وهل الوكيل باقٍ هو نفسه؟

- وكيل المزرعة هو الشخص الوحيد الذي استبدلته، قررت ألا أحتفظ بعد الآن بالأقنان السابقين المعتوقين، أو، على الأقل، أن لا أكلفهم، بأية مهماتٍ ذات مسؤوليةٍ - وعند ذاك أشارأركادي بغمزةٍ من عينه إلى بيوتر، فقال نيكولاي بتروفيتش بصوتٍ يكاد يشبه الهمس:

- (إنه معتوق فعلاً)[5]، ولكنه وصيفي المقرب، ولديّ الآن وكيلٌ من المدينة؛ شخصٌ فطينٌ على ما يبدو، وقد خصصت له مائتين وخمسين روبلاً في العام، ثم أضاف نيكولاي بتروفيتش قائلاً، وهو يمسح جبهته وحاجبيه بيده، الأمر الذي يدل دوماً على استحيائه الداخلي - أخبرتك الآن بأنك لن تجد تغيراتٍ في مارينو... والحال فليس الأمر كذلك تماماً... وأرى من واجبي تنبيهك مسبقاً، مع أن...

تلعثم في الحديث لحظةً، ثم واصل كلامه بالفرنسية:

- مع أنّ الأخلاقي الصارم قد يعتبر صراحتي هذه في غير محلّها. ولكن لا يمكن إخفاء ذلك، هذه أولاً، وثانياً أنت عارفٌ بأنّ لديّ على الدوام مبادئُ خاصةٌ بشأن موقف الأب من ابنه، وعلى كلّ حالٍ لك الحق طبعاً أن تلومني، ففي مثل سني هذه... وباختصارٍ، أقصد... أقصد تلك الفتاة التي ربما سمعت عنها...

- فينيتشكا؟! سأل أركادي بلا تكلّفٍ.

احمّر وجه نيكولاي بتروفيتش خجلاً.

- أرجوك، لا تذكر اسمها بصوت عالٍ... أجل، هي... إنها تعيش الآن عندنا. أفردت لها مكاناً في الدار... كانت هناك غرفتان صغيرتان، وبالمناسبة فذلك أمر يمكن تغييره.

- ما الداعي لتغييره، يا أبتي؟

- صديقك سيحل ضيفاً علينا... ومن المخجل...

- لا تقلق، رجاءً، بخصوص بازاروف، فهو إنسانٌ لا يهتم بهذه الاعتبارات.

- أنا قلقٌ بخصوصك، أنت، إذن، قال نيكولاي بتروفيتش ثم أضاف:

- بناية الجناح رديئةٌ، ياللَمصيبةِ!!.

فعاجله أركادي قائلاً:

- عفواً، يبدو وكأنك تعتذر، اتّقِ الله يا أبتي.

- بالطبع، عليّ أن أتقي الله، أجاب نيكولاي بتروفيتش، وهو يزداد احمراراً.

- كفاك، يا أبتي، كفاك، أرجوك! ابتسم له أركادي برقةٍ وحنانٍ.

-«ممَ تعتذر؟». فكّر في دخيلة نفسه، وامتلأت جوانحه بشعورٍ من الرقة المتسامحة؛ إزاء والده الوديع الطيّب، بشعورٍ يشوبه إحساسٌ خفيٌّ بالتفوق.

- دعك من هذا، أرجوك.

كرر من جديدٍ، وهو يستمتع عفوياً؛ بإدراكه أهمية تطوره وحريته.

تطلع إليه نيكولاي بتروفيتش من بين أصابع يده التي كان يمسح بها جبهته، وأحسّ بوخزةٍ في القلب... ولكنه أناح باللائمة على نفسه في الحال، ثم قال بعد صمتٍ طويلٍ:

- ها هي حقولنا.

فقال أركادي:

- يبدو لي أنّ تلك الغابة، في الأمام، غابتنا، أليس كذلك؟

- بلى، غابتنا، ولكنني بعتها. وسوف تُقتلع أشجارها في العام الحالي.

- لماذا بعتها؟!.

- كنت بحاجةٍ إلى النقود، ثم إنّ هذه الأراضي ستحال إلى الفلاحين.

- أولئك الذين لا يدفعون لك الجزية؟

- هذا أمرٌ يعود لهم، أعتقد أنهم سيدفعونها في وقتٍ ما.

- أسفي على الغابة!!، قال أركادي، وأخذ يتطلع إلى ما حواليه.

الأماكن التي اجتازوها لا تستحق نعت المناظر الخلابة، فالحقول تمتد بعيداً حتى الأفق، وهي ترتفع قليلاً تارةً، وتنخفض تارةً أخرى، وفي بعض الجهات لاحت غاباتٌ غير كبيرةٍ، وكانت المنخفضات المطرزة بشجيراتٍ واطئةٍ متباعدةً، تتلوى، فتعيد إلى الأذهان صورها المرسومة على الخرائط القديمة المتبقية من عهد «يكاتيرينا»[6]، وصادفتهم نهيراتٌ ذات ضفافٍ متآكلةٍ، وبركٍ صغيرةٍ عليها سدودٌ متداعيةٌ، وقرىً فيها أكواخٌ واطئةٌ تحت

سقوفٍ قائمةٍ مهدمةٍ حتى منتصفها في الغالب، ومستودعاتٍ للدراس، مالت أركانها بجدرانها المجدولة من العيدان والأغصان، وبواباتها المخلوعة المتنائية قرب الأجران الخاوية، وكنائسَ قرميديةٍ تساقط طلاء جدرانها في بعض الأماكن، وأخرى خشبيةٌ ذات صلبانٍ مائلةٍ ومقابرَ مدمرةٍ. أخذ الألم يحزّ في فؤاد أركادي، حتى لكأنّ ما رآه قد لاح أمامه عمداً، فكلّ الفلاحين الذين صادفهم، كانوا مشعثين على خيولٍ هزيلةٍ. وكانت أشجار الصفصاف تنتصب على جانبي الطريق بلحائها الممزق، وأغصانها المكسرة، كالمتسولين في الأسمال، وكانت بقراتٌ معروقةٌ متحشفةٌ، كأنها منهوشةٌ حتى العظام، تقضم العشب بنهمٍ في المنخفضات، وبدت هذه البقرات العجاف، وكأنما تخلّصت تواً من براثن رهيبةٍ فتّاكةٍ، فأثار منظرها المزري في وضح النهار الربيعي شبحاً أبيضَ ملفعاً بالزوابع الجليدية والصقيع والثلوج، شبح الشتاء اللانهائي الخالي من المسرات، وفكّر أركادي:

- كلا، ليست غنيةً هذه البقاع، فهي لا تدهش المرء بثروتها، ولا بالمواظبة على العمل، كلا، لا يجوز أن تبقى على هذه الحال؛ ينبغي إجراء تحويلاتٍ.... ولكن كيف يمكن تحقيقها؟ ومن أين نبدأ؟.

هكذا فكر أركادي... في حين كان الربيع في أوجه، كلّ شيءٍ حواليه، من أشجارٍ وشجيراتٍ وأعشابٍ، في خضرةٍ ذهبيةٍ يانعةٍ، وكلّ شيءٍ يتموّج، ويلمع فسيحاً رقيقاً في أنفاس النسيم الدافئ الهادئة، وفي كلّ مكانٍ تنساب أصوات القبرات الرنانة بلا انقطاعٍ، والزقازيق تارةً تنعق محوّمةً فوق المروج المنخفضة، وتارةً تتراكض صامتةً من كومةٍ ترابيةٍ إلى أخرى، وغربان القيظ تتمشى سوداءَ جميلةً في خضرة سنابل الربيع الغضة الواطئة، كانت هذه الغربان تختفي في الجودار الذي ابيضّت سنابله قليلاً، ثم تلوح رؤوسها في أمواج السنابل الدخانية اللون بين الفنية والأخرى. أطال أركادي التطلع؛ حتى تراخت تأملاته بالتدريج، وأخذت تختفي... خلع معطفه وألقى على أبيه نظرةً مرحةً من محيّا فتىً يافعٍ جعلت الأب يعانقه من جديدٍ، ويقول:

- لم يبق إلا القليل، فما إن نتسلّق هذه الهضبة؛ حتى يلوح المنزل للأنظار، وسنعيش معك، يا أركاشا، برغدٍ وهناءٍ، سوف تساعدني في أمور الضيعة إذا كان ذلك لا يسبب لك ضجراً.

ينبغي لنا الآن، أن نتقارب على نحوٍ أوثق، وأن نتعرف على بعضنا البعض بصورةٍ أفضل، أليس كذلك؟.

فأجاب أركادي:

- بالطبع، ولكن ما أروع النهار اليوم!

- خصيصاً لمجيئك يا حبيبي، فالربيع يختال ضاحكاً.

ولكنني أقول مع بوشكين في ملحمة «يفغيني أونيغين»:

أيها الربيع، يا فصل الغرام!

ما أشد حزني لمجيئك.

فأي....7

- أركادي!، تعالى من العربة الثانية صوت بازاروف.

- ابعث لي ثقاباً، فليس لدي ما أشعل به الغليون.

لاذ نيكولاي بتروفيتش بأذيال الصمت، بينما كان أركادي قد استعدّ ليستمع إليه؛ بشيءٍ من الإعجاب، وبشيءٍ من المشاطرة، ولكنه أخرج من جيبه على عجلٍ علبة ثقابٍ فضيةٍ، وبعثها مع بيوتر إلى بازاروف، فصاح هذا من جديدٍ:

- هل تريد سيجاراً؟!.

- أجل، أجاب أركادي.

عاد بيوتر إلى العربة، وسلّمه مع علبة الثقاب سيجاراً قاتماً غليظاً؛ دخّنه أركادي في الحال، وصار ينفث حواليه دخان التبغ

العتيق، ففاحت رائحةٌ حادةٌ لاذعةٌ؛ جعلت نيكولاي بتروفيتش الذي لم يجرب التدخين، ولا مرّةٍ في حياته يشيح بوجهه عفوياً، ولكن بصورةٍ غير ملحوظةٍ كيلا يغيظ ابنه.

بعد ربع ساعةٍ، توقفت العربتان أمام مدخل دارٍ خشبيةٍ جديدةٍ مطليةٍ بدهانٍ رماديّ، وذات سطحٍ حديديّ أحمر اللون، كانت تلك هي ضيعة «مارينو»، أو «دارة الأعزب»، كما يسميها الفلاحون.

4

لم يهرع حشدٌ كبيرٌ من الخدم إلى المدخل لاستقبال الأسياد.

فقد ظهرت بنتٌ في الثانية عشرة من العمر تقريباً، وخرج على أثرها من الدار فتىً شبيهٌ كلّ الشبه ببيوتر في سترة خدمٍ رماديةٍ ذات أزرارٍ معدنيةٍ كبيرةٍ بيضاءَ؛ إنه وصيف بافل بتروفيتش كيرسانوف، فتح باب العربة المكشوفة صامتاً، ثم حل أزرار ستارة العربة الأخرى، اجتاز نيكولاي بتروفيتش وابنه وبازاروف قاعةً معتمةً تكاد تكون خاليةً إلا من وجه امرأةٍ شابةٍ لاح للحظةٍ من خلال بابها، ودخلوا غرفة الاستقبال المؤثثة على أحدث طرازٍ.

- ها نحن في الدار، قال نيكولاي بتروفيتش، وخلع قبعته، وراح ينفض شعره.

- أهم شيءٍ الآن، هو تناول طعام العشاء، ثم الاستجمام.

- حقاً، حبّذا لو تناولنا الطعام، عقّب بازاروف وهو يعدّل من قامته، ثم جلس على الأريكة.

- أجل، أجل، قدّموا طعام العشاء، وبأسرع ما يمكن، طقطق نيكولاي بتروفيتش بقدميه من دون أيّ سببٍ ظاهرٍ، ها، هو بروكوفيتش بالمناسبة.

دخل رجلٌ نحيفٌ أسمر في حوالي الستين، أشيب الشعر في بزّة وصيفٍ بنية اللون ذات أزرارٍ معدنيةٍ، وعلى عنقه منديلٌ ورديٌّ.

ابتسم ابتسامةً عريضةً، وقبّل يد أركادي، ثم انحنى للضيف، وتراجع نحو الباب؛ حيث أشبك يديه وراء ظهره.

فقال نيكولاي بتروفيتش:

- ها، هو ولدي قد وصل أخيراً... فكيف يبدو في نظرك يا بروكوفيتش؟

- في أحسن حالٍ يا سيدي، أجاب العجوز، وكشّر من جديدٍ مبتسماً، لكنه قطّب حاجبيه الكثيفين في الحال، وقال بمهابةٍ:

- هل تأمرون بإعداد المائدة؟

- أجل، أجل، من فضلك، ولكن هل توجّهت، يا يفغيني فاسيليفيتش، إلى غرفتك في بادئ الأمر؟

- كلا، متشكرٌ، لا داعي لذلك، قال بازاروف، ثم أضاف، وهو يخلع رداءه:

-يكفي، أن تأمر بنقل حقيبتي إليها مع هذا اللباس.

- طيب، يا بروكوفيتش، خذ معطف السيد، التقط بروكوفيتش معطف بازاروف بكلتا يديه، في شيءٍ من الاستغراب، ورفعه فوق رأسه عالياً، وانصرف على أطراف أصابعه، وأنت، يا أركادي، هل ستذهب إلى غرفتك للحظةٍ؟.

- أجل، ينبغي أن أتنظف، أجاب أركادي، وكاد يتجه إلى الباب؛ لو لا أن دخل غرفة الاستقبال في تلك اللحظة رجلٌ متوسط القامة، في بدلةٍ إنجليزيةٍ قاتمةٍ، وربطة عنقٍ قصيرةٍ حسب الموضة، وجزمةٍ واطئةٍ لمآعةٍ إنّه بافل بتروفيتش كيرسانوف؛ مظهره يدل على أنّه في حوالي الخامسة والأربعين؛ شعره الأشيب القصير، يبعث لمعاً قاتماً كالفضة الجديدة، ووجهه

المتجهّم الخالي من الغضون، والمعتدل التقاسيم والصافي كلّ الصفاء، كما لو نُحت بإزميلٍ خفيفٍ دقيقٍ، يحتفظ بآثار وسامةٍ رائعةٍ، وعيناه السوداوان الوضاءتان المستطيلتان؛ بعض الشيء جميلتان على الخصوص، كانت ملامح عم أركادي الرشيق الأصيل الأرومة، قد احتفظت باعتدال قوام الفتوة، والتطلع إلى الأعالي بعيداً عن الأرض، ذلك التطلع الذي يختفي بأغلبه في سن الثلاثين.

أخرج بافل بتروفيتش من جيب سرواله يده الجميلة ذات الأظافر الوردية الطويلة، وقد بدت أكثر جمالاً؛ بتأثير الردن الأبيض الناصع كالثلج، والمشدود بإبزيمٍ عليه فصٌّ كبيرٌ واحدٌ من حجر عين الشمس، فمدها إلى ابن أخيه، وبعد أن (صافحه)[8] على الطريقة الأوروبية، قبّله ثلاث قبلاتٍ على الطريقة الروسية، أيّ أنه لامس خديه ثلاث مراتٍ بشاربيه الفواحين، وقال: «أهلاً وسهلاً».

عرّف نيكولاي بتروفيتش بازاروف عليه، فحنى بافل بتروفيتش قدّه اللدن قليلاً، وانفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ خفيفةٍ، ولكنّه لم يمدّ له يده، بل دسّها في جيبه مجدّداً.

- طال الانتظار؛ حتى ظننت أنكم لن تصلوا اليوم، قال بصوتٍ وديعٍ، وهو يتمايل بلطفٍ، ويهزٌّ كتفيه قليلاً، ويكشف عن

أسنانه الرائعة البيضاء، فهل حدث شيءٌ في الطريق؟!.

- لم يحدث شيءٌ، أجاب أركادي، سوى أننا تباطأنا قليلاً، ولذلك فنحن جياعٌ كالذئاب، استعجل بروكوفيتش، يا أبتي، أمّا أنا فسأعود في الحال.

- تمهّل، أنا ذاهبٌ معك، هتف بازاروف، وقفز من الأريكة فجأةً، وخرج مع أركادي، فسأل بافل بتروفيتش:

- من هذا؟

- صديق أركاشا، وهو شخصٌ ذكيٌّ جداً، كما يقول.

- سيبقى في ضيافتنا؟

- أجل.

- الطويل الشعر هذا؟

- نعم، أجل.

نقر بافل بتروفيتش، بأظافره على الطاولة ثم قال:

- يُخيل إليّ أن أركادي أصبح أقلّ تكلفاً[9]، ثم أردف قائلاً: أنا مسرورٌ لعودته.

لم يسهبوا في الكلام أثناء العشاء، وخصوصاً بازاروف الذي لم يقل شيئاً في الواقع، ولكنه أكل كثيراً، تحدث نيكولاي بتروفيتش عن حوادثَ مختلفةٍ من حياته المزرعية، على حدّ تعبيره، وتناول الإجراءات الحكومية المرتقبة، وتكلّم عن اللجان وعن النواب[10]، وعن ضرورة اقتناء المكائن وهلم جراً.

وكان بافل بتروفيتش يجوب غرفة الطعام جيئة وذهاباً، فهو لا يتناول طعام العشاء أبداً، ونادراً ما يرتشف جرعةً من قدحه المملوء بنبيذٍ قاتمٍ، وكان يبدي، على نحوٍ أندرَ، ملاحظةً ما، أو على الأصح؛ تندّ عنه أصوات التعجب من طراز «أها! هيه!». ذكر أركادي بعض أنباء «بطرسبورغ» لكنه أحسّ بشيءٍ من عدم الارتياح الذي ينتاب الشاب عادةً؛ حينما يكفّ عن أن يكون طفلاً، فيعود إلى المكان الذي اعتاد الآخرون أن يروه فيه، ويعتبروه طفلاً، كان يمطط كلامه، دونما داعٍ ويتحاشى ذكر كلمة «أبتي»؛ حتى أنه استبدلها مرّةً بكلمة «الوالد»، ونطقها بصوتٍ خافتٍ. وصبّ في قدحه، بمزيدٍ من عدم التكلّف، قدراً أكبر مما كان يريد، ثم تجرع النبيذ حتى الثمالة، وما كانت لتحيد عنه عينا بروكوفيتش الذي لم يفعل، غير أن راح يعلك شفتيه طوال الوقت، وبعد العشاء تفرّقوا في الحال.

- عمّك غريب الأطوار بعض الشيء، قال بازاروف لأركادي، وهو جالسٌ بردائه البيتي قرب سريره، يمتص أنفاساً من غليونه القصير، منتهى التأنّق في الريف، يا للغرابة!!، ثم إنّ أظافره!!، أظافره تستحق أن ترسل إلى المعرض!.

فأجاب أركادي:

- أنت لا تدري، كان في زمانه ليناً، سأقصّ عليك قصته في وقتٍ آخر، كان في منتهى الجمال، وكان محبوب النساء.

- هكذا إذن! يعني أنه لا يزال على عاداته القديمة، ولكن لا أحد هنا يمكن إغواؤه مع الأسف. لاحظت أنّ ياقته منشأةٌ على نحوٍ مدهشٍ، كما لو كانت من حجرٍ، وذقنه حليقٌ بكلّ عنايةٍ. أليس ذلك، يا أركادي، مثاراً للضحك؟!.

- ربما، ولكنه رجلٌ طيبٌ حقاً.

- إنه ظاهرةٌ أكل الدهر عليها، وشرب، أمّا أبوك، فهو إنسانٌ رائعٌ بالفعل؛ عبثاً يتلو الأشعار، ومن المستبعد أنه يفهم شيئاً في أمور المزرعة، ولكنه طيب القلب.

- والدي إنسانٌ من التبر الخالص.

- هل لاحظت أنّه خجِلٌ؟

هزّ أركادي رأسه بالإيجاب، وكأنما؛ لم يعترهِ هو نفسه الخجل، فواصل بازاروف كلامه:

- عجيبٌ أمرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول!. إنهم يرهقون جهازهم العصبي إلى حد الانفعال... وعند ذاك يختل توازنهم، ولكن إلى اللقاء!!، باب غرفتي دون قفلٍ. وفيها غسّال إنجليزي، هذا أمرٌ يستحق الثناء، فالغسالات الإنجليزية تعني التقدم!!.

انصرف بازاروف، واجتاح أركادي شعورٌ بالفرحة، فالنوم لذيذٌ في المنزل الحبيب، في السرير المعتاد، تحت غطاءٍ خاطته يدان حبيبتان، ربما هما يدان المربية، يدان طيّبتان حنونتان لا تعرفان الكلل. تذكّر أركادي مربيته «يغوروفنا»، فتنهّد، وتمنى لها النعيم في الآخرة... ولكنه لم يبتهل من أجل نفسه.

سرعان؛ ما اكتنفه الكرى هو وبازاروف، بيد أن الآخرين في الدار يراودهم النعاس أمداً طويلاً. كانت عودة الابن قد هيجت مشاعر نيكولاي بتروفيتش، فاضطجع على سريره دون أن يطفئ الشموع، وأطال التفكير مسنداً رأسه بيده، أمّا أخوه، فقد تجاوز منتصف الليل بوقتٍ طويلٍ، وهو جالسٌ على مقعدٍ وثيرٍ واسعٍ في مكتبه؛ أمام المدفأة الحائطية التي كان الفحم الحجري يستعر فيها بخفوتٍ. لم يخلع بافل بتروفيتش ملابسه، سوى أنه استبدل جزمته الواطئة اللماعة بصندلٍ صينيّ أحمرَ مكشوف المؤخرة. أمسك

بآخر عددٍ من (غالينياني)[11]، ولكنه لم يقرأه، كان يحدق في المدفأة حيث يرتعش اللهب الأزرق؛ مندلعاً تارةً وخافتاً تارةً أخرى...

الله يعلم أين تحوم أفكاره المركزة، ولكنها لم تكن تجوب الماضي وحده، فقد كانت تقاطيع وجهه عابسةً مكفهرةً، الأمر الذي لا يحدث عندما ينشغل بال المرء بالذكريات وحدها، أمّا في الغرفة الخلفية الصغيرة، فقد جلست على صندوقٍ كبيرٍ امرأةٌ شابةٌ، هي فينيتشكا، في بلوزةٍ زرقاءَ ومنديلٍ أبيضَ يغطي شعرها الفاحم. كانت تارةً تتسمع، وتارةً تغفو، وتارةً تنظر إلى الباب المنفرج عن سريرٍ صغيرٍ، فيه طفلٌ نائمٌ تتهادى أنفاسه خفيفةً رتيبةً.

5

في صباح اليوم التالي، استيقظ بازاروف قبل الآخرين، وخرج من الدار، تطلع حواليه، وفكّر في نفسه: «أها! هذه الأماكن يعوزها الجمال». عندما فصل نيكولاي بتروفيتش أرضه من أراضي فلاحيه، اضطرّ إلى إنشاء الضيعة الجديدة على بقعةٍ مستويةٍ عاريةٍ تماماً، مساحتها زهاء أربعة هكتاراتٍ، فبنى داراً ومنشآتٍ للخدمة ومزرعةٍ، وغرس بستاناً وحفر بركةً وبئرين، إلا أن الشجيرات الغضة لم تزدهر بالشكل اللازم، وتجمعت في

البركة مياهٌ قليلةٌ جداً، وكان طعم ماء البئرين مالحاً بعض الشيء، ولم تنمُ كما يجب، إلا تعريشة الاستراحة المكونة من الليلاك والأكاسيا، حيث كانوا يحتسون الشاي، ويتناولون طعام الغداء أحياناً. جاب بازاروف في بضع دقائقَ جميع مماشي البستان، ومرّ بزريبة الماشية والإسطبل وصادف اثنين من أبناء الخدم، فتحدّث معهما، وأخذهما على الفور إلى المستنقع الصغير الواقع على بعد كيلومترٍ عن الضيعة بغية تصيّد الضفادع.

فسأله أحد الولدين:

- ما حاجتك إلى الضفادع يا سيدي؟

فأجاب بازاروف الذي يجيد على نحوٍ خاصٍ كسب ثقة الناس الأدنى منه رغم استهانته بهم، وعدم تسامحه معهم إطلاقاً:

- إنني أشرّح الضفدعة، وأراقب ما يجري في داخلها، وربما أننا، أنا وأنت، نفس الضفادع بفارقٍ واحدٍ، هو أننا نسير على رجلين اثنين، فإنني سأعرف ما يجري في داخلنا أيضاً.

- وما فائدة ذلك؟

- كيلا أخطئ؛ عندما تمرض أنت، وأضطر أنا لمعالجتك.

- أنت دكتورٌ؟

- نعم.

- هل أنت سامعٌ يا فاسكا؟ السيد يقول إننا والضفادع شيءٌ واحدٌ، يا للغرابة!

- أنا أخاف منها، من الضفادع، قال فاسكا، وهو طفلٌ في حوالي السابعة حافي القدمين بقميصه القوزاقي الرمادي، ذي الياقة المنتصبة، وشعره الأبيض كالكتان.

- لماذا تخاف منها؟ فهل تعض؟.

- هيا، ادخلا الماء أيها الفيلسوفان!.

في تلك الأثناء، استيقظ نيكولاي بتروفيتش هو الآخر، وتوجه إلى أركادي، فوجده مرتدياً ملابسه. خرج الأب وابنه إلى الشرفة المحجوبة بالستارة، وعلى المائدة قرب الدرابزون كان السماور يغلي بين باقاتٍ كبيرةٍ من الليلاك. حضرت نفس البنت التي كانت بالأمس أول من استقبل القادمين في المدخل، وقالت بصوتٍ رفيعٍ:

- فينيتشكا متوعكةٌ، ولا تستطيع الحضور، وطلبت أن أستفسر هل يروق لكم أن تصبّوا الشاي بأنفسكم، أم يجب إرسال دونياشا لتصبه؟

- سأصبه بنفسي، بنفسي أجاب نيكولاي بتروفيتش على عجلٍ، أي شايّ تحبّ، يا أركادي، بالقشدة أم بالليمون؟

- بالقشدة، أجاب أركادي، ثم قال متسائلاً بعد لحظة صمتٍ: يا أبتي...

ألقى نيكولاي بتروفيتش نظرةً حائرةً على ابنه وقال:

- ماذا؟

غضّ أركادي بصره، وطفق يتكلم:

- اعذرني، يا أبتي، إذا بدا لك سؤالي في غير محلّه، ولكن صراحتك بالأمس تحملني على أن أكون صريحاً.. أفلا تزعل مني؟!...

- تكلّم.

- أنت تجعلني أتجاسر على أن أسألك... أليس السبب في عدم حضور فيني... أليس السبب في عدم حضورها لتصبّ الشاي، هو وجودي أنا؟

أشاح نيكولاي بتروفيتش بوجهه قليلاً، ثم قال أخيراً:

- ربما أنها تتصور... أنها تخجل...

داهم أركادي أباه بنظرةٍ سريعةٍ وقال:

- لا داعي للخجل، فأنت تعرف، أولاً: طراز تفكيري، كان أركادي مسروراً كلّ السرور؛ لتلفّظ هذه الكلمات، وثانياً: هل أريد أنا، يا ترى، أن أضيق على حياتك، وعلى عاداتك قيد شعرةٍ؟

ثم إنني واثقٌ من أنك لا يمكن أن تختار السوء، فطالما سمحت لها؛ بأن تعيش معك تحت سقفٍ واحدٍ، فذلك يعني أنها تستحقه، وعلى كلّ حالٍ، فالابن ليس بحاكمٍ على أبيه، وخصوصاً إذا كان الابن مثلي، وإذا كان الأب مثلك أنت الذي لم تضيّق على حريتي قيد أنملةٍ.

كان صوت أركادي يرتجف في بادئ الأمر، فقد أحسّ بشعورٍ من التسامح والنبل، ولكنه أدرك في الوقت ذاته؛ بأنه يتلو على أبيه ما يشبه الموعظة، إلا أنّ صوت المرء يؤثر عليه تأثيراً شديداً، ولذا تلفّظ أركادي الكلمات الأخيرة بصلابةٍ، بل وعلى نحوٍ مؤثرٍ، فقال نيكولاي بتروفيتش بصوتٍ خافتٍ، وراحت أصابعه من جديدٍ تفرك حاجبيه وجبهته:

- شكراً لك، يا أركاشا، تصوراتك صائبةٌ حقّاً، فلو لم تكن هذه البنية جديرةٌ، طبعاً... ذلك ليس نزوةً عابرةً، وليس من السهل عليّ أن أتكلّم معك بهذا الخصوص، ولكنك تفهم جيداً أن من الصعب عليها أن تأتي بحضورك، وخصوصاً في اليوم الأول من وصولك.

- إذن، فسأذهب إليها بنفسي، هتف أركادي بنفحةٍ جديدةٍ من المشاعر النبيلة، وقفز من كرسيه، وسوف أبيّن لها؛ أن لا داعي للخجل مني.

نهض نيكولاي بتروفيتش هو الآخر، وطفق يقول:

- أركادي، أرجوك... لا تفعل ذلك... فأنا لم...

بيد أن أركادي لم يسمعه، فقد ترك الشرفة راكضاً، لاحقه نيكولاي بتروفيتش بنظراته، ثم هوى على الكرسي خجلاً، خفق قلبه... ومن الصعب التأكيد، بأنه تصور في تلك اللحظة غرابة العلاقات المرتقبة حتماً بينه وبين ابنه، أو أنه أدرك؛ بأن أركادي ربما قدم له المزيد من الاحترام، لو أنّه لم يتناول هذه القضية بتاتاً، أو أنه لام نفسه على ضعفها وخورها. كانت جميع هذه المشاعر تعتمل في دخيلته، ولكن بشكل أحاسيس تكاد تكون غامضةً، بينما الاحمرار لا يزال على وجهه، ولا يزال قلبه يخفق.

تهادت خطواتٌ مستعجلةٌ، دخل أركادي الشرفة تعلو وجهه مسحةٌ من الطيبة والحنان، وهتف منتصراً:

- لقد تعارفنا، يا والدي! وهي متوعكةٌ حقاً اليوم، وسوف تأتي فيما بعد، ولكن لمَ لمْ تخبرني بأنّ لدي أخاً؟ لكنت قد قبّلته مساء أمس، كما قبّلته الآن.

أراد نيكولاي بتروفيتش أن يقول شيئاً، وأن ينهض، ويفتح يديه؛ ليحتضن ابنه... ولكن أركادي اندفع إليه يعانقه.

- ما هذا؟ هل تتعانقان من جديدٍ؟، دوى وراءهما صوت بافل بتروفيتش.

فرح الأب والابن بقدرٍ واحدٍ؛ لظهوره في هذه اللحظة، فهناك حالاتٌ مؤثرةٌ بودّ المرء أن يتخلص منها مع ذلك بأسرع ما يمكن، فقال نيكولاي بتروفيتش مرحاً:

- ما الذي يثير دهشتك؟ لقد طال انتظاري لأركاشا...

ولم أشبع من التطلع إليه نهار أمس.

فقال بافل بتروفيتش:

- لست مندهشاً إطلاقاً، فأنا نفسي لا أمانع في معانقته.

اقترب أركادي من عمه، وأحسّ بلمسات شاربيه الفواحين على خديه، جلس بافل بتروفيتش إلى المائدة، وكان يرتدي بدلةً صباحيةً أنيقةً على النمط الإنجليزي، وطربوشاً صغيراً يزهو على رأسه، كان هذا الطربوش وربطة العنق المعقودة بلا اعتناءٍ ينمان عن طلاقة الحياة الريفية، بيد أنّ الياقة المنتصبة لقميصه الملون،

كما يتطلب زي الصباح، قد انغرزت بلا رحمةٍ، كالمعتاد في ذقنه الحليق، وسأل العم من ابن أخيه:

- أين صديقك الجديد؟

- خرج، فهو يستيقظ مبكراً، ويتجوّل عادةً، المهم ألا تلتفتوا إليه، فهو لا يحب الرسميات.

- أجل، لاحظت ذلك، وهل سيبقى عندنا طويلاً؟، سأل بافل بتروفيتش، وبدأ يضع شيئاً من الزبدة على قطعة خبزٍ دون استعجالٍ.

- حسب الظروف، فقد عرج علينا في طريقه إلى أبيه.

- أين يقيم أبوه؟

- في مقاطعتنا، على بعد ثمانين كيلومتراً من هنا تقريباً.

لديه هناك ضيعةٌ غير كبيرةٍ، وقد خدم في السابق طبيباً في أحد الأفواج.

- أها... ذلك، إذن، ما جعلني أسأل نفسي أين سمعت بهذا اللقب: بازاروف؟... يا نيكولاي، أتذكّر أنّ طبيباً لقبه بازاروف كان يخدم في فرقة أبينا، أليس كذلك؟

- أجل، أظن...

- بالضبط، يعني أنّ ذاك الطبيب هو أبوه، حم!، مسّد بافل بتروفيتش شاربيه، ثم سأل ممططاً كلامه:

-ولكن من هو السيد بازاروف نفسه يا ترى؟!.

- تسأل من هو بازاروف؟!، قال أركادي، وانفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ خبيثةٍ

- هل تريد، يا عمي العزيز، أن أخبرك من هو بازاروف؟.

- اعمل معروفاً يا ابن أخي.

- إنه نهلستي.

- ماذا؟، سأل نيكولاي بتروفيتش، بينما رفع بافل بتروفيتش سكينه، وعلى طرفها الزبدة، وظل على هذه الحال دون حراكٍ. فكرر أركادي قائلاً:

- نهلستي.

فقال نيكولاي بتروفيتش:

- مصطلح نهلستي، على ما أظن، مشتقٌ من الكلمة اللاتينية نيهيل «nihil»، أي لا شيء عدمٌ، وبالتالي، فإن هذه الكلمة تعني إنساناً يرفض كلّ شيءٍ، أليس كذلك؟

- الأصح: لا يحترم شيئاً، عقّب بافل بتروفيتش، وتابع وضع الزبدة على الخبز، فقال أركادي:

- إنه الإنسان الذي يعالج كلّ شيءٍ من وجهة نظرٍ انتقاديةٍ.

- أفليس ذلك سواءٌ؟ سأل بافل بتروفيتش.

- كلا، ليس سواءً. فالنهلستي هو الإنسان الذي لا يطأطئ رأسه أمام أيّة شخصيةٍ مرموقةٍ، ولا يتقبّل مبدأ دون تمحيصٍ؛ مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ.

- ثم ماذا؟ فهل ذلك شيءٌ حسنٌ؟.

- هذا أمرٌ يتوقف على الأشخاص، يا عمي، فهو قد يعود على البعض بالخير، وقد ينقلب على البعض الآخر شرّاً مستطيراً.

- هكذا إذن، هذا أمرٌ لا يعنينا، على ما أعتقد، فنحن أبناء الجيل السابق، نتصور أنّ من المستحيل القيام بخطوةٍ واحدةٍ أو حتى مجرّد التنفس من دون مبادئٍ؛ المبادئ المقبولة، كما تقول، من دون تمحيصٍ، (ولكنكم غيرتم ذلك كله)[12]، «الله يعطيكم العافية ورتبة جنرال»[13]، أما نحن فسوف نتطلع إليكم مغرمين بكم أيها السادة، ال... لا أدري كيف تنطقون هذه الكلمة؟

- النهلستيون، قال أركادي بوضوحٍ.

- أجل، في السابق كان هناك الهيجليون، أما اليوم، فقد ظهر النهلستيون، فلنر كيف ستعيشون في الفراغ الخالي من الهواء.

أمّا الآن، فدقّ الجرس رجاءً، يا أخي نيكولاي، فقد حان موعد احتساء الكاكاو.

دقّ نيكولاي بتروفيتش الجرس، وصاح: «دونياشا!»، ولكن فينيتشكا نفسها ظهرت في الشرفة بدلاً من دونياشا، كانت امرأةً غضةً في حوالي الثالثة والعشرين من العمر، ناصعة البشرة، بشعرٍ فاحمٍ وعينين سوداوين وشفتين حمراوين ممتلئتين كشفاه الأطفال، ويدين رقيقتين، كانت ترتدي بدلةً قطنيةً أنيقةً، وكان منديلٌ أزرقُ جديدٌ، قد استقر خفيفاً على كتفيها المكورتين، حملت قدحاً كبيراً من الكاكاو، فوضعته أمام بافل بتروفيتش، واعتراها الحياء كلياً، فنضح الدم الساخن كالموجة القانية على محياها المليح الرقيق، غضت بصرها، وتوقفت قرب المائدة مستندةً إليها بأطراف أصابعها، وكأنما شعرت؛ بأنّ مجيئها أمرٌ مخجلٌ، ولكنها في الوقت ذاته تتصور؛ بأنّ لها الحق في أن تحضر.

قطّب بافل بتروفيتش حاجبيه بصرامةٍ، بينما ارتبك نيكولاي بتروفيتش، ثم قال الأول بصوتٍ خافت:

- مرحباً، فينيتشكا!

- مرحباً يا سيدي، أجابته بصوتٍ خفيضٍ رنانٍ، ثم خرجت بهدوءٍ، وهي تسترق النظر إلى أركادي الذي ابتسم لها بودٍّ.

كانت تسير متمايلةً بعض الشيء، ولكن ذلك لم يكن يعيبها.

ساد الصمت الشرفة لحظاتٍ، وكان بافل بتروفيتش يرتشف الكاكاو، ثم رفع رأسه فجأةً، وقال بصوتٍ يكاد يكون همساً:

- ها، هو النهلستي قادمٌ.

بالفعل كان بازاروف يسير في الحديقة متخطياً جنينات الزهور.

كان معطفه القطني، وسرواله ملطخين بالأوساخ، وقد علقت نبتةٌ من نبتات المستنقع بقبعته المستديرة العتيقة، فطوّقت أسطوانتها.

كان يحمل بيده اليمنى كيساً صغيراً تهتز داخله كائناتٌ حيةٌ.

اقترب من الشرفة بسرعةٍ، وحنى رأسه قائلاً:

- مرحباً أيّها السادة، معذرةً؛ لتأخري عن الفطور، سأضع هؤلاء الأسيرات في أماكنهن، وأعود في الحال.

- ما هذا؟ أهو علقٌ؟، سأل بافل بتروفيتش.

- كلا، ضفادع.

- أتأكلها، أم تربيها؟

- أستعملها في التجارب، قال بازاروف في غير اكتراثٍ، وذهب إلى الدار، فعقّب بافل بتروفيتش:

- سيشرّحها، يؤمن بالضفادع، ولا يؤمن بالمبادئ.

ألقى أركادي نظرةً آسفةً على عمّه، فهزّ نيكولاي بتروفيتش كتفيه خلسةً، وأدرك بافل بتروفيتش نفسه؛ بأن نكتته غير موفقةٍ، فحوّل مجرى الحديث إلى المزرعة، وطفق يتكلّم عن وكيلها الجديد الذي جاء أمس يتشكّى من العامل الأزعر «فوما»؛ لأنّه لا يطيع أحداً، وقال عنه الوكيل: «سيعيش، ويقضي نحبه في غباوةٍ مثل «أيسوب» الذي ساءت سمعته في كلّ مكانٍ».

6

عاد بازاروف، جلس إلى المائدة، وشرع يحتسي الشاي باستعجالٍ، تطلّع إليه الأخوين بصمتٍ، بينما راح أركادي ينقّل نظراته خلسةً بين أبيه وعمّه، وأخيراً سأل نيكولاي بتروفيتش:

- هل قطعت مسافةً طويلةً؟

- هناك مستنقعٌ قرب أجمّة الحور، وقد رأيت خمسةً من طيور البكاسين، بوسعك أن تصطادها يا أركادي.

- حضرتك لست صياداً؟

- كلا.

- أنت تدرس الفيزياء، أليس كذلك؟، سأل بافل بتروفيتش بدوره.

- أجل الفيزياء، بل العلوم الطبيعية على العموم.

- يقال أنّ الجرمن تفوقوا كثيراً في هذا الميدان خلال الآونة الأخيرة.

- أجل، الألمان أساتذتنا في ذلك، أجاب بازاروف بلا اكتراثٍ.

استخدم بافل بتروفيتش كلمة «الجرمن» بدلاً من «الألمان» للسخرية، ولكن أحداً ما، لم يلاحظ ذلك.

- هل تكّن كلّ هذا الاحترام للألمان؟!، قال بافل بتروفيتش بتبجيلٍ متكلفٍ، فقد أخذ يشعر بانزعاجٍ خفيٍّ، إذ أن استهانة بازاروف المتمادية، ولّدت تذمراً في طبعه الأرستقراطي، فإن ابن الطبيب هذا لم يشعر بالخجل، بل، وأجاب على نحوٍ متقطعٍ، دون رغبةٍ، بصوتٍ يشوبه شيءٌ من الخشونة التي تكاد تقرب من الوقاحة.

- العلماء هناك أناسٌ حاذقون.

- هكذا، إذن، أمّا بخصوص العلماء الروس، فليس لديك، على ما يبدو، مثل هذا الاطراء، أليس كذلك؟

- أخشى أن يكون الأمر كذلك؟.

- هذا نكران ذاتٍ يستحق أكبر قدرٍ من المديح، قال بافل بتروفيتش، وهو يعدّل قامته، ويميل برأسه إلى الوراء، ولكن كيف قال لنا أركادي نيكولايفيتش قبل قليل إنك لا تعترف بأية شخصياتٍ بارزةٍ، ولا تؤمن بها؟

- ما الذي يجعلني أعترف بها؟ وما الذي أؤمن به؟ عندما يعرض علي شيءٌ معقولٌ أوافق عليه، هذا كلّ ما في الأمر.

- وهل يعرض جميع الألمان شيئاً معقولاً؟، سأل بافل بتروفيتش، واكتسى وجهه بتعبيرٍ لاأبالي هائمٍ، كما لو كان قد حلّق كليّاً إلى ما وراء السحب.

- ليس جميعهم، أجاب بازاروف بتثاؤبةٍ قصيرةٍ دلّت على أنه ليس راغباً في مواصلة الجدل الفارغ.

ألقى بافل بتروفيتش نظرةً على أركادي، وكأنما يريد أن يقول له: «صديقك مهذب حقاً!»، ثم قال من جديدٍ بشيءٍ من الجهد:

- أما، أنا فخطيئتي هي أني لا أخلع النعوت على الألمان، وما من داعٍ للكلام عن الألمان الروسيين: فالكلّ يعلمون أيّ نوعٍ من البشر هم، ولكنني لا أستسيغ الألمان الألمانيين أيضاً، فالقدماء منهم كانوا يصلحون لشيءٍ، عندما كان لديهم، مثلاً، شيلتر وغوته... وأخي نيكولاي معجبٌ بهما خصوصاً، أما الآن فليس هناك غير الكيمياويين والماديين...

- الكيمياوي الحاذق أفضل بعشرين مرّةٍ من أيّ شاعرٍ، قاطعه بازاروف، فقال بافل بتروفيتش رافعاً حاجبيه قليلاً، وكأنما ينوي أن يغطّ في النوم:

- هكذا، يعني أنك لا تعترف بالفن؟

- فن اكتساب المال، أو خير طريقةٍ لعلاج البواسير!!، هتف بازاروف بضحكةٍ ساخرةٍ مستهينةٍ.

- هكذا إذن، هكذا تتفضل بالتنكيت، يعني أنك ترفض كلّ شيءٍ، ولا تؤمن إلا بالعلم، أليس كذلك؟

- أخبرتك؛ بأني لا أؤمن بشيءٍ، والعلم، ما هو العلم عموماً؟

-هناك علومٌ مثلما، هناك صنائعٌ وألقابٌ، أما العلم عموماً، فهو غير موجودٍ على الإطلاق.

- حسناً جداً، ولكن ماذا بخصوص القواعد الأخرى المقبولة في حياة الناس؟ هل تلتزم بنفس هذا الاتجاه السلبي إزاءها؟

- ما هذا، أهو استجوابٌ؟، سأل بازاروف، فشحب لون بافل بتروفيتش بعض الشيء... ورأى نيكولاي بتروفيتش، أن من واجبه أن يتدخل في الحديث:

- سوف نتحدث معك يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش فيما بعدٍ بتفصيلٍ أكبر حول هذا الموضوع، وسوف نطّلع على رأيك، ونعرض رأينا، ومن ناحيتي، فأنا مسرورٌ جداً لدراستك العلوم الطبيعية. سمعت أن «ليبيغ»[14] أجرى اكتشافاً مدهشاً، بخصوص تسميد الحقول، ويمكنك أن تساعدني في أعمالي الزراعية؛ فبوسعك أن تقدم لي نصيحةً نافعةً ما.

- أنا في خدمتك، يا نيكولاي بتروفيتش، ولكن شتان بيننا وبين ليبيغ!!. يتعيّن في البداية؛ تعلّمِ الأبجديّة ثم تناول الكتاب، أما نحن فلا نزال غارقين في لهجة الجهل.

«يبدو أنك نهلستي حقاً»، فكّر نيكولاي في نفسه، ثمّ أضاف قائلاً:

- ومع ذلك، اسمح لي أن أستعين بك عند الاقتضاء، أمّا الآن، يا بافل، فقد حان الوقت، على ما اعتقد، للتداول مع وكيل

المزرعة.

نهض بافل بتروفيتش من كرسيه، وقال دون أن ينظر إلى أحدٍ:

- ما أتعس أن يعيش المرء خمس سنواتٍ في قريةٍ، بعيداً عن العقول العبقرية!!، فهو يصبح أكثر بلادةً، إنه يحاول ألا ينسى ما تعلمه في الماضي، وعلى حين غرّةٍ يتضح له أن كل ذلك هراءٌ، فيقال له إنّ الأذكياء لم يعودوا يدرسون مثل هذه السخافات، وإنه هو مجرّد طرطورٍ متخلفٍ، فما العمل؟! يبدو أن الشباب أذكى منا حقاً.

استدار بافل بتروفيتش ببطءٍ على كعبيه، وخرج متباطئاً، فتبعه نيكولاي بتروفيتش، وحالما أغلق الباب بعد خروج الأخوين سأل بازاروف من أركادي ببرودٍ:

- ماذا؟ هل هو على هذه الشاكلة دوماً؟

فقال أركادي:

- اسمع، يا يفغيني، تحدثت معه بخشونةٍ بالغةٍ، لقد أهنته.

- فهل يتعيّن عليّ أن أداريهم، هؤلاء الأرستقراطيين الريفيين؟! كلّ ذلك مجرّد خيلاءٍ وحماقةٍ وعادات السباع، الأحرى

به؛ أن يتابع مهمته في بطرسبورغ ما دام على هذه الطباع...

آه، ما لنا وله، فلنتركه وشأنه، هل تعلم؟ لقد عثرت على نوعٍ نادرٍ جداً من الجعلان العوامة: (ديتيسكوس مارغيناتوس)[15].

-سأريك إياه.

فقال أركادي:

- وعدتك، أن أحكي لك قصته.

- قصة الجعل؟!.

- كفى، يا يفغيني؛ قصة عمي، وسترى أنه ليس بذلك الإنسان الذي تتصوره، إنه يستحق الرثاء أكثر مما يستحق السخرية.

- لا أشك في ذلك، ولكن لماذا تشغل بالك به إلى هذا الحدّ؟

- كن منصفاً يا يفغيني.

- وما الداعي لذلك؟

- كلا، اسمعني...

وقصّ عليه أركادي قصة عمّه الذي يجدها القارئ في الفصل التالي.

7

تلقى بافل بتروفيتش كيرسانوف تعليمه في المنزل أول الأمر، شأنه شأن أخيه الأصغر نيكولاي، ثم في «سلك الوصفاء»[16]، وكان منذ طفولته يتمتع بجمالٍ رائعٍ، زدْ على ذلك أنه كان معتدّاً بنفسه، وساخراً بعض الشيء، وحادّ الطبع بشكلٍ يثير الضحك أحياناً، ولذا كان لا بد أن يروق للآخرين؛ حالما تخرّج ضابطاً، أخذ يظهر في كلّ المحافل، وكان يُحمل على الأكفّ، ويداري نفسه لحدّ الحماقة، بل ويتدلل ويتغنج، وما كان ذلك ليعيبه بشيءٍ، فقد كانت النساء مفتوناتٍ به لحدّ الجنون، وكان الرجال ينعتونه بالمتأنق، ويحسدونه في سرّهم، عاش، كما ذكرنا، في منزلٍ واحدٍ مع أخيه الذي أحبّه حبّاً صادقاً، مع أنه لم يكن يشبهه بشيءٍ، نيكولاي بتروفيتش ضئيل القوام يعرج قليلاً، وعيناه السوداوان غير الواسعتين جميلتان، ولكنهما حزينتان بعض الشيء، وشعره خفيفٌ ناعمٌ، كان يهوى الكسل، ولكنه يهوى المطالعة أيضاً، ويخشى الظهور في المحافل، أما بافل بتروفيتش، فلم يصرف ولا أمسيةً واحدةً في المنزل، وقد اشتهر بالبسالة واللياقة، فهو الذي جعل الجمباز موضةً لدى شباب المجتمع الراقي، ولم يقرأ غير خمسة أو ستة كتبٍ فرنسيةٍ، وفي عامه الثامن والعشرين أصبح

ضابطاً برتبة رائدٍ تنتظره أفضل المناصب، ولكن كلّ شيءٍ تغير فجأةً.

في ذلك الحين، كانت تظهر في مجتمع بطرسبورغ الراقي من حينٍ لآخرَ امرأةٌ لم يطوها النسيان حتى الآن، وهي الأميرة (ر)، كان لديها زوجٌ مهذبٌ ومؤدبٌ، ولكنه على شيءٍ من الغباوة، ولم يكن لديها أطفالٌ، كانت تسافر إلى الخارج فجأةً، وتعود إلى روسيا فجأةً، وعلى العموم كانت غريبة الأطوار، تعيش حياةً متميزةً، اشتهرت بأنّها امرأةٌ لعوبُ تنغمر بولعٍ كبيرٍ في مختلف أنواع الملذات، وترقص حتى الإغماء، وتقهقه، وتنكت مع الشباب الذين تلتقيهم قبيل الغداء في غرفةِ استقبالٍ شبه معتمةٍ، أما في الليل، فكانت تنتحب وتصلي، فلا يقرّ لها قرارٌ، وغالباً ما تظل حتى الصباح تجوب الغرفة جيئة وذهاباً، غارقةً في لجّة الكآبة، أو تنكّب، شاحبةً باردةً على سفر المزامير، وحالما يحل النهار تتحول من جديدٍ إلى واحدةٍ من نساء المجتمع الراقي، وتتنقل، وتضحك، وتثرثر من جديدٍ، وكأنما تندفع لملاقاة كلّ ما يمكن أن يوفر لها أدنى قدرٍ من التسلية. كانت ذات قوامٍ مدهشٍ، ضفيرتها الذهبية اللون الثقيلة كالذهب تتدلى إلى أسفل الركبتين، ولكنه ما من أحدٍ بوسعه أن يطلق عليها نعت الحسناء، فلم يكن في محياها شيءٌ جميلٌ غير عينيها، وليس عيناها بالضبط، فهما رماديتان غير

واسعتين، بل نظرتها السريعة العميقة اللاأبالية، حتى البسالة، والمتأملة حتى الكآبة، إنها نظرةٌ كلها ألغازٌ، كان شيءٌ ما مدهشٌ يضوء في هذه النظرة، حتى عندما تتفوه هي بأتفه الألفاظ، وكانت ملابسها على قدرٍ كبيرٍ من الأناقة. صادفها بافل بتروفيتش في إحدى السهرات، ورقص معها المازوركا، فلم تقل طوالها ولا كلمةً واحدةً ذات شأنٍ، ووقع في هواها بشدةٍ وعنفٍ، وسرعان ما حقق هدفه هذه المرّة أيضاً، وهو الذي تعود على الانتصارات، إلا أن سهولة الفوز لم تخفف من غلوائه، على العكس، فقد تعلق تعلقاً أشد وأكثر مضضاً بهذه المرأة التي ظل فيها، على ما يبدو، شيءٌ منشودٌ بعيد المنال لم يتوصل إليه أحدٌ، حتى عندما تستسلم كليّاً، ولا يعلم إلا الله بما كان يعشش في هذه الروح!!. لقد بدت، وكأنها أسيرة قوىً خفيةٍ مجهولةٍ بالنسبة لها نفسها، قوىً تتلاعب بها كما يحلو لها، وما كان بوسع ذكائها غير المفرط أن يسيطر على نزوات تلك القوى، كان سلوكها بمجمله عبارةً عن طائفةٍ من الحماقات. فالرسائل الوحيدة التي يمكن أن تثير شكوك زوجها بحقّ؛ هي رسائلٌ كتبتها إلى شخصٍ غريبٍ عليها تقريباً، أما حبها، فكان ينضح حزناً: لم تعد تضحك، وتمزح مع الذي اختارته، وصارت تستمع إليه، وتحدق فيه متحيرةً، وكانت تلك الحيرة تتحوّل أحياناً، بصورةٍ مفاجئةٍ على الأغلب، إلى رعبٍ

باردٍ، فيكتسي وجهها بتعبيرٍ وحشيٍّ موّاتٍ، وتنطوي على نفسها في غرفة النوم، فتغلقها وتجهش في نحيبٍ مخنوقٍ، بوسع الوصيفة أن تستمع إليه عندما تلتصق أذنها بقفل الباب. كان كيرسانوف، حينما يعود إلى منزله بعد لقاءات الغرام، يحسّ مراراً بكآبةٍ مرّة كالتي تعتصر القلب، وتمزّق نياطه عادةً بعد الإخفاق المطبق، وكان يسائل نفسه: «ماذا أريد أكثر من ذلك؟»، ولكن الكآبة تعتصر قلبه.

وذات مرّةٍ أهداها خاتماً، نُحت أبو الهول الأسطوري[17] على فصّه.

فسألته:

- ما هذا؟ أبو الهول؟

- أجل، وهو أنتِ.

- أنا؟!!، سألته، واحتوته على مهلٍ بنظرتها المليئة بالألغاز.

ثم أضافت بسخريةٍ غير متماديةٍ، وظلت عيناها تسلطان عليه نفس تلك النظرة الغريبة:

- ألا تتصور أن ذلك إطراءٌ بالغٌ؟

كان الأمر صعباً على بافل بتروفيتش، حتى عندما أحبته الأميرة (ر)، ولكنه كاد يجن، عندما خفتَ حبها له عاجلاً، كان يتعذب، ويغار عليها، ويلاحقها في كلّ مكانٍ، ولا يتركها تذوق طعم الهدوء، حتى سئمت من لجاجته، وملاحقته، فسافرت إلى الخارج، أحال نفسه على التقاعد بالرغم من رجاء أصدقائه ونصائح رؤسائه، ولحق بالأميرة، فقضى أربعة أعوامٍ في الغربة تارةً يطاردها وتارةً يفلتها عمداً، وأخذ يشعر بالخجل من نفسه، وصار يكره نفسه بسبب تخاذله... ولكن ما من شيءٍ كان بوسعه أن يعينه، فقد انغرزت في أعماق روحه، حتى الجذور صورتها الجذابة، الغامضة التي لا تكاد تنطوي على أيّ معنىً، وفي (بادن) عادت علاقتهما، ذات مرّةٍ، إلى سابق عهدها، وخُيّل إليه أنها لم تكن تحبه، فيما مضى أبداً بنفس القدر الذي تحبه به الآن... ولكن ما إن مرّ شهرٌ حتى انتهى كلّ شيءٍ: فقد اندلع اللهيب للمرة الأخيرة، ثم انطفأ إلى الأبد، وعندما أدرك حتميّة الفراق الذي لا مفرّ منه أراد، على الأقل، أن يظلّ صديقاً لها، وكأنما الصداقة مع مثل هذه المرأة أمرٌ ممكنٌ... غادرت (بادن) خلسةً، وصارت منذ ذلك الحين تتحاشى كيرسانوف دوماً، أما هو فقد عاد إلى روسيا، وحاول أن يعيش عيشته القديمة، ولكنه لم يعد قادراً على العودة إلى المجرى القديم، فراح يطوف من مكانٍ لآخرَ كمَن سُلب عقله،

كان لا يزال يظهر في المحافل، ويحتفظ بجميع عادات الشخص المنتمي إلى المجتمع الراقي، وكان بوسعه أن يتفاخر بانتصارين جديدين أو ثلاثة، ولكنه لم يعد ينتظر شيئاً ذا شأنٍ، لا من نفسه، ولا من الآخرين، ولم يتخذ أيّ إجراءٍ يستحق الذكر، داهمته الشيخوخة، ووخط الشيب شعره، وصار يشعر بحاجةٍ إلى قضاء الأمسيات في النادي جالساً جلسته السوداوية المضجرة، أو مناقشاً بلامبالاةٍ في معشر العزّاب، وتلك، كما هو معروف، دلالة سوءٍ. بديهيٌّ أنه لم يكن يفكر في الزواج، حتى مجرّد تفكيرٍ. مضت على هذا النحو عشر سنواتٍ كالحةٍ عقيمةٍ، مضت بسرعةٍ؛ بسرعةٍ مرعبةٍ، فالوقت لا ينقضي في أيما مكانٍ بأسرع مما في روسيا، ويقال إنه ينقضي في السجن فقط بصورةٍ أسرع، ذات مرّةٍ، أثناء الغداء في النادي، عرف بافل بتروفيتش بوفاة الأميرة (ر)، التي قضت نحبها في باريس في حالةٍ تقرب من الجنون، نهض من المائدة، وأخذ يجوب غرف النادي طويلاً، وكان يتوقف مسمراً قرب المقامرين، ولكنه لم يعد إلى المنزل قبل الموعد المعتاد، وبعد حينٍ من الوقت تسلم مظروفاً باسمه. كان في المظروف الخاتم الذي أهداه للأميرة، لقد رسمت على أبي الهول علامة صليبٍ، وأمرت حامل المظروف؛ بأن يقول له إن الصليب هو حل اللغز.

حدث ذلك في مطلع عام (1848)، في نفس الوقت الذي وصل فيه نيكولاي بتروفيتش إلى بطرسبورغ بعد وفاة زوجته، لم يكن بافل بتروفيتش قد تقابل مع أخيه منذ أن انتقل هذا إلى القرية: فقد وافق زفاف نيكولاي بتروفيتش الأيام الأولى؛ لتعرف بافل بتروفيتش على الأميرة، وعندما عاد من الخارج توجه إليه ناوياً البقاء عنده زهاء شهرين، والاطلاع على حياته الهانئة، ولكنه لم يمكث لديه غير أسبوعٍ واحدٍ، فقد كان الفارق في أوضاع الأخوين كبيراً جدّاً، وفي عام (1848) تقلّص هذا الفارق: إذ فقد نيكولاي بتروفيتش زوجته، وفقد بافل بتروفيتش ذكرياته، حاول بافل ألا يفكر بالأميرة بعد وفاتها إلا أن نيكولاي ظل يحتفظ بشعور إنسانٍ عاش الحياة على نحوٍ صائبٍ، فقد كان ابنه يترعرع أمام ناظريه.

أما بافل، فهو على العكس، أعزبُ مستوحشٌ، وقد دخل مرحلةً كالحةً معتمةً؛ مرحلة الندامة التي تشبه الآمال؛ والآمال التي تشبه الندامة، حيث مضى الشباب، بينما لم تحلّ الشيخوخة بعد.

كانت هذه المرحلة أصعب على بافل بتروفيتش مما على أيّ شخصٍ آخر: فعندما فقد ماضيه، فقد معه كلّ شيءٍ.

قال نيكولاي بتروفيتش ذات مرّةٍ:

ـ لا أدعوك إلى مارينو (أطلق نيكولاي بتروفيتش هذا الاسم على قريته تكريماً لزوجته ماريا)، فعندما كانت المرحومة على قيد الحياة شعرت هناك بالضجر، أما الآن، فسيكون ضجرك أشد على ما أعتقد.

فأجاب بافل بتروفيتش:

ـ كنت آنذاك لا أزال أحمقَ متململاً، أما الآن فقد هدأتُ، إن لم أقل صرت أذكى قليلاً، وأنا على العكس، مستعدٌّ؛ لأسكن عندك إلى الأبد، إذا سمحت.

وبدلاً من الجواب عانقه نيكولاي بتروفيتش، غير أن بافل بتروفيتش لم يشد العزم على تحقيق ما نَوَاهُ إلا بعد عامٍ ونصف عامٍ من هذا الحديث، ولكنه عندما سكن القرية لم يغادرها حتى في فصول الشتاء الثلاثة التي قضاها نيكولاي بتروفيتش مع ابنه في بطرسبورغ، أخذ يطالع باللغة الإنجليزية على الأكثر، بل وحوّل حياته كلّها على النمط الإنجليزي، صار نادراً ما يتقابل مع الجيران، ولا يغادر القرية إلا في الانتخابات حيث يصرف أغلب الوقت صامتاً، ما عدا بعض الحالات النادرة حيث يغيظ الإقطاعيين المتمسكين بالقديم، ويخيفهم بالنزوات المتحررة دون أن يتقرّب إلى ممثلي الجيل الجديد، وكان هؤلاء، وأولئك يعتبرونه مغروراً معتدّاً بنفسه، بيد أن هؤلاء وأولئك كانوا يحترمونه؛

لمسلكه الأرستقراطي الممتاز، وللإشاعات عن انتصاراته، ولأنه مهندمٌ على أروع ما يكون، ولأنه ينزل دوماً في أفضل الغرف في أرقى الفنادق، ولأنه على العموم لا يتناول إلا الأطعمة الفاخرة، حتى أنه تغدى ذات مرّةٍ مع ولنغتون[18]، عند لودفيغ-فيليب[19].

ويحترمونه، لأنه كان يحمل معه في ترحاله، وتجواله حقيبةً فضيةً؛ لأدوات الزينة وحوض استحمامٍ متنقلاً، ولأنه يتطيّب بعطورٍ «كريمةٍ» مدهشةٍ غير معتادةٍ، ولأنه يلعب الهويست[20] بمهارةٍ ويخسر فيه دوماً، وكانوا يحترمونه، أخيراً، لنزاهته التي لا تشوبها شائبةٌ، وقد اعتبرته النساء ملنخولياً فاتناً، ولكنه ما عاد يعبأ بالنساء...

وقال أركادي في ختام حديثه:

- أرأيت، يا يفغيني، كم أنت مجحفٌ بحق عمي!!، ثم إنه أنقذ أبي مراراً من المصائب، وأعطاه كلّ نقوده، وحتى الضيعة، وهذا أمرٌ ربما لا تدري به، غير مقسمةٍ بينهما. بل هو مستعدٌّ؛ لمساعدة أياً كان. وبالمناسبة، فهو يلتزم جانب الفلاحين دوماً.

لكنه، والحقّ يقال، يتقزز منهم، ويتشمم الكولونيا عندما يتكلّم معهم...

- أمرٌ واضحٌ: أعصاب، قاطعه بازاروف.

- ربما، ولكن قلبه في منتهى الطيبة، ثم إنه ليس بليداً أبداً، فما أثمن النصائح التي قدمها لي... وخصوصاً... في الموقف من النساء.

- طبعاً!! من لدغته الأفعى يخشى من جرّ الحبل، ليس ذلك جديداً علينا!

- خلاصة القول: واصل أركادي كلامه إنه تعيسٌ للغاية، صدقني وإن احتقاره خطيئةٌ.

- من يحتقره؟!. اعترض بازاروف، ولكنني أعتقد أن الإنسان الذي قامر بحياته كلّها على حبّ امرأةٍ وتكّدر، عندما خسر المقامرة، فانحدر إلى درجةٍ أصبح معها عاجزاً عن القيام بأيّ شيءٍ ليس رجلاً، وليس ذكراً، تقول إنه تعيسٌ، فأنت أعرف به، ولكن الحماقة لم تفارقه كليّاً، أنا واثقٌ من أنه لا يمزح، عندما يتصور نفسه إنساناً ذكيّاً طيباً؛ لكونه يقرأ وريقة غالينياني، ويخلّص الفلاحين مرّةً في الشهر من العقوبة الجسدية.

- ولكن تذكّر تربيته، والعصر الذي عاش فيه.

- ما شأن التربية؟. على كلّ فردٍ أن يربّي نفسه بنفسه، كما فعلت أنا، مثلاً... أما العصر، فما الداعي؛ لأن أكون تحت سلطته؟!، فليكن هو تحت سلطتي، كلا، يا أخي، ما ذلك إلا

استهتارٌ وحماقةٌ!!، ثم ما هذه العلاقات الغامضة بين الرجل والمرأة؟ إننا الفسلجيين نعرف ماهية تلك العلاقات. راجع تشريح العين، فمن أين تنبع تلك النظرة المليئة بالألغاز، كما تقول؟ ما ذلك إلا رومانسيةٌ مصطنعةٌ وهذرٌ متعفنٌ، الأفضل أن نذهب؛ لنتفحص الجعل.

وتوّجه الصديقان إلى غرفة بازاروف التي اكتنفتها، منذ أن حلّ فيها، روائحُ طبيّةٌ وجراحيةٌ ممزوجةٌ بنفح تبغٍ رخيصٍ.

8

لم يبق بافل بتروفيتش طويلاً أثناء التداول بين أخيه، ووكيل المزرعة النحيف الفارغ القامة ذي العينين المراوغتين، والصوت العسلي الشبيه بصوت المسلول، كان الوكيل يردّ على جميع ملاحظات نيكولاي بتروفيتش بقوله: «طبعاً، يا سيدي، أمرٌ معروفٌ»، ويحاول أن يصوّر جميع الفلاحين سكارى ولصوصاً، كانت المزرعة التي أصلحت على شاكلةٍ جديدةٍ مؤخراً تصرّ كعجلةٍ من دون تشحيمٍ وتتشقق كالأثاث المصنوع كيفما اتفق من خشبٍ لم يجف بعد. لم يكن نيكولاي بتروفيتش يائساً، ولكنه كثيراً ما كان يتنهّد ويتأمل، فهو يعرف أن الأمور لن تسير على ما يرام من دون مالٍ، في حين أنه أنفق جميع أمواله تقريباً، وقد صدق أركادي عندما قال: إن بافل بتروفيتش أعان أخاه أكثر من مرّةٍ، فإنّ بافل بتروفيتش الذي رأى أخاه مراراً يشقى، ويمعن التفكير في كيفية تدبير الأمور، ولو بشكلٍ ما، كان يقترب من النافذة ببطءٍ، ويدسّ يديه في جيبه، ويقول بصوتٍ خافتٍ: «أستطيع أن أعطيك مالاً»[21]، ويسلّم المال له بالفعل، لكنه في ذلك اليوم لم يكن لديه شيءٌ من المال، ولذا فضّل الانسحاب. كانت المشاحنات بشأن المزرعة تبعث الغمّ فيه، وكان يخيل إليه دوماً أن نيكولاي

بتروفيتش، بالرغم من حرصه ومثابرته، لا يدير الأمور كما يرام، مع أن بافل بتروفيتش ما كان بوسعه، أن يشير بالتحديد إلى خطأ أخيه، وكان يفكر في نفسه: «ليس أخي عملياً بالقدر الكافي، فهم يخدعونه»، وكان نيكولاي بتروفيتش، على العكس، يقدر كل التقدير مواهب أخيه العملية، وينشد لديه النصح دوماً، كان يقول: «أنا إنسانٌ ضعيفٌ ليّنٌ، عشت عمري في الريف، أما أنت، فقد عشت طويلاً مع الناس، إنك تعرفهم جيداً، ولديك نظرة صقرٍ»، وكان بافل بتروفيتش لا يرد على هذه الكلمات، بل يشيح بوجهه دون أن يبين لأخيه العكس.

ترك بافل بتروفيتش أخاه في مكتبه، وسار في الرواق الذي يفصل القسم الأمامي من الدار عن قسمها الخلفي، وعندما وصل إلى بابٍ واطئٍ توقف متفكراً، ثم فتل شاربه، وطرق الباب.

- من الطارق؟ ادخلوا، رن صوت فينيتشكا.

- أنا، أجاب بافل بتروفيتش، وفتح الباب.

نهضت فينيتشكا في الحال من الكرسي الذي كانت جالسةً عليه مع طفلها، وسلّمت الطفل إلى فتاةٍ خرجت به فوراً من الغرفة، وعدّلت منديلها على عجلٍ.

- معذرةً إذا كنت قد ضايقتك، طفق بافل بتروفيتش يتكلّم دون أن ينظر إليها، أريد فقط أن أكلفك... سيذهب أحدٌ ما إلى المدينة اليوم على ما أظن... اطلبي منه أن يشتري لي شاياً أخضر.

- سمعاً وطاعة يا سيدي، أجابت فينيتشكا، كم ترغبون أن نشتري؟.

- نصف رطلٍ يكفي، باعتقادي، أجاب، ثم أضاف بعد أن ألقى نظرةً عاجلةً أحاطت بما حواليه، وانزلقت على وجه فينيتشكا أيضاً، يبدو أن لديك تغيراتٌ هنا.، وأردف عندما رأى أن فينيتشكا لم تفهمه، هذه الستائر مثلاً.

- أجل، هذه الستائر، لقد تفضل بها علينا نيكولاي بتروفيتش، ولكنها معلقةٌ منذ زمانٍ.

- أنا أيضاً لم أزرك منذ زمانٍ، أمّا الآن، فقد أصبحت غرفتك مريحةً تماماً.

- بفضل نيكولاي بتروفيتش، أجابت فينيتشكا همساً، فسألها بافل بتروفيتش بتأدبٍ، ولكن من دون أدنى أثرٍ للابتسام:

- هل هنا أفضل مما في الجناح السابق؟

- أفضل، طبعاً.

- ومن أسكنوا بدلك هناك؟

- الغسالات.

- أها!

لزم بافل بتروفيتش الصمت، ففكرت فينيتشكا في نفسها: «سيذهب الآن»، ولكنه لم يذهب، فظلت واقفةً متسمرةً تفرك أصابعها بخفّةٍ، إلى أن قال أخيراً:

- لماذا أعطيتها طفلك!! أنا أحبّ الأطفال، أحضريه لي.

احتقن مُحيا فينيتشكا من الحياء والسرور، كانت تخشى بافل بتروفيتش، فهو لم يكلمها ولا مرّةً واحدةً تقريباً، فنادت دونياشا قائلةً:

- أحضروا ميتيا، (فكانت فينيتشكا تخاطب كلّ من في الدار بصيغة الجمع)، لا بل تمهلوا: ينبغي أن ألبسه بدلةً.

توجهت فينيتشكا نحو الباب، فبادرها بافل بتروفيتش:

- لا فرق.

- في الحال، أجابت فينيتشكا، وخرجت برشاقةٍ.

ظل بافل بتروفيتش وحيداً، فأخذ يتلفّت هذه المرة؛ باهتمامٍ خاصٍ إلى ما حواليه، كانت الغرفة الواطئة الصغيرة التي يقف

فيها نظيفةً ومريحةً للغاية، تفوح فيها رائحة الأرضية التي طليت مؤخراً، ورائحة الأقحوان والنعناع، وعلى طول الجدران صفت كراسي ذات مساندَ خلفيةٍ بشكل قيثاراتٍ، كان الجنرال الراحل قد اشتراها في بولندة إبان إحدى الحملات، وفي ركن الغرفة انتصب سريرٌ صغيرٌ فوقه حجابٌ من الشاش، إلى جانب صندوقٍ مرصعٍ بالمسامير، وذي غطاءٍ محدبٍ. وفي الزاوية المقابلة اشتعل قنديلٌ أمام أيقونةٍ معتمةٍ كبيرةٍ للقديس «نيقولاي» الذي تدلّت بشريطٍ أحمرَ على صدره بيضةٌ فرفوريةٌ صغيرةٌ مثبتةٌ إلى هالته، وعلى رفيّ النافذتين زجاجات مربى الموسم المنصرم مغلقةً بعنايةٍ، ويتسرّب من خلالها ضوءٌ أخضرُ، وقد كتبت فينيتشكا على أغطيتها الورقية بحروفٍ كبيرةٍ «عنب الثعلب». نيكولاي بتروفيتش يحب هذا النوع من المربى خصوصاً. وكان قفصٌ يتدلى بحبلٍ طويلٍ من السقف، وفيه حسونٌ قصير الذيل يشقشق، ويتقافز بلا كللٍ، والقفص يهتز، ويرتعش بلا انقطاعٍ، وتقع حبات القنب على الأرضية بنقرٍ خفيفٍ. وعلى الحائط بين النافذتين علّقت، فوق الصوان، صورٌ فوتوغرافيةٌ؛ لنيكولاي بتروفيتش في وضعياتٍ مختلفةٍ، وهي صورٌ سيئةٌ التقطها مصورٌ متجولٌ وإلى جانبها صورةٌ لفينيتشكا غير موفقةٍ أبداً، إذ لم يكن يلوح منها غير وجهٍ بلا عينين، يبتسم ابتسامةً متوترةً في إطارٍ معتمٍ. وفوقها

صورة يرمولوف[22]، في معطفٍ فضفاضٍ من اللباد، وهو يلقي نظرةً عابسةً رهيبةً على جبال القوقاز البعيدة، من تحت خفٍّ حريريّ للدبابيس علّق فوقه، وغطّى جبهته كلّها.

مرت خمس دقائقَ تقريباً، وكان يتهادى من الغرفة المجاورة حفيفٌ وهمسٌ، رفع بافل بتروفيتش من فوق الصوان كتاباً ملوناً، هو أحد مجلدات رواية ماسالسكي «الرماة»[23]، فتصفح عدّة صفحاتٍ منه... فتح الباب، ودخلت فينيتشكا تحمل «ميتيا»، كانت قد ألبسته قميصاً أحمرَ بشريط مقصّبٍ على الياقة، ومشّطت شعره، ومسحت وجهه: كان يتنفس بصعوبةٍ، ويندفع بجسمه كلّه، ويلوّح بيديه الصغيرتين كما يفعل جميع الأطفال الأصحاء، بيد أنّ القميص الأنيق أثّر عليه، كما يبدو، فقد طفت على وجهه المنتفخ مسحةٌ من الارتياح، وكانت فينيتشكا قد صففت شعرها هي أيضاً، ارتدت منديلاً أفضل، غير أنه كان بوسعها أن تظلّ كما كانت عليه، حقاً، فهل هناك أكثر جاذبيةً في الوجود من أمّ جميلةٍ شابةٍ مع طفلٍ معافىً؟

- يا لَك من طفلٍ ريّانَ!!، قال بافل بتروفيتش متساهلاً، ودغدغ أسفل ذقن ميتيا بطرف ظفر سبابته الطويل، حدق الطفل في الحسون، وابتسم.

- هذا عمّك، قالت فينيتشكا، وقد مالت إليه بوجهها، وهي تهزه هزةً خفيفةً، في حين وضعت دونياشا على رف النافذة، بهدوءٍ شمعة البخور المشتعلة، وألصقتها من الأسفل على قطعة نقدٍ صغيرةٍ، فسأل بافل بتروفيتش:

- كم شهراً بلغ يا ترى؟!.

- ستة شهورٍ، وسيحل شهره السابع قريباً، في الحادي عشر.

- أليس الشهر الثامن؟، تدخلت دونياشا بشيءٍ من الاستيحاء.

- كلا، السابع، كيف ذلك؟!، ابتسم الطفل من جديدٍ، وحدق في الصندوق ثم خطف أنف أمه، وشفتيها فجأةً بأصابعه الخمس، فقالت فينيتشكا دون أن تبعد وجهها عن أصابعه: مشاكسٌ.

- يشبه أخي، لاحظ بافل بتروفيتش، ففكرت فينيتشكا في نفسها: «ومن عساه يشبه؟!»، فواصل بافل بتروفيتش كلامه، وكأنه يخاطب نفسه:

- أجل، شبهٌ لا شك فيه، ثم ألقى على فينيتشكا نظرةً متفحصةً تكاد تكون حزينةً.

- هذا عمّك، كررت همساً هذه المرة، وفجأةً تعالى صوت نيكولاي بتروفيتش:

- أها! بافل! قد وجدتك!.

التفت بافل بتروفيتش باستعجالٍ، وتجهّم وجهه، إلا أن أخاه نظر إليه بفرحٍ وامتنانٍ جعلاه يردّ بابتسامةٍ من كلّ بدّ، ثم قال متطلعاً في ساعته:

- طفلك رائعٌ، أمّا فقد عرجت إلى هنا بخصوص الشاي...

خرج بافل بتروفيتش من الغرفة في الحال، وقد اكتسى وجهه بمسحة من اللامبالاة، فسأل نيكولاي بتروفيتش من فينيتشكا:

- هل جاء بنفسه؟

- بنفسه، يا سيدي، طرق الباب، ودخل.

- وأركادي، ألم يزرك بعد تلك المرة؟

- كلا. ألا ينبغي أن أنتقل إلى الجناح، يا نيكولاي بتروفيتش؟

- ما الداعي لذلك؟

- أعتقد أن ذلك سيكون أفضل الآن.

- كـ... كلا، قال نيكولاي بتروفيتش متلعثماً، ومسح جبهته، كان ينبغي القيام بذلك قبل الآن... مرحباً يا عزيزي، قال بانتعاشٍ مفاجئٍ، واقترب من الطفل فقبّله في وجنته، ثم انحنى قليلاً، ومسّ

بشفتيه يد فينيتشكا التي بدت بيضاء كالحليب على قميص ميتيا الأحمر.

- ماذا دهاكم، يا نيكولاي بتروفيتش؟!، همست، وغضت بصرها، ثم رفعت عينها بهدوءٍ... كان رائعاً تعبير عينيها؛ عندما تسلط نظراتها المنبعثة من تحت الجبين، وتضحك بحنانٍ وبشيءٍ من البلادة.

تعرّف نيكولاي بتروفيتش على فينيتشكا بالشكل التالي: ذات مرة اضطرّ قبل ثلاثة أعوامٍ أن يصرف الليل في خانٍ بمدينةٍ صغيرةٍ ثانيةٍ، وقد سرّ ودُهش لنظافة الغرفة التي خصصت له ولنظافة شراشف الفراش، فخطرت على باله فكرةٌ: «لعل صاحبة الخان ألمانية»، ولكن اتّضح له أن صاحبة الخان؛ امرأةٌ روسيةٌ في حوالي الخمسين من العمر ترتدي فستاناً أنيقاً وتتحلى بمحيا ذكيّ مليحٍ ولهجةٍ رزينةٍ. تحدث معها أثناء تناول الشاي، فأعجب بها كثيراً، كان نيكولاي بتروفيتش آنذاك قد انتقل توّاً إلى داره الجديدة، وما كان راغباً في إبقاء الأقنان معه، فصار يبحث عن أُجراءٍ، وكانت صاحبة الخان قد تشكّت، بدورها، من قلة عدد القادمين إلى المدينة، ومن مصاعب الدهر، فاقترح عليها أن تشتغل لديه بمثابة مدبرة المنزل، فوافقت، كان زوجها قد توفي منذ زمانٍ، وترك لها بنتاً وحيدة هي فينيتشكا، وبعد زهاء أسبوعين

وصلت «آرينا سافيشنا»، وهذا هو اسم مدبرة المنزل الجديدة، مع ابنتها إلى مارينو، وسكنت في الجناح، واتّضح أن نيكولاي بتروفيتش قد وفّق في الاختيار، فقد رتبت آرينا شؤون الدار على ما يرام، أما فينيتشكا التي تجاوزت آنذاك السابعة عشرة من العمر، فلم يتكلم عنها أحدٌ، ونادراً ما كانت تُرى: فقد عاشت بهدوءٍ وتواضعٍ، وفي الآحاد فقط كان نيكولاي بتروفيتش يلاحظ في زاوية من زوايا كنيسة الأبرشية جانباً من وجهها الأبيض الرقيق، مرّ أكثر من عامٍ على هذا المنوال.

ذات صباحٍ، حضرت آرينا إليه في المكتب، وانحنت، على عادتها انحناءةً شديدةً، ورجته أن يعالج ابنتها التي أصابتها شرارةٌ من الفرن في عينها. كان نيكولاي بتروفيتش، شأنه شأن جميع الذين يلازمون منازلهم، قد مارس العلاج، حتى أنه اقتنى صندوق أدويةٍ منزلياً، أمر آرينا أن تحضر المصابة فوراً، وعندما علمت فينيتشكا أن السيد يدعوها إليه اعتراها جبنٌ شديدٌ، ولكنها تبعت أمها مع ذلك. اقتادها نيكولاي بتروفيتش إلى النافذة، وأمسك رأسها بكلتا يديه، تفحص جيداً عينها المتورمة المحمرة، ونصح باستخدام غسولٍ أعدّه بنفسه في الحال، ثم مزّق منديله إلى عدّة قطعٍ وبيّن لها كيف ينبغي غسل العين، استمعت إليه فينيتشكا، ثم همت بالخروج، إلا أنّ آرينا قالت لها: «قبّلي يد السيد، يا حمقاء»،

ولم يمدّ لها نيكولاي بتروفيتش يده، بل قبّلها هو، مرتبكاً، في مفرق شعر رأسها المنحني، وسرعان ما شفيت عين فينيتشكا، ولكن الانطباع الذي تركته في نيكولاي بتروفيتش لم يمحَ بسرعةٍ. كان يلوح في مخيلته دوماً ذلك الوجه النضير الرقيق المتطلع بشيءٍ من الخوف، وقد أحسّ تحت راحتي يديه بذلك الشعر الناعم، وشهد تينك الشفتين العذراوين المنفرجتين قليلاً عن أسنانٍ لؤلؤيةٍ تلمع نديةً في الشمس، صار يتطلع إليها في الكنيسة باهتمامٍ أكبرَ، ويسعى إلى التحدث معها.

كانت في بادئ الأمر تتجنبه، وذات مرّةٍ لمحته، قبيل المساء، في دربٍ ضيّقٍ؛ شقّه المارّة عبر حقل الجوادر، فاندست بين السنابل الكثيفة العالية المختلطة، بالشيح وبأزهار العنبر، كيلا تقع أنظاره عليها، ولكنه لمح رأسها بين السنابل الذهبية، وهي تتطلع كالوحش الصغير، فهتف برقةٍ:

- مرحباً، يا فينيتشكا! أنا لا أعض!.

- مرحباً، همست دون أن تغادر كمينها.

وصارت تتعود عليه شيئاً فشيئاً، لكنها ظلت تشعر بالخجل في حضوره، إلى أن توفيت أمها بالكوليرا، فإلى أين تتجه فينيتشكا؟ لقد ورثت عن أمها حب النضال والتعقل والرزانة، ولكن ما أنضر

فتوتها!، وما أشد وحدتها!، وما أطيب نيكولاي بتروفيتش!، وما أكثر تواضعه! أما الباقي فلا داعي لذكره...

- دخل أخي عليك هكذا ببساطةٍ؟ طرق الباب ودخل؟!، سألها نيكولاي بتروفيتش.

- أجل، يا سيدي.

- تلك بادرةٌ حسنةٌ، أعطيني ميتيا كي ألاعبه.

وأخذ نيكولاي بتروفيتش يقذفه حتى السقف تقريباً، مما أثار أشد المرح لدى الطفل، كما أثار قدراً غير ضئيلٍ من القلق لدى الأم التي صارت تمد يديها نحو رجليه العاريتين في كلّ قذفةٍ يتلقاها.

أما بافل بتروفيتش، فقد عاد إلى مكتبه الأنيق؛ إلى الجدران المزينة بورقٍ جميلٍ ذي لونٍ غريبٍ، وبسجادةٍ فارسيةٍ زاهيةٍ علقت عليها أسلحةٌ، والأثاث الجوزي المنجّد بحريرٍ أخضرَ غامقٍ، والمكتبة المصنوعة من خشب البلوط الأسود القديم (على طراز عصر النهضة)[24]، والتماثيل البرونزية الصغيرة على طاولة الكتابة الرائعة، والمدفأة الحائطية... ارتمى على الأريكة، وأشبك يديه تحت رأسه، وظل جامداً ينظر إلى السقف بما يشبه القنوط، ولا أحد يعلم؛ ما إذا كان يريد أن يخفي؛ حتى عن الجدران

تلك المسحة التي طغت على وجهه، أو ما إذا كان هناك سببٌ آخر جعله ينهض، فيسدل الستائر الثقيلة على النوافذ، ثم يهوى على الأريكة من جديدٍ.

9

في نفس ذلك اليوم تعرّف بازاروف على فينيتشكا، كان يتجوّل مع أركادي في البستان، ويبين له السبب الذي منع بعض الشجيرات المغروسة فيه، وخصوصاً البلوط، من أن تمد جذورها:

- ينبغي غرس المزيد من أشجار الحور الفضي والشوح، بل والزيزفون وإضافة شيءٍ من التربة الخصبة إليها، ثم واصل كلامه قائلاً: لماذا نمت هذه التعريشة جيداً؟ ذلك لأن الأكاسيا والليلاك شجيراتٌ طيبةٌ لا تحتاج إلى رعايةٍ، عجباً، هناك أناسٌ.

كانت في التعريشة فينيتشكا ودونياشا وميتيا، توقف بازاروف، وحنى أركادي رأسه لفينيتشكا، كما يحنيه لشخصٍ من معارفه القدامى، فسأله بازاروف حالما ابتعدتا قليلاً:

- من هذه؟ ما أحلاها!

- عمن تتكلم؟

- ليس هناك غيرُ واحدةٍ حلوةٍ.

أوضح له أركادي باختصارٍ، وبشيءٍ من الارتباك من هي فينيتشكا، فقال بازاروف:

- أها! لأبيك ذوقٌ جيدٌ على ما يبدو، إنه يعجبني، والله!

يا له من مِقدامٍ! ولكن ينبغي أن أتعرف عليها، أضاف بازاروف، واتجه عائداً نحو التعريشة، فصاح به أركادي مذعوراً:

- يفغيني! احذر، بالله عليك.

- لا تقلق. فنحن أناسٌ محنكون، عشنا في المدن.

اقترب بازاروف من فينيتشكا، فرفع قبعته، وبدأ كلامه بانحناءةٍ مؤدبةٍ:

- اسمحي لي، بأن أقدّم نفسي: صديق أركادي نيكولايفيتش، وأنا إنسانٌ وديعٌ.

نهضت فينيتشكا من المقعد، ونظرت إليه بصمتٍ، فواصل بازاروف كلامه:

- ما أروع هذا الطفل! لا تقلقي، فأنا لم أحسد أحداً بعد!.

لماذا احمّرت وجنتاه إلى هذا الحد؟ هل بدأت أسنانه تنبت أم ماذا؟

- أجل، يا سيدي، أجابت فينيتشكا، ظهرت لديه أربع أسنانٍ، ولكن لثته تورمت من جديدٍ.

- ناوليني إيّاه... لا تخشي شيئاً، فأنا طبيبٌ.

أخذ بازاروف الطفل الذي لم يبدِ أيّة مقاومةٍ، ولم يرتعب، مما أثار دهشة فينيتشكا ودونياشا.

- ها، أنا ذا أرى... لا بأس، كلّ شيءٍ على ما يرام، سيكون حاد الأسنان، إذا حدث ما يسيء أخبريني، وأنت هل تشكين من شيءٍ؟

- كلا، والحمدلله.

- الحمد أفضل من سواه، وأنت؟، أضاف بازاروف ملتفتاً إلى دونياشا.

اكتفت دونياشا، وهي فتاةٌ عبوسٌ في الدار، وضحوكٌ فيما عداها، بأن انفجرت ضاحكةً رداً عليه.

- طيب، خذي طفلك العملاق!!.

أخذت فينيتشكا طفلها، وقالت بصوتٍ خافتٍ:

- عجباً، ما أهداه معكم!!.

- كل الأطفال هادئون معي، فأنا أعرف سرّهم، أجاب بازاروف، فعلقت دونياشا:

- الأطفال يشعرون بمن يحبهم.

وأكدت فينيتشكا ذلك قائلةً:

- بالضبط، ميتيا لا يقبل أبداً أن يأخذه شخصٌ آخرَ.

- وأنا، هل سيقبلني؟، سأل أركادي الذي وقف بعيداً بعض الوقت، ثم اقترب من التعريشة.

حاول إغراء ميتيا؛ ليأتي إليه، ولكنّ هذا أزاح رأسه إلى الوراء، وشرع بالبكاء، مما جعل فينيتشكا ترتبك كثيراً، فقال أركادي متساهلاً:

- في مرّةٍ أخرى، عندما يتسع الوقت ليتعوّد عليّ.

ابتعد الصديقان، فسأل بازاروف:

- ما اسمها يا ترى؟!.

- فينيتشكا... فيدوسيا، أجابه أركادي.

- واسم أبيها؟ ينبغي معرفته أيضاً.

- نيكولايفنا.

- (حسناً)[25]، يعجبني فيها، أنها ليست خجولةً جداً، يمكن لشخصٍ آخر، في أغلب الظن، أن يلومها على ذلك بالذات، ولكن ما هذا الهراء؟ ممَ الخجل؟ إنها أمٌّ، وهي محقّةٌ.

- هي محقةٌ، لا شك، ولكن أبي... قال أركادي.

- وهو محقٌّ أيضاً، قاطعه بازاروف.

- كلا، لا أعتقد.

- يبدو أن وريثاً آخر لا يعجبك، أليس كذلك؟

- عيبٌ عليك، أن تظن بي ذلك، قال أركادي حانقاً، إنني أعتبر والدي غير محقٍ ليس من هذه الناحية، بل أعتقد أنه ينبغي عليه أن يتزوجها.

- بِخ، بِخ!، قال بازاروف بهدوءٍ، ما أعظم نبلنا! إنك لا تزال تعلّق أهميةً على الزواج، لم أكن أتوقع منك ذلك.

خطا الصديقان بضع خطواتٍ صامتين، ثم شرع بازاروف يتكلّم من جديدٍ:

- رأيت كلّ شيءٍ في مزرعة أبيك؛ الدواب عجافٌ، والخيول محطمة الحوافر، والمباني في حالةٍ يرثى لها، والعاملون كسالى

إلى أقصى حدّ، أما الوكيل فهو إما أحمقُ أو محتالٌ، لم أتأكد من ذلك بعد بالشكل اللازم.

- ما أشد صرامتك اليوم، يا يفغيني فاسيليفيتش!

- والفلاحون الطيبون يخدعون أباك من كلّ بدٍّ. أنت تعرف القول المأثور: «الفلاح الروسي يأكل حتى ربه».

- أكاد أتّفق مع عمي، فلديك فكرةٌ سيئةٌ تماماً عن الروس.

- وما أهمية ذلك! ليس في الروسي أفضل من فكرته السيئة عن نفسه، المهم أنّ اثنين في اثنين يساوي أربعة، وما عدا ذلك فهو تفاهةٌ.

- والطبيعة تفاهةٌ أيضاً؟، سأل أركادي، وهو ينظر متأملاً في أبعاد الحقول الزاهية، وقد أنارتها على نحوٍ جميلٍ شفافٍ أشعة الشمس المائلة إلى المغيب.

- الطبيعة كذلك تفاهةٌ؛ بالمعنى الذي تفهمها به أنت.

فالطبيعة ليست معبداً، وإنما هي ورشةٌ، والإنسان عاملٌ فيها.

تهادت إليهما من الدار في تلك اللحظة، أصوات فيولونسيل متباطئةً، كان شخصٌ ما يعزف «انتظار» شوبرت؛ متحمساً

بالرغم من قلة مهارة يده، وكانت الموسيقا العسلية تنساب في الهواء كالشهد، فسأل بازاروف معجباً:

- من هذا يا ترى؟!.

- أبي.

- أبوك يعزف على الفيولونسيل؟!.

- أجل.

- وكم عمره؟

- أربعة وأربعون.

قهقه بازاروف فجأةً.

- ما الذي يضحكك؟

- كيف لا! شخصٌ في الرابعة والأربعين، (ربّ عائلةٍ)[26] في الريف يعزف على الفيولونسيل!

ظل بازاروف يقهقه، ولكن أركادي لم يبتسم هذه المرة؛ بالرغم من كلّ إعجابه بصديقه ومعلمه.

مضى أسبوعان تقريباً، سارت الحياة في مارينو على منوالها: أركادي يتنعم، وبازاروف يعمل. تعوّد الجميع في الدار على بازاروف، وعلى أسلوبه المستهين، وألفاظه المبتسرة المتقطعة، ورفعت الكلفة بينه وبين فينيتشكا خصوصاً، حتى أنها أمرت ذات ليلة؛ بإيقاظه من النوم؛ لأن تشنجاً انتاب ميتيا، حضر بازاروف، وعالج الطفل وقضى هناك زهاء ساعتين، وهو على عادته تارةً ينكت، وتارةً يتثاءب، غير أن بافل بتروفيتش كره بازاروف بكلّ جوانحه، كان يعتبره متعالياً سليطاً ودهماوياً وقحاً. وخُيّل إليه أن بازاروف، لا يحترمه، ويكاد يحتقره هو بافل كيرسانوف! وكان نيكولاي بتروفيتش يخشى «النهلستي» بعض الشيء، ويرتاب في جدوى تأثيره على أركادي، ولكنه يستمع إلى أحاديثه؛ باهتمامٍ، ويحضر باهتمامٍ أيضاً على تجاربه الفيزيائية والكيميائية. كان بازاروف قد أحضر معه مكرسكوباً، وصار يصرف الساعات الطوال معه. وتعلّق الخدم به أيضاً، بالرغم من أنه كان يمزح معهم لا أكثر، فقد أحسوا بأنه، مع ذلك، أخٌ لهم وليس سيداً، كانت دونياشا تتضاحك معه برغبةٍ، وتسلط عليه نظراتٍ منحرفةٍ ذات معنىً عندما تمرّ به مسرعةً «كالسمانة»، وحتى بيوتر، ذلك الإنسان المغالي في التباهي والمفرط في الغباء؛ بتجاعيده المتوترة دوماً على جبهته، والذي كان أحسن ما فيه؛ هو

أنه ذو نظرةٍ تنطوي على الاحترام، وأنه يقرأ تهجياً، وكثيراً ما ينظف بزته بالفرشاة، صار يبتسم، وتنفرج أساريره حالما يلتفت إليه بازاروف، كان أبناء الخدم والحشم يتراكضون وراء «الدكتور» كالجراء، ولم يبغضه من الخدم غير «بروكوفيتش» العجوز الذي يقدم له الطعام على المائدة عابساً، وينعته «بالجزار» و«الوغد»، ويؤكد أنه، بفوديه الطويلين، خنزيرٌ حقيقيٌّ في دغلٍ، وكان بروكوفيتش، على طريقته الخاصة، أرستقراطياً ليس أدنى من بافل بتروفيتش.

حلّت أفضل أيام العام؛ الأيام الأولى من يونيو، كان الطقس رائعاً، غير أنّ الكوليرا كانت تتهدد وتتوعد من بعيدٍ، ولكن سكان هذا اللواء اعتادوا على زيارتها، كان بازاروف ينهض مبكراً جداً ويتوجّه إلى مسافة كيلومترين، أو ثلاثة ليس لغرض التجوال، فلم يكن يطيق الجولات دون هدفٍ، بل لغرض جمع الأعشاب والحشرات، وفي بعض الأحيان يصطحب أركادي، فيدور بينهما، عادةً، في طريق العودة جدلٌ؛ اعتاد أركادي أن يكون الخاسر فيه بالرغم من أنه يتكلم أكثر من رفيقه.

ذات مرةٍ تأخرا أمداً طويلاً، فخرج نيكولاي بتروفيتش للقائهما في البستان، وعندما اقترب من التعريشة؛ سمع فجأةً

خطوات الشابين السريعة وصوتيهما، كانا يسيران في الجانب الآخر من التعريشة، وليس بوسعهما أن يرياه، قال أركادي:

- معرفتك بأبي غير كافيةٍ.

فاختبأ نيكولاي بتروفيتش، في حين أجاب بازاروف:

- أبوك رجلٌ طيبٌ، ولكنه إنسانٌ متقاعدٌ حانت نهايته.

أرهف نيكولاي بتروفيتش السمع.. ولم يجرِ أركادي جواباً.

صرف «الإنسان المتقاعد» زهاء دقيقتين، بلا حراكٍ ثم عاد إلى الدار خلسةً وببطءٍ، بينما واصل بازاروف كلامه:

- رأيته أول أمسِ، وهو يقرأ أشعار بوشكين؛ قلْ له من فضلك أن ذلك لا جدوى فيه، فهو ليس غلاماً؛ لقد حان الوقت لترك هذه التفاهة، فمن الذي يرغب في أن يغدو رومانسياً في الآونة الراهنة؟! اعطه شيئاً ما جيداً للقراءة.

- ماذا أعطيه؟

- أظن من الأفضل؛ أن تعطيه في البداية «المادة والقوة»[27] لبوخنر.

- رأيي من رأيك، فإن «المادة والقوة»[28] مكتوبٌ بلغةٍ سلسةٍ، قال أركادي مؤيداً.

بعد ظهر ذلك اليوم حدث نيكولاي بتروفيتش أخاه، وهو جالسٌ في مكتبه:

- هكذا صرت، وإياك في عداد المتقاعدين، وقد حانت نهايتنا.

من يدري؟ ربما بازاروف على حقٍ، ولكن الشيء الوحيد الذي يؤلمني، وأقولها صراحةً، هو أني كنت آمل؛ بأن أعيش مع أركادي الآن بالذات بودٍّ ووئامٍ، ولكن اتضح أني بقيت متخلفاً، بينما تقدّم هو إلى الأمام، ولا يمكن أن يفهم بعضنا بعضاً.

فهتف بافلٌ بنفاد صبرٍ:

- ما الذي جعله يتقدم إلى الأمام؟ وبم يختلف اختلافاً كبيراً عنا؟ كلّ ذلك غرسه في ذهنه هذا السنيور النهلستي، إنني أكره هذا الطبيب التافه، ويخيل إلي أنه دجّالٌ لا أكثر، أنا واثقٌ من أنه لم ينجز في الفيزياء شيئاً بجميع ضفادعه.

- كلا، يا أخي، لا تقل ذلك، بازاروف ذكيٌّ وعلاّمةٌ.

- ثم إن غروره شيءٌ مقيتٌ، قاطعه بافل بتروفيتش من جديدٍ، فوافقه أخوه:

- أجل، إنه مغرورٌ، يبدو أن ذلك لا مفرّ منه، ولكن الشيء الوحيد الذي لا أفهمه؛ هو أني أبذل قصارى جهدي، على ما أظن،

كيلا أتخلف عن العصر: دبرت أمور الفلاحين، وأنشأت مزرعةً حتى صار الناس في اللواء كلّه ينعتوني بالأحمر، وأنا أطالع، وأتعلّم وأحاول عموماً؛ أن أكون على مستوى المتطلبات العصرية، ومع ذلك يقولان أن نهايتي قد حانت، بل إني بنفسي أخذت أفكر، يا أخي، أن نهايتي قد حانت بالفعل.

- لماذا؟

- لأنني عندما كنت اليوم، أقرأ بوشكين... وقعت في يدي ملحمة «الغجر»، على ما أتذكر... اقترب مني أركادي في الحال، وانتزع الكتاب بصمتٍ وهدوءٍ، وبأسفٍ حنونٍ على وجهه، كما لو انتزعه من طفلٍ غريرٍ، ووضع أمامي كتاباً آخر بالألمانية... ثم ابتسم، وذهب، وأخذ معه بوشكين.

- هكذا إذن! وأيّ كتابٍ أعطاك؟

- ها، هو.

أخرج نيكولاي بتروفيتش من الجيب الخلفي لبزته الطبعة التاسعة من كراس بوخنر بالذات.

قلّبه بافل بتروفيتش بيديه، فقال:

- احم!! أركادي مهتمٌّ بتربيتك، ماذا، هل حاولت أن تقرأه؟

- حاولت.

- وماذا؟

- فإما أني غبيٌّ، وإما أن هذا كلّه هراءٌ، الأرجح أني غبيٌّ.

- ألم تنس الألمانية؟

- لا أزال أفهمها.

قلّب بافل بتروفيتش الكتاب من جديدٍ، وألقى على أخيه نظرةً عابسةً، ولزم كلاهما الصمت، ثم قال نيكولاي بتروفيتش في محاولةٍ لتغيير مجرى الحديث على ما يبدو:

- بالمناسبة، تسلمت رسالةً من كوليازين.

- من ماتفي إيليتش؟

- نعم، وصل؛ لتفتيش اللواء، وأصبح من الكبار، ويريد، كما كتب، أن يرانا؛ باعتبارنا أقرباءه، وقد دعانا مع أركادي إلى المدينة.

- هل ستذهب؟، سأل بافل بتروفيتش.

- كلا، وأنت؟

- لن أذهب أنا أيضاً، ليس هناك ما يستحق أن نقطع أكثر من خمسين كيلومتراً، (ماثيو)[29] يريد أن يعرض علينا أمجاده، فليذهب إلى الشيطان!! يكفيه بخور اللواء وحده، ولا داعي؛ لنحرق نحن أيضاً البخور أمامه، ثم ما قيمة المستشار السري؟! لو كنت واصلت هذه الخدمة الروتينية الغبية؛ لغدوت الآن جنرالاً، زِدْ على ذلك أنني وإياك متقاعدان.

- أجل، يا أخي، يبدو أن الوقت قد حان لإعداد التابوت، وتصليب اليدين على الصدر، قال نيكولاي بتروفيتش متنهداً.

فدمدم أخوه:

- كلا، لن استسلم بهذه السرعة، أمامنا بعد مناوشةٌ مع هذا الطبيب الصعلوك، إنني أتوقع ذلك.

حدثت المناوشة في نفس ذلك اليوم، أثناء احتساء شاي المساء.

دخل بافل بتروفيتش غرفة الاستقبال مستعداً للمعركة، كان مستثاراً منفعلاً، لا ينتظر غير توافر الحجة للانقضاض على العدو، ولكن الحجة لم تتوافر لأمدٍ طويلٍ، بازاروف على العموم قليل الكلام بحضور «العجوزين كيرسانوف»، (هذا نعت الأخوين).

وفي ذلك المساء، كان مزاجه متعكراً، فأخذ يحتسي الشاي، صامتاً، فنجاناً إثر آخر، وظلّ بافل بتروفيتش على أحرّ من الجمر؛ حتى تحققت رغبته في آخر الأمر.

تطرّق الحديث إلى أحد الإقطاعيين المجاورين، فقال بازاروف بلا مبالاةٍ، وكان قد تقابل معه في بطرسبورغ:

- أرستقراطيٌّ مزيفٌ دنيءٌ، فبدأ بافل بتروفيتش كلامه، وشفتاه ترتعشان:

- اسمح لي أن أسألك، هل تعني كلمة «أرستقراطي» و«دنيء»، بمفهومك، شيئاً واحداً؟

- قلت، «أرستقراطيٌّ مزيفٌ»، أجاب بازاروف، وهو يرتشف بكسلٍ جرعةً من الشاي.

- بالضبط، ولكني أعتقد أن رأيك هو ذاته بخصوص الأرستقراطيين الحقيقيين، والأرستقراطيين المزيفين على حدٍّ سواء، أرى من واجبي أن أعلن لك؛ بأنني لا أشاطرك هذا الرأي، وأتجرأ على القول إن الجميع يعرفونني، إنساناً ليبرالياً محبّاً للتقدم، ولذلك بالذات، فأنا أحترم الأرستقراطيين الحقيقيين، تذكّر، يا سيدي الجليل، (رفع بازاروف بصره إلى بافل بتروفيتش لدى سماعه هذه الكلمات، فكرر هذا قوله بشدّةٍ)، تذكر، يا سيدي

الجليل، الأرستقراطيين الإنجليز، إنهم لا يتنازلون عن ذرةٍ من حقوقهم، ولذلك، فهم يحترمون حقوق الآخرين، إنهم يطالبون بتنفيذ الواجبات إزاءهم، ولذلك ينفّذون واجباتهم هم، الأرستقراطية منحت بريطانيا الحرية، وهي تحافظ عليها.

فاعترض عليه بازاروف:

- سمعنا هذه الأغنية مراتٍ عديدةٍ، ولكن ما الذي تريد إثباته بهذا؟

- أريد بهيذا، يا سيدي الجليل، (كان بافل بتروفيتش حينما يغضب يقول متعمداً «هيذا»، «بهيذا»، مع أنه يعلم جيداً أن قواعد اللغة لا تسمح بذلك، وتجلت في هذه العادة الغريبة، مخلّفات تقاليد عهد الإسكندر[30]، ففي الحالات النادرة التي كان كبار الشخصيات، آنذاك يتكلمون فيها باللغة الأم كان بعضهم يستخدم كلمة «هيذا»، والبعض الآخر كلمة «هوذا» بدلاً من «هذا»، ولسان حالهم يقول: نحن روسٌ أقحاحٌ، ولكننا في الوقت ذاته، وجهاءٌ يجوز لنا أن نستهين بالقواعد المدرسية) أريد بهيذا؛ أن أثبت أنه من دون شعور الكرامة الشخصية، ومن دون احترام النفس، وهذه المشاعر متطورةٌ لدى الأرستقراطية، لا يمكن وجود أيّ أساسٍ متينٍ (لخير المجتمع)[31].. للكيان الاجتماعي. إن شخصية الفرد، يا سيدي الجليل، هي الأمر الرئيسي، ويتعيّن على شخصية الإنسان، أن

تكون متينةً كالصخرة؛ لأن كلّ شيءٍ يُبنى عليها، وأنا أعلم جيداً بأنك، مثلاً، ترى عاداتي، وهندامي، وأناقتي في الأخير، أمراً مضحكاً، ولكنني أفعل ذلك كلّه؛ بدافعٍ من احترامي لنفسي، وبدافعٍ من شعوري بالواجب، أجل، يا سيدي، بالواجب.

إنني أعيش في القرية، في الريف، ولكنني لا أتضع، فأنا أحترم الإنسان الكامن في دخيلتي.

فقال بازاروف:

- اسمح لي، يا بافل بتروفيتش، إنك تحترم نفسك، وتجلس مكتوف اليدين، فما نفع ذلك (لخير المجتمع؟)[32]، بوسعك أن لا تحترم نفسك، مثلاً، فلا يتغير في الأمر شيءٌ.

شحب لون بافل بتروفيتش:

- هذه مسألةٌ أخرى تماماً، لست بحاجةٍ لأوضّح لك الآن؛ لماذا أجلس مكتوف اليدين على حدّ تعبيرك، أكتفي بالقول إن النزعة الأرستقراطية مبدأٌ، ولا يستطيع أن يعيش من دون مبادئ في عصرنا إلا اللاأخلاقيون أو الفارغون، قلت ذلك لأركادي في اليوم التالي من وصوله، وأكرره لك الآن. أليس كذلك يا نيكولاي؟

هز نيكولاي بتروفيتش رأسه بالإيجاب، في حين قال بازاروف:

- أرستقراطية، ليبرالية، ما أكثر الكلمات الأجنبية... العديمة الجدوى! الروسي ليس بحاجةٍ إلى هذه الكلمات مطلقاً.

- فما الذي هو بحاجةٍ إليه باعتقادك؟ عندما نستمع إليك يخيّل إلينا أننا خارج البشرية، وخارج قوانينها، معذرةً، إن منطق التاريخ يتطلب...

- ما نفع هذا المنطق؟، قال بازاروف، نحن في غنىً عنه.

- كيف؟

- بكلّ بساطةٍ، أنت، على ما أعتقد، لا تحتاج إلى المنطق؛ لكي تضع كسرة الخبز في فمك، عندما تشعر بالجوع، فأين أنت، حينئذٍ، من تلك التجريدات؟

لوح بافل بتروفيتش بيده يائساً:

- إنني لا أفهمك بعد كلّ هذا، أنت تهين الشعب الروسي، لا أفهم كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والأصول!!، فبأية قوةٍ تعملون؟

- قلت لك، يا عمي، إننا لا نعترف بالشخصيات، تدخّل أركادي في الحديث، فقال بازاروف:

- نحن نعمل مدفوعين بتأثير ما نعتبره نافعاً، وفي الحال الحاضر يعتبر الرفض أنفع شيءٍ، لذا فنحن نرفض.

- كلّ شيءٍ؟

- كلّ شيءٍ!.

- كيف؟ ليس الفن والشعر فقط... بل وحتى الـ.... لا أتجرأ على ذكره... يا للفظاعة!!...[33]

- كلّ شيءٍ، كرر بازاروف، بمنتهى الهدوء.

حدّق فيه بافل بتروفيتش، فلم يكن يتوقع ذلك، بينما احتقن وجه أركادي من شعوره بالارتياح، فشرع نيكولاي بتروفيتش يتكلم:

- معذرةً، إنكم ترفضون كلّ شيءٍ، أو على الأصح تهدمون كلّ شيءٍ... ولكن يجب البناء أيضاً.

- ليس ذلك من واجبنا، ينبغي تطهير المكان أولاً.

وأضاف أركادي بلهجةٍ ذات شأنٍ:

- حالة الشعب الراهنة تتطلب ذلك، وعلينا أن ننفذ هذه المطالب، فليس لنا حقٌّ في الانهماك بإرضاء الأنانية الفردية.

يبدو أن هذه العبارة الأخيرة، لم تعجب بازاروف، فقد كانت تفوح منها رائحة الفلسفة، أي الرومانسية، ذلك لأن بازاروف نعت الفلسفة أيضاً بالرومانسية، ولكنه لم ير ضرورةً لدحضِ رأي تلميذه الفتي، بيد أن بافل بتروفيتش هتف بحماسٍ مفاجئٍ:

- كلا، ثم كلا! لا أصدق بأنكما، أيها السيدان، تعرفان الشعب الروسي حقّ المعرفة، وتمثلان متطلباته ومطامحه! كلا، فالشعب الروسي ليس بالشكل الذي تتصوّرانه؛ إنه يحترم قدسية التقاليد، ويمجّد الآباء، ولا يمكن أن يعيش من دون إيمانٍ...

فقاطعه بازاروف:

- لن أجادل في ذلك، بل إني مستعدٌّ للموافقة على أنك محقٌّ فيه.

- وإذا كنت محقاً...

- ومع ذلك، فهذا لا يدلل على شيءٍ.

- بالفعل، لا يدلل على شيءٍ، كرر أركادي هذا القول، بثقة لاعب الشطرنج الماهر الذي توقع نقلة الخصم الخطرة، على ما يبدو، ولكنه لم يرتبك قيد شعرةٍ، بيد أن بافل بتروفيتش دمدم مبهوتاً:

- كيف لا يدلل على شيءٍ؟. أفلا يعني ذلك أنكما ضد شعبكما؟

- فليكن، هتف بازاروف، عندما يهدر الرعد يتصوّر الشعب أن الرسول «إيليا» يتجول على عربته في السماء، فماذا؟ هل عليّ أن أوافقه؟ ثم إنه روسيٌّ، وأنا؟ ألست روسياً؟

- كلا، لست روسياً بعد كلّ ما قلته الآن!!. لا أستطيع أن أعتبرك روسياً.

فردّ بازاروف بتفاخرٍ وكبرياءٍ:

- كان جدي يحرث الأرض؛ اسأل أيّ فلاحٍ من فلاحيكم، هل يعتبرك أنت أم يعتبرني أنا قريباً له؟ بل إنك لا تجيد حتى الكلام مع الفلاح.

- أما أنت، فتتكلم معه، وتحتقره في الوقت ذاته!.

- لا ضير في ذلك، إذا كان يستحق الاحتقار! أنت تلومني على اتجاهي هذا، فمن قال لك أنه ظهر لدي بالصدفة، وأن مبعثه؛ ليس هو نفس تلك الروح الشعبية التي تدافع عنها؟

- طبعاً! طبعاً! ما أحوج الشعب إلى النهلستيين!

- لا يحقّ لك أن تحكم، هل هناك حاجةٌ إلى النهلستيين أم لا، ثم إنك تعتبر نفسك أيضاً شخصاً نافعاً.

- يا سادة، أرجوكم، يا سادة، لا تتعرضوا للأشخاص!!، هتف نيكولاي بتروفيتش، وهمّ بالنهوض. إلا أن بافل بتروفيتش ابتسم واضعاً يده على كتف أخيه، فحمله على الجلوس من جديدٍ، وقال له:

- لا تقلق، فأنا لن أنحدر إلى ذلك بحكم الشعور بالكرامة التي يسخر منها، بقساوة، السيد... السيد الطيب، معذرةً، واصل كلامه مخاطباً بازاروف من جديدٍ، ربما تظن أن مذهبك هذا جديد، أليس كذلك؟ عبثاً تتصوره على هذا النحو، فالمادية التي تبشّر بها كانت على الألسنة أكثر من مرّةٍ، ولكن بطلانها كان يتضح على الدوام...

وها هي كلمةٌ أجنبيةٌ[34] أخرى!، قاطعه بازاروف، وبدا عليه الغضب، فاكتسى وجهه بلونٍ نحاسيٍّ خشن، نحن لا نبشر بشيءٍ، ذلك ليس من عاداتنا.

- فما الذي تفعلونه؟!.

- إليكم ما نفعله: في السابق، في الماضي غير البعيد، كنا نقول أن موظفينا يتسلمون الرشاوى، وأنه ليس لدينا: لا طرقٌ ولا تجارةٌ ولا قضاءٌ عادلٌ...

- أجل، أجل، إنكم نقّاد متشددون، هكذا يسمى ذلك على ما أظن، أنا موافقٌ على الكثير من انتقاداتكم، ولكن...

- ثم أدركنا أن الثرثرة؛ الثرثرة وحدها عن عللنا من أسهل الأمور، وأن ذلك يؤدي إلى الابتذال والتحذلق فقط، ورأينا كذلك أن النابهين من بيننا، أولئك الذين ينعتون بالتقدميين، والنقاد المتشددين، لا يصلحون لشيءٍ، وأننا غارقون في السخاقات، وأننا نتشدق في الكلام عن الفن والإبداع العفوي، والنزعة البرلمانية والمحاماة وغير ذلك مما لا يعرفه إلا الشيطان وحده، في حين أن من المطلوب هو الخبز الكفاف، الخرافات المرهقة تقتلنا، وشركاتنا المساهمة تفلس، وتنهار لسببٍ واحدٍ هو قلة الناس النزيهين، والحرية التي تجهد الحكومة في تأمينها، لا تكاد تعود علينا بنفعٍ؛ لأن فلاحنا مستعدٌّ؛ لأن يسرق نفسه بنفسه، لا لشيءٍ إلا ليتجّرع المسكرات في الحانة،

فقاطعه بافل بتروفيتش:

- لذا، اقتنعتم بهذا كلّه، وقررتم أن لا تباشروا بأيّ عملٍ جديّ.

- قررنا ألا نباشر بأيّ عملٍ، كرر بازاروف متجهّماً، لقد حزن لنفسه فجأةً، فما الداعي للصراحة أمام هذا الإقطاعي...

- ما عدا الشتم والسباب، أليس كذلك؟

- ما عدا الشتم والسباب...

- وهذا ما يسمى نهلستية؟

- وهذا ما يسمى نهلستية، كرر بازاروف بتسلطٍ شديدٍ هذه المرة.

أغمض بافل بتروفيتش جفنيه بعض الشيء، وقال بصوتٍ بدا غريباً لهدوئه:

- هكذا إذن، يعني أن النهلستية دواءٌ لكلّ داءٍ. وإنكم مخلّصونا وأبطالنا، ولكن ماذا فعل الآخرون، النقاد الآخرون مثلاً، ليستحقوا ملامتكم؟ أفلا تثرثرون أنتم أيضاً كالآخرين؟

فتمتم بازاروف:

- ربما لدينا خطايا أخرى، ولكن ليست هذه الخطيئة منها.

- فماذا إذن؟ هل تفعلون شيئاً يا ترى؟!! أو هل تنوون فعل شيءٍ؟

لم يجبه بازاروف، فارتعش بافل بتروفيتش منفعلاً، ولكنه سيطر على نفسه في الحال، ثمّ تابع كلامه:

- احم! إنهم يفعلون، يهدمون... ولكن كيف يجوز الهدم دون معرفة الغرض منه؟

- إننا نـهدم؛ لأننا قوةٌ، قال أركادي.

فألقى بافل بتروفيتش نظرةً على ابن أخيه، وابتسم ساخراً، فكرر أركادي، وهو يعدّل من قامته:

- أجل نحن قوةٌ لا تطأطئ رأسها لأحدٍ.

- مسكينٌ!، جأر بافل بتروفيتش، فلم يعد يطيق المزيد أبداً، هلا فكّرت ما فائدة مواعظك التافهة هذه في روسيا! كلا، حتى الملاك يمكن أن يضيق ذرعا بذلك! قوةٌ؛ القوة موجودةٌ لدى القلموقي[35] المتوحش، ولدى المغولي أيضاً، فما حاجتنا إليها؟!

إننا نعتز بالحضارة، أجل، أجل يا سيدي الجليل، نعتز بثمارها، فلا تقل لي أن هذه الثمار ضئيلةٌ: إن (أردأ رسامٍ)[36]، وأسوأ عازفٍ من الذين يتسلمون خمسة كوبيكاتٍ لقاء الحفلة الواحدة، إنما هما أكثر نفعاً منكم، لأنـهما يمثلان الحضارة، ولا يمثلان القوة المغولية الفظة!! تتصورون أنفسكم أناساً تقدميين، بينما لا يعوزكم غير الجلوس في خيمة القلموق!! قوةٌ! تذكروا أخيراً، أيها السادة الأقوياء، إن عددكم لا يزيد على أصابع اليد، بينما يشكل أولئك ملايين من الذين سيسحقونكم، ولن يسمحوا لكم أن تدوسوا بأقدامكم أقدس أقداسهم!!، فقال بازاروف:

- إذا كانوا سيسحقوننا، فليكن، ولكن تلك مسألةٌ فيها نظرٌ، ثم إن عددنا ليس بالقليل، كما تتصوّر.

- كيف؟ هل تفكرون، بلا مزاحٍ أن تتغلبوا على شعبٍ بكامله؟!!.

- أنت تعرف أن موسكو احترقت من شمعةٍ بخسةٍ، أجاب بازاروف.

- هكذا إذن، من الكبرياء التي تكاد تشبه كبرياء الشيطان إلى التهكّم، ذلك ما يولع به الشباب، وذلك ما تنصاع له أفئدة الغلمان غير المحنكة! انظر، ها هو أحدهم يجلس قربك، إنه يكاد يصلي لك، فمتّع أنظارك، (أشاح أركادي بوجهه الذي تجهم).

ثم إن هذه العدوى قد انتشرت بعيداً، قيل لي إن رسامينا في روما لا يترددون على الفاتيكان مطلقاً[37]، ويكادون يعتبرون «روفائيل» أحمق، ويعللون في ذلك؛ بكونه شخصيةً بارزةً، بينما هم عاجزون عقيمون حتى القرف، ولا يقودهم خيالهم إلى أبعد من «الفتاة عند النافورة»، مهما بذلوا من جهدٍ! ثم أن الفتاة تلك مرسومةٌ بأقبح شكلٍ إنهم رائعون برأيك، أليس كذلك؟

فاعترض بازاروف قائلاً:

- برأيي أن روفائيل لا يساوي شروى نقيرٍ، وأنهم ليسوا أفضل منه.

- مرحى! مرحى! اسمع يا أركادي... على هذا النحو ينبغي للشباب العصريين أن يتكلموا!!، فكيف لا يقتدون بكم، يا ترى؟! في السابق كان الشباب مضطرين إلى التعلم، فلم يكونوا راغبين في أن يذيع صيتهم كجهلةٍ، ولذا كانوا، طبعاً، يجدّون ويجتهدون، أما الآن، فيكفيهم أن يقولوا أن كلّ شيءٍ في العالم تافهٌ. وانتهى الأمر! لقد سرّ الشباب، وفرحوا، وبالفعل، في السابق كانوا بلهاءَ لا غير، أما الآن، فقد أصبحوا، على حين غرةٍ، نهلستيين.

- ها قد خانك شعور الكرامة الشخصية المحمود، قال بازاروف ببرودٍ، في حين اشتاط أركادي غضباً، وبرقت عيناه:

- لقد تمادينا في الجدال إلى حدٍّ بعيدٍ... ويخيّل إليّ أن من الأفضل وقفه، ثمّ أضاف ناهضاً:

- سأكون على استعدادٍ للاتفاق معك؛ حينما تقدم لي، ولو مثالاً واحداً في حياتنا الراهنة، العائلية أو الاجتماعية، لا يستحق الرفض بلا رحمةٍ.

- فهتف بافل بتروفيتش:

- سأقدم لك الملايين من هذه الأمثلة، الملايين! لنأخذ أقل تقديرٍ، المشاعة.

التوت شفتا بازاروف عن ابتسامةٍ ساخرةٍ باردةٍ:

- بخصوص المشاعة، الأفضل أن تتكلم مع أخيك، فقد جرب عملياً، على ما يبدو، ما هي المشاعة، وما هو التكافل، وما هو الامتناع عن تعاطي المسكرات وهلمّ جراً.

- والعائلة، العائلة، أخيراً، بالشكل الذي هي عليه لدى فلاحينا!، صاح بافل بتروفيتش.

- وهذه المسألة أيضاً الأفضل لك، على ما أعتقد ألاّ تتناولها بالتفصيل، أفلم تسمع بالذين يجامعون كناتهم؟ خذ بنصيحتي، يا بافل بتروفيتش، أمهل نفسك يومين، حالياً من المستبعد أن تجد ولو مثالاً واحداً. تفحص كل فئات مجتمعنا، وفكّر جيداً في كل واحدة منها، أما أنا، وأركادي فسوف...

-.... نسخر من كلّ شيءٍ، قاطعه بافل بتروفيتش.

- كلا، سنشرّح الضفادع، فلنذهب يا أركادي، إلى اللقاء أيها السادة!

خرج الصديقان، وظل الأخوان وحيدين، فتطلعا إلى بعضهما البعض أولاً، ثم قال بافل بتروفيتش:

- هؤلاء هم شباب اليوم! هؤلاء ورثتنا!

- ورثتنا، كرر نيكولاي بتروفيتش بحسرةٍ وكآبةٍ، ظل، طوال الجدال، على أحرّ من الجمر، وكان يلقي على أركادي خلسةً نظراتٍ ممضةٍ.

- هل تدري ماذا تذكرت، يا أخي؟ ذات مرّةٍ اختلفت مع المرحومة أمنا، فكانت تصيح، ولا تريد أن تستمع إلي... وقلت لها في آخر الأمر، إنها لا تستطيع أن تفهمني، وإننا ننتمي إلى جيلين مختلفين. لقد أغاظها هذا القول أشد الغيظ، ففكرت أنا: ما العمل؟ الحبّة مُرّةٌ، ولكن يجب ابتلاعها، وها هو دورنا قد حان، فيمكن لورثتنا أن يقولوا لنا: لستم من جيلنا، فابتلعوا الحبّة المُرّة.

- إنك طيب القلب، ومتواضعٌ أكثر من اللازم، اعترض عليه بافل بتروفيتش، فأنا، على العكس، واثقٌ من أنني، وإياك محقّان أكثر بكثيرٍ من هذين السيدين الصغيرين، بالرغم من أننا ربما نتكلم بلغةٍ عتيقةٍ بعض الشيء، ولا نمتلك مثل تلك الغطرسة الجسورة... وما أشد كبرياء الشباب الراهن! فإن سألت أحدهم: أيّ نبيذٍ تريد، حلواً أم مزّاً؟ يجيبك بصوتٍ جهيرٍ، وبمسحةٍ من

الخيلاء على وجهه، وكأنما الكون كلّه يتطلع إليه في تلك اللحظة: «اعتدت على تفضيل النبيذ الحلو!»...

- هل تريدون المزيد من الشاي؟، سألت فينيتشكا، وقد دسّت رأسها في شقّ الباب، إذ لم تكن تجرؤ على دخول غرفة الاستقبال، طالما تتعالى فيها أصوات المتجادلين.

- كلا، يمكنك أن تأمري بنقل السماور، أجاب نيكولاي بتروفيتش، ونهض للقائها، فقال له بافل بتروفيتش على نحو متقطّع: (عم مساءً)[38]، وذهب إلى مكتبه.

11

بعد نصفٍ ساعةٍ، توجه نيكولاي بتروفيتش إلى تعريشته المحببة في البستان، واستوّلت عليه أفكارٌ حزينةٌ، فقد تحسس بوضوحٍ لأول مرةٍ انفصال ابنه عنه، وتوقع أن الهوة بينهما؛ ستتسع من يومٍ لآخر، فلا جدوى من قضائه أياماً كاملةً في شتاءات بطرسبورغ، وهو يطالع أحدث المؤلفات، ومن العبث أنه كان ينصت إلى أحاديث الشبان، ويفرح عندما يتسنى له أن يدسّ كلمةً في حوارهم الفوار، وفكّر في نفسه: «أخي يقول إننا محقان، وإذا تخلينا عن أيّ أثرٍ للغرور، فأنا شخصياً أرى أنهما أبعد عن

الحقيقة منّا، ولكنني في الوقت ذاته، أشعر بأن لديهما ما ليس لدينا، وبأنهما متفوقان علينا بشيءٍ ما... الفتوة؟ كلا: ليس الفتوة وحدها، فلا يكمن تفوقهما في أن آثار الإقطاعية عندهما أقل مما عندنا؟».

طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه، ومسح وجهه بيده، وفكر من جديدٍ:

«ولكن كيف يمكن رفض الشعر؟!. وعدم الإحساس بالفن والطبيعة؟!.».

وتطلّع إلى ما حواليه، وكأنما يريد أن يفهم كيف يمكن عدم الإحساس بالطبيعة، حل المساء، واختفت الشمس وراء حرج الحور المنبسط، على بعد نصف كيلومتر من البستان: كانت ظلاله تمتد بلا نهايةٍ عبر الحقول الساكنة، ومر فلاحٌ على ظهر فرسٍ بيضاءَ تسير خبباً في الدرب الضيق المعتم على طول الحرج، كان مرئياً كلّه بوضوحٍ، كلّه حتى الرقعة على كتفه بالرغم من الظلال التي تلفعه، وكانت قوائم الفرس قد لاحت بوضوحٍ يبعث على الانشراح، وكانت أشعة الشمس بدورها تخترق الحرج، وتنساب عبر الأجمة، فتغمر جذوع الحور بضوءٍ دافئٍ جعلها شبيهةً بجذوع الصنوبر، وجعل لون أوراقها نيلياً فاتحاً، وتشهق فوقها سماءٌ زرقاءُ باهتةٌ خضّبها الشفق بلمساتٍ خفيفةٍ. كانت سنونواتٌ تحلّق عالياً، وقد هدأ النسيم كلياً، وأخذت نحلاتٌ مختلفةٌ تئز بكسلٍ

وخمولٍ بين أزهار الليلاك، وكان البرغش يتزاحم كعمودٍ من الدخان على غصنٍ منعزلٍ اشرأب بعيداً، «ما أروع ذلك، يا إلهي!»، فكر نيكولاي بتروفيتش، وكاد ينشد أشعاره المحببة، ولكنه تذكّر أركادي وكرّاس «المادة والقوة»[39]، فلزم الصمت، وظل جالساً تتلاعب به الأفكار اليتيمة على نحوٍ محزنٍ ومفرحٍ معاً، كان يحب الأحلام، فقد طورت الحياة الريفية فيه القدرة على التمتع بالأحلام، فهل مرّ زمنٌ طويلٌ عليه عندما كان يحلم على هذا النحو، وهو ينتظر عودة ابنه في الخان؟.. بيد أن تغيراً جرى مذ ذاك، وتحددت العلاقات التي لم تكن واضحةً... ولكن على أيّ نحوٍ؟! لاحت أمامه من جديدٍ صورة المرحومة زوجته، ليس بالشكل الذي عرفها فيه طوال سنينٍ عديدةٍ، ربة بيتٍ شاطرةٌ طيبةٌ، بل فتاةٌ يافعةٌ ذات قوامٍ نحيفٍ، ونظرةٍ متفحصةٍ عذراءَ، وجديلةٍ مفتولةٍ بشدةٍ فوق عنقٍ طفوليٍّ. تذكّر كيف رآها للمرة الأولى، كان، وقتها، لا يزال طالباً، صادفها على سلّم المنزل الذي يقيم فيه، اصطدم بها صدفةً، فالتفت؛ ليعتذر منها، ولكنه لم يستطع إلا أن يدمدم بالفرنسية: (معذرةً يا سيدي)[40] في حين طأطأت هي رأسها، وابتسمت ابتسامةً ساخرةً، ثم ركضت فجأةً كما لو كانت خائفةً، وفي منعطف السلّم ألقت عليه نظرةً خاطفةً، واكتسى محياها بمظهر الجدّ واصطبغ بالاحمرار، وفيما بعد بدأت أولى

الزيارات الخجولة، وأنصاف الكلمات والابتسامات المبتورة والحيرة والكآبة والانفعالات، وأخيراً تلك الفرحة اللاهثة... أين تلاشى ذلك كله؟ تزوج منها، وكان سعيداً مثل القليلين في المعمورة... وفكر: «لِمَ لا تعيش تلك اللحظات الحلوة عيشةً أبديةً لا تموت؟».

لم يحاول أن يوضح لنفسه فكرته هذه، ولكنه أحسّ؛ بأنه راغبٌ في أن يمسك بزمن المسرات ذاك بشيءٍ ما أقوى من الذاكرة، وكان يريد أن يلمس من جديدٍ قوام زوجته ماريا، ويتحسس دفاها وأنفاسها، وخيّل إليه، وكأنها قد أطلت عليه...

- يا نيكولاي بتروفيتش، أين أنتم؟!، صدح على مقربةٍ منه صوت فينيتشكا، فانتفض، ولم يشعر لا بالألم، ولا بالخجل... لم يكن؛ ليتقبل حتى فكرة المقارنة بين زوجته وفينيتشكا، ولكنه أسف؛ لأنها عزمت على البحث عنه، فقد ذكره صوتها حالاً؛ بشعره الأشيب وشيخوخته وحاضره...

العالم السحري الذي كان يلجه، وكاد يظهر من أمواج الماضي الضبابية، اهتزّ، فتبدد.

- أنا هنا، سأحضر، اذهبي، أجابها، وتبادر إلى ذهنه فكرةٌ بخصوص لهجة الجواب: «تلك هي آثار الإقطاعية»، نظرت

فينيتشكا إليه في التعريشة صامتةً، ثم اختفت، في حين، لاحظ هو مندهشاً أن الليل قد حلّ، منذ أن غرق في أحلامه، كان كلّ شيءٍ حواليه قد أظلم وسكن، ولاح محيا فينيتشكا أمامه شاحباً ضئيلاً، نهض؛ ليعود إلى الدار، ولكن فؤاده المترجرج، ما كان؛ ليهدأ بين جوانحه، وتارةً يرفع بصره إلى السماء المرصعة بنجومٍ راحت تومض لبعضها البعض، وتمشّى طويلاً؛ حتى كاد يكلّ، في حين لم يخفُت في دخيلته ذلك القلق الحزين التوّاق الغامض، ما كان أشد ضحك بازاروف عليه، لو علم بما اعتمل في فؤاده آنذاك!! وحتى أركادي ربما أدانه على ذلك!! لقد انهمرت الدموع؛ دموعٌ بلا سببٍ، من عينيه هو المهندس الزراعي، والسيد الذي بلغ الرابعة والأربعين، إن ذلك أفدح بمئة مرّةٍ من الفيولونسيل.

واصل نيكولاي بتروفيتش سيره، ولم يستطع أن يشد العزم على دخول الدار، ذلك العش المريح الوادع الذي يتطلع إليه بترحابٍ من جميع نوافذه المضاءة، كان عاجزاً عن مفارقة الظلمة والبستان والإحساس بالنسيم العليل يداعب وجهه، وذلك الحزن القلق...

في منتصف الدرب، لاقى بافل بتروفيتش الذي سأله:

- ماذا بك؟ إنك شاحب كالشبح، أنت متوعكٌ، فلمَ لا ترقد؟

أوضح له نيكولاي بتروفيتش بإيجازٍ حالته النفسية، وانصرف، بلغ بافل بتروفيتش آخر البستان، وأخذ يتأمل، ثم رفع بصره هو أيضاً إلى السماء، لكن عينيه السوداوين الرائعتين لم تعكسا شيئاً غير ضوء النجوم، فهو لم يولد رومانسياً، ولم تكن روحه الجافة المتلهفة بأناقةٍ والنفورة من البشر على النمط الفرنسي؛ لتجيد الانصياع إلى الأحلام...

- هل تعلم، يا أركادي؟ تبادرت إلى ذهني فكرةٌ رائعةٌ، قال بازاروف في تلك الليلة، ذكر أبوك اليوم أنه تسلّم دعوةً من قريبك الوجيه، وأنه لا ينوي السفر إليه، فهلا سافرنا وإياك إلى مدينة (...)، ذاك السيد يدعوك أنت أيضاً، ألا ترى كيف تحول الطقس هنا؟ فلنرتحل، ولنر المدينة. سنصرف خمسة أيامٍ أو ستة وكفى.

- وهل ستعود إلينا بعد ذلك؟

- كلا، أريد أن أسافر إلى والدي، فهو يقيم، كما تعلم، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من تلك المدينة. ولم أره من زمانٍ، وكذلك أمي، ينبغي أن أزيل همّ العجوزين، فهما طيبان، وخصوصاً والدي المرح للغاية، وأنا وحيدهما.

- وهل ستبقى عندهما طويلاً؟

- لا أعتقد، ربما سيكون ذلك مملاً.

- وهل ستمرّ بنا في طريق العودة؟

- لا أدري... سأفكر في ذلك، اتفقنا؟ هل سنسافر؟

- أجل، قال أركادي متكاسلاً.

كان قد سُرّ في دخيلته كل السرور؛ لاقتراح صديقه، ولكنه رأى أن من واجبه إخفاء مشاعره، فما جدوى كونه نهلستياً إذن؟!

في اليوم التالي سافر مع بازاروف إلى مدينة (...)، أسف الشباب في مارينو لسفرهما، حتى أن دونياشا أسقطت دمعةً، إلا أن «العجوزين» تنفسا الصعداء.

12

يدير المدينة التي توجه إليها صاحبانا متصرّفٌ من الشباب، تقدّميٌّ ومتعسّفٌ في الوقت نفسه، كما يصادف كثيراً في روسيا، فقد استطاع أثناء العام الأول من حكمه أن يتشاجر، ليس فقط مع زعيم النبلاء اللواء، يوزباشي الفرسان المتقاعد المضياف وصاحب حقل تربية الجياد، بل مع موظفيه هو، واتسع نطاق النزاعات التي نشبت بهذا الخصوص؛ حتى أن الوزارة في بطرسبورغ رأت في آخر الأمر، أن ترسل شخصاً مخولاً كلفته بالنظر في القضية هناك، ووقع اختيار المسؤولين على ماتفي

ايليتش كوليازين، وهو ابن كوليازين الذي رعى الأخوين كيرسانوف في غابر الزمان، وكان هو أيضاً من «الشباب»، أي أنه بلغ الأربعين مؤخراً، لكنه أصبح من رجالات الدولة أو يكاد، وكانت على صدره نجمتان، إلا أن إحدى النجمتين أجنبيةٌ، وليست من عداد الأوسمة السامية، كان يُعتبر من دعاة التقدم، شأنه شأن المتصرف الذي وصل للبتّ في أمره، ولم يكن يشبه السواد الأعظم من الموظفين الكبار بعد أن أصبح واحداً منهم.

كان مغروراً أشد الغرور، وكان زهوه بلا حدودٍ، بيد أنه كان متساهلاً متسامحاً بسيط العادات، ذا نظرةٍ تنمّ عن الرضا، وهو يضحك من كلّ قلبه حتى كاد يشتهر في بادئ الأمر؛ بأنه «شخصٌ طيّبٌ جداً»، ولكنه يجيد في الحالات الهامة، ذر الرماد في العيون، كما يقال، وعندئذٍ كان يقول: «الحيوية ضروريةٌ، فالحيوية هي الخاصية الأولى لرجل الدولة[41]»، وفيما عدا ذلك يظل مخدوعاً عادةً، فيمتطيه أيّ موظفٍ لديه شيءٌ من الخبرة، كان ماتفي إيليتش يكن أعمق الاحترام لغيزو[42]، ويحاول إقناع الجميع؛ بأنه لا ينتمي إلى الروتينيين والبيروقراطيين المتخلفين، وأنه لا يدع أيّ مظهرٍ هامٍ للحياة الاجتماعية دون أن يلتفت إليه... كان مطّلعاً خير اطلاعٍ على أمثال هذه الكلمات؛ حتى أنه كان يتابع، ولو بتعالٍ واستهانةٍ تطور الأدب الحديث، كما يفعل الرجل عندما

ينضم أحياناً إلى موكب الصبيان الذين يصادفه في الطريق، لم يكن ماتفي إيليتش، في الواقع، يختلف كثيراً عن رجالات الدولة في عصر الاسكندر[43]، أولئك الذين يطالعون في الصباح صفحةً من كونديلياك[44] استعداداً لحضور أمسيةٍ عند السيدة سفيتشينا[45] التي كانت تقطن بطرسبورغ آنذاك، سوى أن أساليبه هي أساليبٌ أخرى أكثر حداثةً. كان من أفراد الحاشية اللبقين، وكان محتالاً جداً، ولا شيء أكثر من ذلك، فلم يكن يعرف شيئاً في شؤون الخدمة، ولم يكن يمتلك حصافةً، ولكنه يجيد تدبير أموره الشخصية، ولا يستطيع أحدٌ أن يجاريه في ذلك، وهذا هو الأمر الرئيسي.

استقبل ماتفي إيليتش أركادي بطيبة القلب الملازمة للموظف الكبير المستنير، بل، وبشيءٍ من المداعبة، ولكنه استغرب عندما علم أن قريبيه اللذين دعاهما ظلا في القرية، فقال: «أبوك غريب الأطوار دوماً»، وأخذ ينش بشراريب ردائه المنزلي المخملي الرائع، ثم توجه إلى موظفٍ شابٍّ في بزةٍ مهندمةٍ على أفضل ما يكون، وهتف به فجأةً، وبمسحةٍ من الاهتمام: «ماذا؟»، اعتدل الشاب الذي التصقت شفتاه ببعضهما من طول السكوت، ونظر إلى رئيسه متحيراً، إلا أن ماتفي إيليتش صرف نظره عن مرؤوسه بعد حيرةٍ. إن موظفينا الكبار يحبون على العموم تحيير

مرؤوسيهم، ثم إن الأساليب التي يلتجئون إليها؛ لبلوغ هذا الهدف متنوعةٌ للغاية، وبالمنسبة فإن الأسلوب التالي يحظى بانتشارٍ واسعٍ، إذا هو، كما يقول الإنجليز، الأسلوب «المفضل»[46]:

يكفّ الموظف فجأةً، عن فهم أبسط الكلمات، فيتظاهر بالصمم، ويسأل، مثلاً، أيّ يومٍ في الأسبوع الآن؟

فيجاب بأكمل قدرٍ من الاحترام: «اليوم هو الجمعة يا صاحب المعالي».

- آ؟ ماذا؟ ماذا تقول؟، يكرر الموظف أسئلته على نحوٍ متوترٍ.

- اليوم هو الجمعة، يا صاحب المعالي.

- كيف؟ ماذا؟ ماهي الجمعة؟ أية جمعةٍ؟

- الجمعة، يا صاحب المعالي، يومٌ من أيام الأسبوع.

- ماذا؟ هل تتجرأ على تعليمي؟

كان ماتفي إيليتش، مع ذلك، موظفاً كبيراً، بالرغم من أنه يعتبر ليبرالياً متحرراً. قال لأركادي:

- أنصحك، يا صديقي، أن تقوم بزيارةٍ إلى المتصرف، أنت تعرف أني أنصحك بذلك؛ ليس لأنني متمسكٌ بالمفاهيم القديمة

حول ضرورة التشريفات لدى السلطات، بل؛ لمجرد أن المتصرف إنسانٌ مستقيمٌ، زدْ على ذلك، أنك ربما ترغب في التعرف على المجتمع هنا... فلست دباً على ما أعتقد؟ أما، هو، فلسوف يقيم حفلةً ساهرةً كبرى بعد غدٍ؟

فسأل أركادي:

- هل ستحضر الحفلة أنت؟

- إنه يقيمها من أجلي، قال ماتفي إيليتش بما يكاد يشبه الأسف، هل تجيد الرقص؟

- على نحوٍ سيئٍ.

- شيءٌ مؤسفٌ، فهناك توجد فاتناتٌ، ثم إن من العيب على الشاب أن لا يجيد الرقص، أقول ذلك أيضاً ليس بحكم المفاهيم القديمة، فأنا لا أعتقد أبداً بأن العقل ينبغي أن يكون في الرجلين، بيد أن البايرونية المقلدة مضحكةٌ، (لقد ولّى زمانها)[47].

- ليس ذلك، يا عمي العزيز، بسبب البايرونية...

- سأعرّفك على سيدات المدينة، وأحميك تحت جناحي، حيث ستجد الدفء، أليس كذلك؟، قاطعه ماتفي إيليتش، وقهقه بخيلاءٍ.

دخل الخادم وأعلن عن وصول مدير الخزينة، وهو شيخٌ ذو عينين عسليتين، وشفتين متجعدتين، يهوى الطبيعة إلى أقصى حدّ، وخصوصاً في أيام الصيف حيث «تأخذ كلّ نُحيْلةٍ رشفةٌ من زُهَيْرةٍ» على حد تعبيره...

عاد أركادي، فوجد بازاروف في الخان الذي نزلاه، صرف وقتاً طويلاً في إقناعه بزيارة المتصرف، حتى قال بازارواف أخيراً: «ما في الأمر حيلةٌ! ولا مجال للتراجع عما أقدمنا عليه! طالما وصلنا؛ لمشاهدة الإقطاعيين، فلنشاهدهم!». استقبل المتصرف الشابين بترحابٍ، ولكنه لم يشر عليهما بالجلوس، ولم يجلس هو الآخر. كان على الدوام في عجلةٍ من أمره، ففي الصباح يرتدي بدلته الرسمية، وربطة عنقٍ مشدودةٍ على نحو خانق، ولا يكمل طعامه وشرابه، بل يصدر أوامره طوال الوقت، وكان سكان اللواء يلمحون عادةً إلى شخصيته الضعيفة، لقد دعا هذا المتصرف كيرسانوف وبازاروف لحضور الحفلة الساهرة التي سيقيمها، ولكنه بعد دقيقتين دعاهما من جديدٍ لحضور نفس الحفلة، وخُيّل إليه هذه المرة أنهما شقيقان، فسماهما بالأخوين كيساروف، وليس كيرسانوف.

كانا عائدين إلى الخان من المتصرف، عندما قفز فجأةً من عربةٍ خفيفةٍ قربهما شخصٌ قصير القامة في سترة مجريةٍ مما

يرتديه أنصار النزعة السلافية، واندفع نحو بازاروف هاتفاً: «يفغيني فاسيليفيتش!».

فقال بازاروف مواصلاً سيره على الرصيف:

- آ! هذا أنت، يا سيد سيتنيكوف، يا للمصادفة!

- تصور، مصادفة بحتةٌ، أجاب ذاك، والتفت إلى العربة، فلوح بيده للحوذي خمس مراتٍ، وصاح: -هيا اتبعنا، هيا!، ثم واصل كلامه قافزاً عبر الساقية:

- رجاني أبي... فلديه هنا تجارةٌ... علمت اليوم بوصولكما، فعرجت عليكما... (وبالفعل عندما عاد الصديقان إلى غرفتهما في الخان، وجدا هناك بطاقةٌ ذات زوايا معقوفةٍ، وعليها اسم سيتينكوف بالفرنسية على جهةٍ، وبخط سلافيٍّ فنيٍّ على الجهة الثانية)، آمل أنكما لستما عائدين من المتصرف!

- لا تأمل في ذلك، فنحن عائدان منه بالذات.

- أها! سأذهب إليه أنا أيضاً في هذه الحالة... يا يفغيني فاسيليفيتش، عرّفني على صديـ... على سيادته...

- سيتنيكوف، كيرسانوف، دمدم بازاروف دون أن يتوقف، فقال سيتنيكوف مبتسماً، وهو يسير على نحوٍ جانبيّ، ويشد

باستعجالٍ قفازيه الأنيقين للغاية:

- مسرورٌ جداً، سمعت الكثير جداً عن... أنا من قدامى معارف فاسيليفيتش، ويمكنني القول؛ بأنني تلميذه. وأنا مدينٌ له بتحولي الفكري...

تطلع أركادي إلى تلميذ بازاروف، كانت مسحةٌ من القلق والبلادة تغطي الملامح الضئيلة والمستساغة في الوقت ذاته على وجهه الحليق. كانت عينان غائرتان غير واسعتين، تنظران بحدّةٍ واضطرابٍ، وكان هو يضحك باضطرابٍ، أيضاً بقهقهةٍ متقطعةٍ كما لو كانت متخشبةً، ثم واصل كلامه:

- هل تصدقني؟ عندما قال يفغيني فاسيليفيتش بحضوري لأول مرّةٍ؛ أنه يجب عدم الاعتراف بالشخصية أحسست بإعجابٍ لا حدّ له... وكأنما تفتحت أبصاري!!، وفكرت في نفسي: «ها قد عثرت آخر الأمر على إنسانٍ!»، وبالمناسبة ينبغي لك، يا يفغيني فاسيليفيتش، أن تزور من كلّ بدّ واحدةً من السيدات هنا، وهي قادرةٌ كلياً على أن تفهمك، وستكون زيارتك لها عيداً حقيقياً، أعتقد أنك سمعت بها، أليس كذلك؟

- من هي؟، سأل بازاروف دون اكتراثٍ.

- (ايدوكسي)[48]، يفدوكسيا كوكشينا. إنسانةٌ رائعةٌ، (متحررةٌ)[49] بكلّ معنى الكلمة؛ امرأةٌ تقدّميةٌ، على فكرةٍ، فلنذهب إليها سويةً، إنها تعيش على مقربةٍ من هنا، وسوف نتناول الفطور عندها. فأنتما لم تفطرا بعد، أليس كذلك؟

- لم نفطر بعد.

- حسناً، لعلمكما أنها افترقت عن زوجها، ولم تعد مرتبطةً بأحدٍ.

فقاطعه بازاروف:

- هل هي مليحةٌ؟

-لا.. لا أعتقد.

- يا للشيطان! فلأيّ غرضٍ تدعونا لزيارتها؟

- يا لَك من منكّتٍ... ستسقينا قنينة شمبانيا، أفليس ذلك كافياً؟

- هكذا إذن! يبدو أنك إنسانٌ عمليٌّ حقاً، وبالمناسبة، ألا يزال والدك يتاجر بالمسكرات؟

- لا يزال، أجاب سيتنيكوف بعجلةٍ، وقهقه بصريرٍ كالصأصأة، ماذا؟ هل تذهبان إليها؟

- لا أدري، في الواقع.

- أردت أن تشاهد الناس، فاذهب، قال أركادي بصوتٍ كالهمس، فسأل سيتنيكوف:

- وأنت، يا سيد كيرسانوف؟ تفضل أنت أيضاً، فلا يمكن الذهاب من دونك، كيف لنا أن ننهال عليها دفعةً واحدةً؟!..

- لا بأس. كوكشينا إنسانةٌ رائعةٌ.

- وهل ستقدم لنا قنينة شمبانيا؟... سأل بازاروف، فأجابه سيتنيكوف:

- ثلاث قنانٍ، إنني أتعهّد.

- بماذا؟

- برأسي.

-الأفضل بأموال أبيك، ومع ذلك، فلنذهب.

13

الدار الصغيرة التي تسكنها أفدوتيا نيكيتيشنا (أو يفدوكسيا) كوكسينا، من دور النبلاء المبنية على الطراز المسكوبي، وهي تقع في أحد الشوارع التي احترقت مؤخراً بمدينة (...)، ومن المعروف أن مدن الألوية عندنا تحترق مرّةً كلّ خمسة أعوامٍ. لاح

فوق الرقعة المثبتة بصورةٍ مائلةٍ على الباب مقبض جرسٍ صغيرٍ، وفي الدهليز استقبلت القادمين، امرأةٌ ترتدي قلنسوةً خفيفةً، ربما هي وصيفةٌ، وربما هي رفيقةٌ لصاحبة الدار، مما يدل على المطامح التقدمية لهذه الأخيرة، وسألها سيتنيكوف: أفدوتيا نيكيتيشنا موجودةٌ؟

فتعالى صوتٌ رفيعٌ من الغرفة المجاورة:

- هذا أنت يا (فكتور)[50]، ادخل.

وفي الحال اختفت المرأة ذات القلنسوة.

- لست لوحدي، قال سيتينكوف، وهو يخلع سترته المجرية الطويلة بحيويةٍ، وقد ظهر تحتها شيءٌ يشبه حشية التدفئة أو البطانة الفضفاضة، ثم ألقى نظرةً متحمسةً على أركادي وبازاروف، في حين أجاب الصوت:

- لا فرق، (ادخلوا)[51]

دخل الشبان غرفةً تشبه مكتب العمل، أكثر مما تشبه غرفة الاستقبال؛ كانت الأوراق والرسائل وأعدادٌ سميكةٌ من المجلات الروسية، وأغلبها مفتوحٌ، منتشرةً على الموائد المغبرة، وقد ألقيت في جميع الأنحاء أعقاب السجائر البيضاء، وعلى أريكةٍ جلديةٍ جلست في وضعٍ يشبه الاضطجاع امرأةٌ لا تزال في عمر الشباب،

وهي شقراءُ مشعثةٌ بعض الشيء في بدلةٍ حريريةٍ ليست على قدرٍ من الأناقة، وأساورَ كبيرةٍ تطوق يديها القصيرتين ومنديلٍ مخرمٍ يلفّ رأسها، نهضت من الأريكة، وألقت على كتفيها دون عنايةٍ معطفاً مخملياً مبطناً بفرو القاقم العتيق المائل إلى الاصفرار، وقالت بكسلٍ: «مرحباً يا (فكتور)[52]»، وصافحت سيتنيكوف، بينما قال هو على نحوٍ متقطعٍ مقلداً بازاروف:

- بازاروف، كيرسانوف.

- على الرحب والسعة، أجابت كوكشينا، ثم ركّزت على بازاروف نظراتٍ من عينيها المستديرتين اللتين لاح بينهما أنفٌ محمّرٌ صغيرٌ، أخنسُ كاليتيم، وأضافت قائلةً:

-أنا أعرفك، وصافحته هو الآخر.

تقزز بازاروف، لم يكن في قوام هذه المرأة المتحررة الباهت الدقيق شيءٌ قبيحٌ أبداً. إلا أن تعبير وجهها يترك في الناظر إليها انطباعاً غير مريحٍ، وكان بودّ المرء أن يسألها عفوياً: «ماذا؟ هل أنت جائعةٌ؟ أو ضجرةٌ؟ أو خجولةٌ؟ لماذا أنت متوترةٌ؟»، كانت، شأنها شأن سيتنيكوف، تشعر على الدوام بالضيق النفسي، وهي تتكلم وتتحرك بلا أدنى أثرٍ للتكلف، ولكن على نحوٍ أخرق في الوقت ذاته، ولعلها تعتبر نفسها كائناً بسيطاً طيب القلب، بيد أنه

مهما فعلت من شيءٍ، يُخيل إليكم أن هذا الشيء، بالذات هو ما لم تكن تريد فعله، فكل ما تفعله يبدو متعمداً، أيّ أنه لم يكن بسيطاً ولا طبيعياً.

- أجل، أجل، أنا أعرفك يا بازاروف، كررت القول، وكانت متمسكةً بالعادة الملازمة لكثيرٍ من سيدات الألوية، وسيدات موسكو في تسمية الرجال بألقابهم فقط منذ اليوم الأول للتعارف

-هل تريدون سيجاراً؟

- بالطبع، قال سيتنيكوف على الفور وقد جلس متراخياً على الكرسي رافعاً رجله إلى الأعلى، فليقدموا لنا الفطور، نحن جياعٌ على نحوٍ مرعبٍ، بل وأمُري بتقديم قنينةٍ من الشمبانيا.

- يا لَه من محبٍّ للنعيم!!، قالت يفدوكسيا، وضحكت؛ كانت لثتها العليا تتعرى من فوق أسنانها، عندما تضحك، أليس كذلك، يا بازاروف؟، فقال سيتنيكوف بشيءٍ من الاستعلاء:

- إنني أهوى الحياة المريحة، وهذا لا يمنعني من أن أكون متحرراً.

- كلا، يمنعك!؟، هتفت يفدوكسيا، ولكنها أمرت وصيفتها بإعداد الفطور، وإحضار الشمبانيا، ثم أضافت مخاطبةً بازاروف:

- ما هو رأيك بهذا الخصوص؟ أنا واثقةٌ من أنك توافقني.

- كلا -اعترض بازاروف - قطعة اللحم أفضل من كسرة الخبز، حتى من الناحية الكيمياوية.

- هل تدرس الكيمياء؟!. إنها هوايتي، حتى أني ابتدعت بنفسي نوعاً من الدهان.

- دهان؟! أنت؟!.

- أجل، أنا، ولأيّ غرضٍ، هل تعلم؟ لصنع الدمى، كيلا تتحطم رؤوسها، فأنا إنسانةٌ عمليةٌ أيضاً، ولكن ليس كلّ شيءٍ جاهزاً بعد؛ ينبغي أن أطالع «ليبيغ»، وبالمناسبة هل قرأت مقالة كيسلياكوف في «الوقائع الموسكوبية»[53] عن عمل النساء؟ اقرأها من فضلك، فأنت تهتم بمسألة المرأة، وبالمدرسة أيضاً، أليس كذلك؟ ما الذي يمارسه صديقك؟ وما اسمه؟

كانت السيدة كوكشينا تنثر أسئلتها الواحد تلو الآخر؛ باستهانةٍ رقيقةٍ دون أن تنتظر الجواب عليها، كما يتكلم الأطفال المدللون عادةً مع مربياتهم.

- اسمي أركادي نيكولايفيتش كيرسانوف، وأنا لا أمارس شيئاً.

قهقهت يفدوكسيا.

- شيءٌ مليحٌ! ماذا؟ ألا تدخن؟! أتدري، يا فكتور، بأني زعلانةٌ عليك؟!

- لأيّ سببٍ؟!!.

- يقال إنك صرت تمدح جورج صاند[54] من جديدٍ. إنها امرأةٌ متخلفةٌ، ولا شيء غير ذلك! كيف يمكن مقارنتها مع أمرسون[55]؟، فليست لديها أية أفكارٍ لا عن التربية، ولا عن الفسلجة، ولاعن أيّ شيءٍ، وأنا واثقةٌ من أنها لم تسمع حتى بعلم الأجنة، فكيف يمكن من دون ذلك في عصرنا؟ (نشرت يفدوكسيا يديها). آه، يا للمقالة المدهشة التي كتبها يليسفيتش[56] بهذا الخصوص!!. إنه سيدٌ عبقريٌّ!!، اعتادت يفدوكسيا دوماً على استخدام كلمة ‹‹سيد››، بدلاً من ‹‹شخص››، يا بازاروف، اجلس قربي على الأريكة، ربما أنت لا تدري؛ بأني أخاف منك أشد الخوف.

- لماذا؟ اسمحي لي أن أعرف.

- إنك سيدٌ خطرٌ، ناقدٌ لاذعٌ. آه، يا إلهي!! من المضحك أنني أتكلم كما تتكلم إقطاعيةٌ في قريةٍ نائيةٍ، وبالمناسبة، فأنا إقطاعيةٌ حقاً؛ أدير الضيعة بنفسي، ثم إن مختار القرية لديّ، ‹‹يروفي››، لو تعلمون، سيدٌ مدهشٌ، مثل بطل كوبر ‹‹باثفايندر››[57]، ففيه شيءٌ

من عدم التصنع!! قررت أن أعيش هنا نهائياً، إنها مدينةٌ لا تطاق، أليس كذلك؟ ولكن ليس في الأمر حيلةٌ!

فقال بازاروف ببرودٍ:

- مدينةٌ كسائر المدن.

- اهتماماتٌ ضئيلةٌ، وهذا هو الأمر الفظيع!! في السابق كنت أقضي الشتاء من كلّ عامٍ في موسكو... أما الآن، فهناك يعيش زوجي المسيو كوكشين، ثم إن موسكو الآن... لا أدري... لم تعد على ما يرام، إنني أفكر في السفر إلى الخارج. ففي العام الماضي كدت أتهيأ كلياً للسفر.

فسألها بازاروف:

- إلى باريس، أليس كذلك؟

- إلى باريس وهيديلبرغ.

- ما الداعي لهيديلبرغ؟

- كيف لا. فهناك بونزين[58]!

لم يحر بازاروف جواباً.

- هل تعرف (بيير)[59] سابوجنيكوف؟...

- كلا، لا أعرفه.

- كيف؟ (ببير) سابوجنيكوف... إنه يزور ليديا خوستاتوفا على الدوام.

- أنا لا أعرفها أيضاً.

- تعهد؛ بأن يرافقني، الحمد لله أنني حرّةٌ طليقةٌ ليس لدي أطفالٌ... ماذا قلت؟ الحمد لله!! فليكن، ولا فرق.

لفَّت يفدوكسيا سيجارةً بأصابعها المسمرة من أثر التبغ، وبللتها بلسانها، ثم مصتها وأشعلتها، دخلت الوصيفة تحمل صينيةً.

- ها هو طعام الفطور! تفضلوا إلى المائدة! يا فكتور افتح القنينة، فهذا اختصاصك.

- أجل، اختصاصيٌّ، دمدم سيتنيكوف، ثم ضحك بصريرٍ كالصأصأة مرّةً أخرى.

- هل توجد هنا حسناوات؟، سأل بازاروف، وهو يجهز على القدح الثالث، فأجابت يفدوكسيا:

- أجل، ولكنهن جميعاً فارغاتٌ، فمثلاً، (صديقتي)[60] أودينتسوفا، لا عيبَ في حسنها، ولكن مما يؤسف له أن سمعتها

ليست على ما يرام... لا ضير في ذلك، ولكنها لا تتمتع بأية حريةٍ للرأي، وأيّ اتساعٍ في الأفق... مطلقاً، ينبغي تغيير نظام التربية بمجمله، ولقد فكرت في ذلك، فنساؤنا تربيْن تربيةً سيئةً للغاية.

- لن تفعلي لهن شيئاً، تدخل سيتنيكوف، ينبغي احتقارهن، وأنا أحتقرهن تماماً!، كانت إمكانية الاحتقار، والإفصاح عن هذا الاحتقار أحبّ شيءٍ لدى سيتنيكوف، وكان في الواقع؛ يتهجم على النساء دون أن يعلم؛ بأنه سوف يضطر بعد بضعة أشهرٍ أن يتزلف إلى زوجته لسببٍ واحدٍ هو أنها ابنة الأمير دوردوليوسوف، فما من واحدةٍ منهن تستطيع أن تفهم حديثنا هذا، وما من واحدةٍ منهن تستحق بأن نتكلم، نحن الرجال الجادين، عنها!

- لسْن بحاجةٍ مطلقاً إلى فهم حديثنا، قال بازاروف، فتدخلت يفدوكسيا:

- عمن تتكلم؟

- عن الحسناوات.

- كيف؟ يعني أنك تؤيد رأي برودون،[61] أليس كذلك؟

عدل بازاروف قوامه بكبرياءٍ، وقال:

- لا أؤيد آراء أحدٍ إطلاقاً، فلدي آرائي الخاصة.

- فلتسقط الشخصيات!، صاح سيتنيكوف فرحاً بالمناسبة التي تهيأت له كي يعرب عن أفكاره بقوةٍ، بحضور الشخص الذي يتزلف إليه.

- غير أن ماكولي[62] نفسه، أرادت كوكشينا أن تتكلم، ولكن صوت سيتنيكوف دوّى:

- فليسقط ماكولي! هل تدافعين عن هؤلاء النسوة؟

- ليس عن النسوة، بل عن حقوق المرأة التي أقسمت على الدفاع عنها، حتى آخر قطرةٍ من دمي.

- فليسقط!، ولكن سيتنيكوف توقف عن الهتاف، ثم أضاف:

- إنني لا أنكر هذه الحقوق.

- كلا، يُخيل إليّ، أنك من أنصار النزعة السلافية البحت!

- لست منهم، بالرغم من أنني طبعاً...

- كلا، ثم كلا، إنك من أنصار النزعة السلافية، ومن المتمسكين بالتعاليم المتزمتة البالية، لا يعوزك إلا سوط اليد!

فقال بازاروف:

- السوط شيءٌ حسنٌ، ولكننا وصلنا إلى آخر قطرةٍ...

- من ماذا؟!!، قاطعته يفدوكسيا.

- من الشمبانيا، يا يفدوكسيا نيكيتيشنا المبجلة، من الشمبانيا، وليس من دمك.

- لا أستطيع أن أسمع بلا مبالاةٍ أحداً يتهجّم على النساء، واصلت يفدوكسيا كلامها، هذا أمرٌ فظيعٌ، فظيعٌ، فبدلاً من أن تتهجموا عليهن من الأفضل أن تقرؤوا كتاب ميشليه «عن الحبّ»[63]. شيءٌ رائعٌ! أيها السادة، فلنتحدث عن الحبّ، قالت ذلك، وألقت يدها بفتورٍ ورقةً على وسادة الأريكة المدعوكة.

وخيّم صمتٌ فجائيٌّ، ثم قال بازاروف:

- كلا، ما الداعي للكلام عن الحبّ، لقد ذكرت اسم أودينتسوفا... هكذا سميتها، أليس كذلك؟ من هي هذه السيدة النبيلة؟

- لا أروع منها!! قال سيتنيكوف بصريرٍ كالصأصأة.

- سأقدمك لها، ذكيةٌ، غنيةٌ، أرملةٌ، ومن المؤسف أنها غير متطورةٍ بما فيه الكفاية، فمن اللازم لها أن تتعرف بصورةٍ أقرب على عزيزتنا يفدوكسيا، اشرب نخبك، يا (يفدوكسي)[64]!

فلنقرع الكؤوس! - ثم أخذ سيتنيكوف يترنم بالفرنسية:

«Et tok, et tok, et tin-tin-tin!

Et tok et tok, et tin-tin-tin !!»[65]

فقالت كوكشينا:

-أنت عابثٌ لعوبٌ يا (فكتور)[66]

استغرق الفطور وقتاً طويلاً، ولحقت بقنينة الشمبانيا الأولى ثانيةٌ وثالثةٌ، بل ورابعةٌ.. كانت يفدوكسيا تثرثر بلا انقطاعٍ، وكان سيتنيكوف يماشيها في الثرثرة، فقد تحدثا كثيراً عن الزواج، وعما إذا كان تقليداً وهمياً أو جريمةً، وعن الناس الذين يولدون، هل هم متماثلون أم لا؟ وفيمَ يكمن التفرد الشخصي في الواقع؟ وأخيراً احتقنت يفدوكسيا كلياً بما احتسته من نبيذٍ، وأخذت تنقر بأظافرها المسطحة على مفاتيح البيانو المشوش، وشرعت تنشد بصوتٍ مبحوحٍ بعضاً من أغاني الغجر في البداية، ثم موّال سيمورشيف «غرناطة الناعسة»[67]، بينما شدّ سيتنيكوف رأسه بوشاحٍ، ومثّل دور العشيق الولهان، عندما غنت هي كلماتٌ:

-وتلتحم شفتاك بشفتي

-في قبلة حرّى

نفد صبرأركادي، فقال أخيراً بصوتٍ مسموعٍ: «يا سادة، غدا الأمر أشبه بدار المجاذيب».

أما بازاروف الذي كان نادراً ما يضيف كلمةً ساخرةً إلى الحوار، إذ أنه مشغولٌ بالشمبانيا أكثر من غيرها، فقد تثاءب بصوتٍ عالٍ، ونهض ثم خرج مع أركادي دون أن يودّع صاحبة الدار.

هرع سيتنيكوف في أثرهما متسائلاً:

- ماذا؟ ماذا؟، وأخذ يتملقهما، ويتراكض حولهما تارةً من اليمين، وتارةً من الشمال، ألم أقل لكما إنها شخصيةٌ رائعةٌ؟! كثّر الله من أمثالها!! إنها ظاهرةٌ أخلاقيةٌ ساميةٌ في الواقع!!.

- ومؤسسة أبيك، هذه هل هي ظاهرةٌ أخلاقيةٌ ساميةٌ أيضاً؟، سأل بازاروف، وهو يشير بأصبعه إلى الحانة التي مروا قربها في تلك اللحظة.

قهقه سيتنيكوف من جديدٍ بصريرٍ كالصأصأة، كان يخجل كلّ الخجل من منحدره العائلي، وما كان يدري؛ هل يتعيّن عليه أن يعتبر كلمات بازاروف الخشنة المفاجئة إطراءً أم إهانةً.

14

بعد بضعة أيامٍ أقيمت الحفلة الساهرة لدى المتصرف، وكان هاتفي إيليتش «بطل الحفلة» حقاً، فقد أعلن رئيس نبلاء اللواء على رؤوس الأشهاد إنه جاء، في الواقع، احتراماً له، بينما واصل المتصرف «إصدار الأوامر» حتى في الحفلة، مع أنه ظل ساكناً بلا حراكٍ.

أما رقة ماتفي إيليتش في مخاطبة الآخرين، فكانت تضاهي عظمته بلا نقصانٍ. كان يداري الجميع، بعضهم بنأمةٍ من الاشمئزار، وبعضهم الآخر بمسحةٍ من الاحترام، ويحاول جهده أن يبدو أمام السيدات بمظهر (الفارس الفرنسي الحقيقي)[68]، يقهقه دون كللٍ بتلك الضحكة الرتيبة العريضة الرنانة التي تليق بالموظفين الكبار.

طبطب على ظهر أركادي، وناداه بصوتٍ عالٍ «يا بن أختنا العزيز»، وتفضل على بازاروف ذي البزة العتيقة بعض الشيء بنظرةٍ هائمةٍ عابرةٍ، ولكنها متساهلةٌ انبعثت منه عبر وجنته، وبفحيحٍ ترحيبيّ مبهمٍ لم يفهم منه سوى «أنا...» «جداً...»، وقدم إصبعه لسيتنيكوف كي يصافحه، وابتسم له، وهو يشيح عنه في

الوقت ذاته، وقال «مفتون بك»[69] حتى لكوكشينا التي حضرت ترتدي قفازاتٍ قذرةً، ومن دون تنورة الحفلات المنتفخة، غير أنها شكّت شعرها بدبوس طائر الجنة، كان هناك جمهورٌ غفيرٌ من الناس، ولا نقصٌ في عدد الرجال، كان المدنيون قد حوصروا بأغلبهم إلى الجدران، بينما راح العسكريون يرقصون ببالغ الجهد، وخصوصاً واحدٌ منهم، كان قد عاش في باريس ستة أسابيعٍ، فتعلم مختلف الهتافات الفرنسية المتهورة من أمثال «يا للشيطان!» «يا للعجب!» و«ها، ها، يا صغيرتي»[70]، راح يتلفظ هذه الهتافات على أحسن ما يكون، بلهجةٍ باريسيةٍ فاخرةٍ، ولكنه، فيما عدا ذلك، كان يحطم اللغة الفرنسية تحطيماً، أيّ أنه يتكلم باللهجة الفرنسية-الروسية التي يسخر منها الفرنسيون عندما لا يشعرون بحاجةٍ إلى أن يقولوا لنا؛ بأننا نتكلم بلغتهم كما يتكلم الملائكة.

لم يكن أركادي يجيد الرقص، كما نعلم، أما بازاروف، فلم يمارس الرقص مطلقاً، ولذلك انزويا في ركنٍ، فانضم إليهما سيتنيكوف الذي تظاهر بمسحةٍ من السخرية المستنكفة، وأخذ يطلق ملاحظاتٍ جارحةً، ويسلط نظراتٍ وقحةً على ما حواليه، وبدا، وكأنه يتمتع بلذةٍ خالصةٍ، وعلى حين غرّةٍ تبدلت سحنته، فالتفت إلى أركادي، وقال بشيءٍ من الارتباك «وصلت أودينتسوفا».

التفت أركادي، فرأى امرأةً فارعة القوام في بدلةٍ سوداءَ، توقفت عند باب الصالة، أدهشته بروعة قدها الممشوق؛ يداها العاريتان مستقرتان على نحوٍ جميلٍ إلى جانبي خصرها الأهيف، وأغصان الفوشية الخفيفة تتدلى على نحوٍ جميلٍ أيضاً من شعرها اللامع على كتفيها المنحدرتين، وعيناها الفاتحتان تبعثان من تحت جبينها الأبيض البارز بعض الشيء نظراتٍ ثاقبةً هادئةً، هادئةً بالذات، وليس متأملةً، وشفتاها تبتسمان ابتسامةً تكاد لا تلحظ، كان محياها يبث قوةً ما؛ رقيقةً حنوناً.

- هل تعرفها؟، سأل أركادي من سيتنيكوف.

- أعرفها جيداً، أتريد أن أقدمك إليها؟

- حبذا... بعد هذه الرقصة.

تنبه بازاروف هو الآخر إلى أودينتسوفا. فقال:

- ما هذا القد؟! إنها لا تشبه الأخريات.

انتظر سيتنيكوف حتى انتهت الرقصة، فاصطحب أركادي إلى أودينتسوفا، ومن المشكوك فيه أنه كان يعرفها جيداً، فقد تلعثم في أقواله، بينما نظرت هي إليه بشيءٍ من الاستغراب.

إلا أن وجهها اكتسى بمسحةٍ من الترحاب، عندما سمعت لقب أركادي، فسألته عما إذا كان هو ابن نيقولاي بتروفيتش.

- بالضبط.

- رأيت والدك مرتين، وسمعت عنه الكثير، يسرني جداً أن أتعرف عليك، واصلت كلامها.

وفي تلك اللحظة، اقترب منها ضابطٌ، ودعاها لرقصة الكدريل، فوافقت.

- هل ترقصين يا ترى؟، سألها أركادي بإجلالٍ.

- أجل، فلماذا تظنّ بأني لا أرقص؟ أم أني أبدو لك طاعنةً في السن؟

- عفواً، كيف ذلك... ولكن في هذه الحالة اسمحي لي بأن أدعوك لرقصة المازوركا.

ابتسمت أودينتسوفا متسامحةً، وقالت:

- تفضل، وسلطت على أركادي نظرةً، إن لم تكن متعاليةً، فهي شبيهةٌ بنظرات الأخوات المتزوجات إلى إخوانهن الذين لا يزالون في مقتبل العمر.

لم تكن أودينتسوفا أكبر من أركادي بكثيرٍ، فقد دشنت عامها التاسع والعشرين، ولكنه يشعر في حضورها؛ بأنه تلميذٌ أو طالبٌ، وكأنما الفرق في عمريهما أكبر من ذلك بكثيرٍ، اقترب منها ماتفي إيليتش، ومظهره يدل على العظمة، وأقواله تنمّ عن التزلف، فانزوى أركادي جانباً، ولكنه ظل يتطلع إليها، ولم تفارقها نظراته خلال رقصة الكدريل أيضاً، كانت تتكلم بلا تكلفٍ مع مراقصها، مثلما تكلمت لتوّها مع الموظف الكبير، وكانت تميل برأسها وأنظارها بهدوءٍ، وقد ضحكت مرتين بخفوتٍ. كان أنفها كبيراً بعض الشيء، كأنوف جميع الروس تقريباً، ولم يكن لون بشرتها صافياً حد الكمال، ومع ذلك تصور أركادي أنه لم يقابل أبداً مثل هذه المرأة الرائعة، ولم تكن نغمات صوتها لتفارق مسمعه، وحتى طيات بدلتها بدت له على غير ما هي عليه لدى الأخريات، وكانت أوسع وأكثر استقامةً، وكانت حركاتها متناسقةً على نحوٍ خاصٍ، وطبيعيةً في الوقت ذاته.

أحس أركادي بشيءٍ من الوجل في الفؤاد؛ حين تقدّم إلى صاحبته عندما تهادت أول أنغام المازوركا، وعندما أراد أن يتكلم معها، لم يفعل غير أن مسّد شعره بيده دون أن يعثر على كلمةٍ واحدةٍ مناسبةٍ، إلا أن وجله، واضطرابه لم يستمرا طويلاً، فقد انتقلت إليه عدوى الهدوء من أودينتسوفا، ولم يمضِ ربع ساعةٍ،

إلا وصار يتحدث بطلاقةٍ عن أبيه وعمّه وعن الحياة في بطرسبورغ وفي القرية، استمعت إليه أودينتسوفا بأدبٍ وانتباهٍ، وكانت تفتح مروحتها وتغلقها بعض الشيء، كان أركادي يتوقف عن الثرثرة، عندما يدعوها الراقصون للرقص، وبالمناسبة فقد دعاها سيتنيكوف مرتين، كانت تعود، فتجلس من جديد وتلتقط المروحة، وحتى صدرها لم يكن يتنفس أسرع من المعتاد، بينما يواصل أركادي ثرثرته من جديدٍ، وهو مغمُوّر بفرحة وجوده قربها والتحدث إليها، والتطلع إلى عينيها، وإلى جبينها الرائع، وإلى محياها البديع الذي ينم عن وجاهةٍ وذكاءٍ. كانت قليلة الكلام، ولكن معرفتها بالحياة تجلت في كلماتها القليلة، أدرك أركادي من بعض ملاحظات هذه المرأة الشابة؛ أنه تيسرت لها معرفة الكثير والتمعن في أمورٍ جمّة...

- من ذلك الذي كان واقفاً معك قبيل أن رافقك السيد سيتنيكوف إليَّ؟، سألته، فسألها أركادي بدوره:

- هل لاحظته؟ ما أجمله!!، أليس كذلك؟ إنه صديقي بازاروف.

وطفق أركادي يتحدث عن «صديقه».

تحدث عنه بإسهابٍ وإعجابٍ جعلا أودينتسوفا تلتفت إليه، وتسلط عليه نظرةً متفحصةً، في حين كانت المازوركا تقترب من نهايتها، ما أشد أسف أركادي لمفارقة صاحبته: فقد صرف معها زهاء ساعةٍ من أحلى الأوقات!! صحيحٌ أنه كان طوال هذا الوقت يشعر، وكأنها متفضلةٌ عليه، وكأنما ينبغي أن يكون ممتناً لها... إلا أن مثل هذا الشعور لا يثقل على الأفئدة الفتية.

صمتت الموسيقا.

فقالت أودينتسوفا ناهضةً:

- (شكراً)[71]. وعدتني بزيارتي، فاصطحب صديقك معك، وستكون في منتهى الطرافة رؤية شخصٍ يتجاسر على عدم الإيمان بشيءٍ

اقترب المتصرف من أودينتسوفا، فأعلن أن العشاء جاهزٌ، وقدّم لها يده، وقد اكتسى وجهه بمسحةٍ من الاهتمام. التفتت أودينتسوفا، ذاهبةً، لكي تبتسم لأركادي، وتحني له رأسها لآخر مرّةٍ، انحنى هو انحناءةً واطئةً، ولاحقها بنظراته، فكم أعجبه اعتدال قوامها الملفع بلمعٍ رماديٍّ من الحرير الأسود!!.. وأحس باستسلامٍ رهيفٍ يكتنف جوانحه...

- ماذا؟، سأل بازاروف أركادي؛ حالما عاد هذا إليه في الركن، هل تمتعت؟ قال لي أحد النبلاء إن هذه السيدة ‹‹من الصنف المطواع››، بيد أن ذاك النبيل أحمق على ما يبدو، وفي رأيك هل هي ‹‹من الصنف المطواع›› حقاً؟

فأجاب أركادي:

- إنني لا أفهم هذا النعت حقّ الفهم.

- يا للبراءة العذرية!

- إذن، فأنا لا أفهم نبيلك ذاك، أودينتسوفا فاتنةٌ جداً، دون شك، ولكنها تتصرف ببرودٍ وصرامةٍ بحيث...

- في الماء الساكن تختبئ العفاريت، أجابه بازاروف، تقول إنها تتصرف ببرودٍ، ذلك ذوقٌ رفيعٌ. أنت تحب المرطبات، أليس كذلك؟!.

فدمدم أركادي:

- ربما لا يمكنني أن أحكم على ذلك، إنها تريد أن تتعرف عليك، ورجتني أن أصطحبك إليها.

- أتصوّر كيف بالغتَ في الحديث عني!!، ومع ذلك حسناً فعلت، خذني إليها، ولا فرق إذا كانت هي معبودة أهالي اللواء، أو

«متحررةٌ» على شاكلة كوشينا، فإن لديها كتفين، لم أر مثلهما من زمان.

تألّم أكاردي لوقاحة بازاروف، ولكنه لام صديقه كما يحدث غالباً، ليس على الشيء الذي أزعجه فيه... فسأله بهدوءٍ:

- لمَ لا تريد للنساء أن يتمتعن بحرية الفكر؟!

- ذلك، يا أخي؛ لأني لاحظت أن القبيحات وحدهن يفكرن بحريةٍ.

توقف الكلام عند هذا الحد، وغادر الشابان المكان فور انتهاء العشاء، فشيعتهما كوكشينا بضحكةٍ عصبيةٍ حاقدةٍ، ولكن بشيءٍ من الاستحياء، فقد أهينت كرامتها؛ لأن هذا وذاك لم يلتفتا إليها، ظلت في الحفلة آخر الجميع، وفي الساعة الرابعة ليلاً رقصت مع سيتنيكوف المازوركا البولونية على الطريقة الباريسية، وبهذا المشهد الكبير الدلالة اختتمت حفلة المتصرف.

15

في اليوم التالي قال بازاروف لأركادي، وهما يرتقيان سلم الفندق الذي نزلت به أودينتسوفا:

- سنرى إلى أيّ فصيلةٍ من الثدييات تنتمي هذه المرأة، يُخيّل إليّ أن شيئاً ما هنا ليس على ما يرام.

فهتف أركادي:

- إنك تدهشني! كيف؟ كيف يجوز لك، أنت بازاروف، أن تتمسك بتلك الأخلاق المتحجرة التي...

- يا لغرابة أطوارك! قاطعه بازاروف باستهانةٍ، أفلا تعرف أن تعبير «ليس على ما يرام» يعني في لهجتنا، وبالنسبة لنا، «على ما يرام»؟ أيّ أنّ هناك غنيمةٌ ما، أفلست أنت الذي قلت اليوم إنها تزوجت على نحو يثير الاستغراب؟!. بالرغم من أن الزواج من عجوزٍ غنيٍّ ليس، في رأيي، بالأمر الغريب أبداً، بل هو، على العكس، خطوةٌ حكيمةٌ، إنني لا أصدق الأقاويل الشائعة في المدينة، ولكنني أميل إلى الاعتقاد، كما يقول متصرفنا المستنير، بأنها صادقةٌ.

لم يجب أركادي بشيءٍ، وطرق الباب، رافق وصيفٌ شابٌ يرتدي بزة الخدم، كلا الصديقين إلى غرفةٍ واسعةٍ مؤثثةٍ على نحوٍ سيئٍ، كما هو شأن كلّ الغرف في الفنادق الروسية، ولكنها تكاد تغصّ بالزهور، وسرعان ما ظهرت أودينتسوفا نفسها في فستانٍ صباحيٍّ بسيطٍ، بدت أكثر فتوةً في ضوء شمس الربيع، قدّم

أركادي لها بازاروف، ولاحظ بدهشةٍ خفيةٍ أنّ هذا قد ارتبك شيئاً، في حين ظلت أودينتسوفا هادئةً كلياً، مثلما كانت بالأمس، وأحس بازاروف نفسه بأنّه ارتبك، فاكتأب لذلك، وفكر في نفسه: «يا للعجب! ارتعبت من امرأةٍ!» ثم ارتمى على الكرسي بهيئةٍ طليقةٍ ليست أفضل من هيئة سيتنيكوف، وشرع يتكلم مغالياً في عدم التكلف، بينما لم تحوّل أودينتسوفا عنه عينيها الصافيتين.

ولدت آنّا سيرغييفا أودينتسوفا من «سيرغي نيكولايفيتش لوكتيف» المقامر والنصّاب الوسيم المعروف الذي ذاع صيته طوال خمسة عشر عاماً تقريباً في بطرسبورغ وموسكو، وانتهى إلى خسران كلّ شيءٍ في القمار، فاضطر على سكنى القرية، وسرعان ما وافته المنية هناك، فترك ثروةً ضئيلةً جداً لابنتيه: آنا البالغة من العمر عشرين عاماً وكاترينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً. وكانت أمهما، وهي من سلالة الأمراء (خ)، الذي أحاق بهم الإفلاس، وقد توفيت في بطرسبورغ عندما كان زوجها لا يزال في أوج ازدهاره. كانت حالة آنا بعد وفاة أبيها عسيرةً للغاية، فالتربية الممتازة التي تلقتها في بطرسبورغ لم تكن قد أعدتها؛ لتحمل أعباء المعيشة والشؤون المنزلية، ولا لحياة الريف الخاوية، ولم تكن تعرف أحداً على الإطلاق في المنطقة كلها، وما كان بوسعها أن تلتمس النصح من أحدٍ، كان أبوها يتحاشى

الاتصال بالجيران، فقد كان يحتقرهم، وكانوا يحتقرونه كلّ على طريقته الخاصة، إلا أنها لم تفقد رشدها، فاستدعت على الفور خالتها الأميرة أفدوتيا ستيبانوفنا (خ). وهي عجوزٌ شريرةٌ متعجرفةٌ، استأثرت بأفضل الغرف حالما انتقلت إلى دار ابنة أختها، وصارت تدمدم وتتذمر من الصباح إلى المساء، وحتى عندما تتمشى في البستان، تصطحب وصيفها الوحيد القن المتجهم، بعمرته المثلثة وبزته المتهرئة الصفراء الضاربة إلى الخضرة، والمقصبّة بشريطٍ أزرقَ. تحمّلت آنا بصبرٍ كلّ نزوات خالتها، وواظبت على تربية أختها شيئاً فشيئاً، وكادت تستسلم لفكرة الذبول في الريف، إلا أن القدر أعدّ لها مصيراً آخر. فقد لمحها صدفةً شخصٌ ثريٌّ جداً اسمه «أودينتسوف». كان في السادسة والأربعين من العمر، غريب الأطوار منقبض النفس، بديناً ثقيلاً متجهماً، ولكنه لم يكن بليداً ولا شريراً. أغرم بها، وطلب يدها فوافقت على الزواج منه؛ غير أنه عاش معها زهاء ستة أعوامٍ، وقضى نحبه مخلفاً لها كلّ ثروته، قضت آنا سيرغييفنا زهاء عامٍ بعد وفاته دون أن تغادر القرية، ثم سافرت مع أختها إلى الخارج، ولكنها زارت ألمانيا فقط، فانتابها الحنين وعادت لتعيش في قرية نيكولسكويه المحببة إليها، والتي تبعد زهاء أربعين كيلومتراً عن مدينة (...). لديها هناك دارٌ فاخرةٌ مؤثثةٌ على نحوٍ ممتازٍ، وبستانٍ

رائعٍ ذو مشاتلٍ زجاجيةٍ: فالمرحوم أودينتسوف لم يبخل على نفسه بشيءٍ. كانت آنا سيرغييفنا نادراً ما تسافر إلى المدينة؛ لقضاء بعض الأشغال في أغلب الحالات، ولأمدٍ قصيرٍ، ولم يكن الآخرون في اللواء يحبونها، فكانوا يستفظعون زواجها من أودينتسوف يروّجون مختلف الإشاعات عنها، ويزعمون بأنها ساعدت أباها في أحابيله وغشه، وأنها لم تسافر إلى الخارج عبثاً، بل لغرض ستر عواقبَ وخيمةٍ... وكان المتحدثون الغاضبون يضيفون إلى ذلك قائلين: «هل أنتم فاهمون؟»، كانوا يقولون إنها «اجتازت النار والحديد»، وكان المنكت المعروف في اللواء كلّه، يضيف إلى ذلك عادة: «... والأنابيب النحاسية أيضاً»، وكانت كل هذه الأقاويل تبلغ مسامعها، ولكنها لا تعيرها اهتماماً. فهي ذات طبعٍ طليقٍ حازمٍ.

جلست أودينتسوفا متكئةً على مؤخرة المقعد، فوضعت يداً على يد، وهي تستمع إلى بازاروف الذي تحدث كثيراً، خلافاً لعادته، وكان واضحاً أنه يحاول إلهاء محدثته، مما أثار استغراب أركادي من جديدٍ، لم يكن أركادي واثقاً مما إذا كان بازاروف قد بلغ مقصده أم لا، فمن الصعب الحكم؛ حسب تعابير وجه آنا سيرغييفنا، على الانطباعات التي تكونت لديها، إذ إن محياها احتفظ بتعبيرٍ واحدٍ، رقيقٍ بشوشٍ، وومضت عيناها بانتباهٍ هادئٍ

لا يعكر صفوه شيءٌ. كان تصنّع بازاروف في اللحظات الأولى للزيارة قد أثار استياءها، كما تثير الاستياء الرائحة الكريهة أو الصوت الحاد، ولكنها أدركت في الحال أن ذلك بسبب الارتباك، فانفرجت أساريرها، كان شيءٌ واحدٌ فقط يثير نفورها، وهو الابتذال، إلا أنه ما من أحدٍ بوسعه أن يتهم بازاروف بالابتذال.

وتعرّض أركادي في ذلك اليوم للدهشة المرّة تلو الأخرى، فقد كان يتوقع من بازاروف أن يتكلم مع أودينتسوفا، كما يتكلم مع امرأةٍ حصيفةٍ، عن معتقداته وآرائه، فقد أعربت عن رغبتها في الاستماع إلى الشخص الذي «يتجاسر على عدم الإيمان بشيءٍ». ولكن بازاروف، بدلاً من ذلك، صار يتحدث عن الطب والصيدلة وعلم النبات، واتضح أن أودينتسوفا لم تضيّع الوقت سدىً في وحدتها: فقد طالعت طائفةً من الكتب الجيدة، وكانت تتكلم بلغةٍ روسيةٍ سليمةٍ. سارت بالحديث إلى الكلام عن الموسيقى، لكنها لاحظت أن بازاروف لا يعترف بالفن، فعادت بشكلٍ غير ملحوظ إلى علم النبات، مع أن أركادي تهيّأ للكلام عن أهمية الأنغام الشعبية، واستمرت أودينتسوفا على معاملته كما يُعامل الأخ الأصغر، خُيّل إليه أنها تقدّر فيه طيبته، وبساطة الفتوة لا أكثر، استغرق الحديث أكثر من ثلاث ساعاتٍ، وكان متأنياً متنوعاً حيوياً.

نهض الصديقان في آخر الأمر، وودعا آنا سيرغييفنا، فنظرت إليهما برقةٍ وحنانٍ ومدت يدها البيضاء الجميلة إلى أحدهما ثم إلى الآخر، وفكرت قليلاً، ثم قالت بابتسامةٍ طيبةٍ متهيبةٍ:

- إذا كنتما، أيها السيدان، لا تخشيان الملل، فتعالا إليّ في نيكولسكويه.

فهتف أركادي:

- شكراً، يا آنا سيرغييفنا، إني أعتبر ذلك منتهى السعادة...

- وأنت، يا مسيو بازاروف؟

اكتفى بازاروف بانحناءٍ، مما أثار دهشة أركادي للمرة الأخيرة، فقط لاحظ أن وجه صديقه قد احمّر شيئاً.

وقال له في الشارع:

- ماذا؟ ألا تزال على رأيك بخصوص «الصنف المطواع»؟

- من يدري؟! ألا ترى كيف جمدت نفسها؟!، اعترض بازاروف، ولكنه أضاف بعد قليل:

- إنها دوقةٌ متسلطةٌ، لا يعوزها غير حلّةٍ طويلة الأذيال، وتاجٍ على الرأس.

- دوقاتنا لا يتكلمن الروسية بهذه الطلاقة.

- لقد ذاقت الأمرين، يا أخي، وعركت الحياة مثلنا.

- ومع ذلك، فهي في منتهى الروعة، قال أركادي، فواصل بازاروف كلامه:

- يا لَه من بدنٍ موفورٍ!!، لا بد من نقله إلى طاولة التشريح على الفور.

- كفاك هذراً يا يفغيني! بالله عليك! بلغ السيل الزّبى.

- لا تزعل، أيها الفتى الرقيق، قلنا لك جادين، إنها من صنفٍ ممتازٍ. وينبغي أن نذهب إليها.

- متى؟

- بعد غدٍ مثلاً، فما الذي نفعله هنا؟ هل نظل نحتسي الشمبانيا مع كوكشينا؟ أم نستمع إلى قريبك الموظف الليبرالي الكبير؟.. سنشد الرحال بعد غدٍ، ثم إن ضيعة أبي المتواضعة ليست بعيدةً من هناك. نيكولسكويه تقع على طريق (...)، أليس كذلك؟

- بلى

- (حسناً)[72]، لا داعي للتواني، فلا يتوانى إلا الحمقى والمتظاهرون بالذكاء، أقول لك: إنه بدنٌ موفورٌ!

وبعد ثلاثة أيام، شد الصديقان الرحال إلى نيكولسكويه، كان النهار وضّاءً معتدل الحرارة. وكانت خيول البريد المتخمة، تنهب الطريق بوئامٍ، وهي تلوح دون عناء بذيولها الملتوية المتشابكة.

أخذ أركادي يتطلع إلى الطريق، ويبتسم دون سببٍ واضحٍ، إلا أن بازاروف هتف فجأةً:

- يمكنك أن تهنئني، فاليوم، الثاني والعشرين من يونيو، عيد ملاكي الحارس، وسنرى إلى أيّ حدٍّ هو مهتمٌّ بي، ثم أضاف بصوتٍ خفيضٍ:

- في البيت ينتظرونني اليوم... فلينتظروا، ما أهمية ذلك؟!

16

تقع الضيعة التي تقطنها آنا سيرغييفنا على هضبةٍ مكشوفةٍ معتدلة الانحدار، على مسافةٍ غير بعيدةٍ عن كنيسةٍ حجريةٍ صفراءَ ذات سقفٍ أخضرَ وأعمدةٍ بيضاءَ ومدخلٍ مزيّنٍ في أعلاه برسمٍ جداريّ[73] يمثل «قيام المسيح» على الطراز «الإيطالي»، وكانت رائعةً على الخصوص؛ الملامح المستديرة في صورة محاربٍ أسمرَ يرتدي خوذةً فولاذيةً، ويتصدر الرسم منبطحاً، ووراء الكنيسة امتدت القرية بصفين من أكواخٍ، تبدو على بعضها

مداخنُ فوق سطوحٍ من القش، وكانت دار أودينتسوفا مبنيةٌ بنفس طراز الكنيسة، وهو الطراز المعروف عندنا باسم الإسكندري، وهي مطليةٌ كذلك بدهانٍ أصفرَ، ولها سطحٌ أخضرُ، وأعمدةٌ بيضاءُ وقوصرةٌ مثلثةٌ ذات شعارٍ، وقد أنشأ معماري اللواء كلتا البنايتين؛ بموافقة المرحوم أودينستوف الذي لم يكن يطيق التجديدات الفارغة الاعتباطية على حدّ تعبيره، وتحاذي الدار من كلا الجانبين أشجار البستان القديم المعتمة، ويؤدي إلى مدخلها ممرٌّ من أشجار الشوح المقلّمة.

استقبل صاحبينا في الدهليز وصيفان فارعا القامة، أسرع أحدهما على الفور؛ لاستدعاء كبير الوصفاء، كان رجلاً بديناً في بزةٍ رسميةٍ سوداءَ. حضر في الحال، ورافق الضيفين على السلم المفروش بالسجاد إلى غرفةٍ خاصةٍ فيها سريران مع جميع مستلزمات الزينة والغسيل، ويبدو أن النظام سائدٌ في الدار: فكلّ شيءٍ نظيفٌ، وفي كلّ الأنحاء تفوح روائحُ مقبولةٌ، كما في صالات الاستقبال في الوزارات.

قال كبير الوصفاء:

- آنا سيرغييفنا ترجوكما أن تشرفاها بعد نصفٍ ساعةٍ. فهل من أوامرَ أو توجيهاتٍ؟

- ليست لدينا أوامرُ، أيها المحترم، سوى قدحٍ من الفودكا إذا أفضلت.

- سمعاً وطاعةً يا سيدي.، قال كبير الوصفاء بشيءٍ من الاستغراب، وذهب مصرّاً بجزمته، فعلّق بازاروف:

- يا له من أسلوبٍ راقٍ مهيبٍ! أليس كذلك؟ إنها دوقةٌ حقاً!!

فاعترض أركادي:

- أية دوقةٍ، هي إذا كانت قد دعت لضيافتها؛ منذ اللقاء الأول أرستقراطيين شديدي البأس مثلنا؟!

- وخصوصاً أنا؛ طبيب المستقبل، ابن الطبيب، وحفيد القندلفت... أنت تعلم أني حفيد قندلفت، أليس كذلك؟

- مثل سبيرانسكي[74]، أضاف بازاروف بعد فترة صمتٍ قصيرةٍ، وقد زمّ شفتيه...، ومع ذلك فقد دللت هذه السيدة نفسها، ما أشد دلالها! أفلا يتعيّن علينا أن نرتدي بزةً رسميةً؟!

اكتفى أركادي بأن هزّ كتفيه... ولكنه هو الآخر، أحسّ ببعض الارتباك.

بعد نصف ساعةٍ دخل بازاروف وأركادي غرفة الاستقبال، وهي غرفةٌ واسعةٌ عالية السقف مؤثثةٌ بأثاثٍ فاخرٍ تماماً، ولكن

من دون ذوقٍ رفيعٍ؛ الموبيليا الثقيلة الثمينة مصفوفةٌ على طول الجدران المزينة بورقٍ بنيٍّ موشحٍ بلونٍ ذهبيّ، كان المرحوم أودينتسوف قد اقتناها في موسكو بواسطة صديقه، ووكيله تاجر الخمور، وفوق الأريكة الوسطى عُلقت صورة رجلٍ أشقرَ مترهلٍ، بدا وكأنه يسلط على الضيفين نظرةً غير وديةٍ، فهمس بازاروف لأركادي: «إنه هو على ما يبدو»، ثم أضاف، وقد انكمش أنفه: «ماذا؟ هل نهرب؟»، إلا أنّ ربة البيت دخلت في تلك اللحظة، كانت ترتدي فستاناً خفيفاً، وكان شعرها المصفف على نحوٍ أملسَ وراء أذنيها قد أضفى مسحةً عذريةً على محيّاها الطري الصافي.

بدأت كلامها قائلة:

- أشكركما على الوفاء بالوعد، أرجو أن تقيما في ضيافتي، الأحوال هنا، ليست سيئةً في الواقع. وسأعرفكما على أختي، إنها تجيد العزف على البيانو، وهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لك يا مسيو بازاروف، ولكنك، يا مسيو كيرسانوف، تحبّ الموسيقى كما يخيل إليّ، وبالإضافة إلى أختي تعيش عندي خالتي العجوز، وفي بعض الأحيان يزورنا أحد الجيران، فنلعب الورق، ذلك هو مجتمعنا كلّه، أمّا الآن، فلْنجلس.

تلفظت أودينتسوفا هذه الخطبة القصيرة بمنتهى الوضوح، كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلبٍ، ثم وجّهت كلامها إلى أركادي، واتّضح أن أمها كانت تعرف أم أركادي، بل، وكانت حافظة سرّ حبها لنيكولاي بتروفيتش، وتكلّم أركادي بحماسٍ عن المرحومة والدته، بينما انشغل بازاروف في تصفح الألبومات، وفكر في نفسه: «كم صرت وديعاً»!!.

هرعت إلى غرفة الاستقبال كلبةٌ سلوقيةٌ جميلةٌ بطوقٍ أزرقَ، أخذت تداعب الأرضية بمخالبها. وعلى أثرها دخلت فتاةٌ في حوالي الثامنة عشرة؛ ذات شعرٍ أسودَ، ومحيّا أسمرَ لطيفٍ مستديرٍ بعض الشيء، وعينين سوداوين واسعتين، كانت تحمل سلةً مليئةً بالزهور، فأومأت إليها أودينتسوفا بحركةٍ من رأسها وقالت:

- هذه أختي كاتيا.

سلمت كاتيا على الحاضرين، ثم جلست قرب أختها، وأخذت تصفف الزهور، بينما اقتربت الكلبة السلوقية، واسمها فيفي، من الضيفين، وهي تهز ذيلها، ودست أنفها البارد في يد أحدهما، ثم في يد الآخر، وسألت أودينتسوفا أختها:

- هل جمعت كلّ هذه الزهور بنفسك؟

فأجابت كاتيا:

- أجل.

- وخالتنا، هل ستأتي لتناول الشاي؟

- ستأتي.

عندما تتكلم كاتيا تبتسم على نحوٍ رقيقٍ للغاية، باستحياءٍ وصراحةٍ، وتنظر من الأسفل إلى الأعلى بشكلٍ طروبٍ، وبشيءٍ من الصرامة، كلّ شيءٍ فيها لا يزال غضاً نضيراً: صوتها والزغب على وجهها كله، واليدان الورديتان براحتيهما المائلتين إلى بياضٍ، والكتفان المضغوطتان بالكاد... كانت مصطبغةً بالاحمرار دوماً، وكانت تتنفس بصورةٍ متلاحقةٍ سريعةٍ.

التفتت أودينتسوفا إلى بازاروف قائلة:

- إنك، يا يفغيني فاسيليفيتش، تقلّب الصور بحكم اللياقة، لا أكثر، فهي لا تثير اهتمامك، الأفضل أن تقترب منا، فلنتجادل في أمرٍ ما.

اقترب بازاروف وسأل:

- فيم نتجادل، يا سيدتي؟

- في كلّ ما تريد، وأحذرك بأني أحب الجدل كثيراً.

- أنت؟

- أجل، هل يدهشك ذلك؟ لماذا؟

- لأن طباعك، إن صحّ حكمي، هادئةٌ باردةٌ، في حين يتطلب الجدل ولعاً وانهماكاً.

- كيف استطعت أن تخبر طباعي بهذه السرعة؟ إنني عنيدةٌ ضعيفة الصبر، ومن الأفضل أن تستفسر من كاتيا عن ذلك، هذا أولاً، ثم إني أنساق للولع بسهولةٍ كبيرةٍ.

نظر بازاروف إلى آنا سيرغييفنا وقال:

- ربما، فأنت أعرف، وما دمت تريدين المجادلة، فتفضلي، كنت أتطلع إلى مناظر سويسرا السكسونية في ألبومك، ولكنك قلت لي إن هذا لا يمكن أن يثير اهتمامي، ولقد قلت ذلك؛ لأنك لا تتصورين وجود شعورٍ فنيٍّ عندي، وبالفعل فهو غير موجودٍ، لكن هذه المناظر يمكن أن تثير اهتمامي من الناحية الجيولوجية، من حيث تكوّن الجبال، مثلاً.

- عفواً، إنك كجيولوجي، ستلجأ على الأغلب إلى الكتب، إلى المؤلفات المتخصصة، وليس إلى الرسوم.

- الرسم يبين لي بوضوحٍ وإيجازٍ ما يتحدث عنه الكتاب في عشر صفحاتٍ كاملةٍ.

لزمت آنا سيرغييفنا الصمت لحظةً، ثم قالت بعد أن استندت بكوعها إلى الطاولة، فقربت وجهها من بازاروف:

- هل يعقل أنه ليست لديك ذرةٌ من الشعور الفني، فكيف تستطيع الاستغناء عنه؟

- اسمحي لي أن أسألك: ما الحاجة إليه؟

- من أجل إجادة معرفة الناس، ودراستهم على الأقل.

ضحك بازاروف بشيءٍ من السخرية وقال:

- توجد لهذا الغرض، أولاً، الخبرة الحياتية، وثانياً، أفيدك بأن لا جدوى من دراسة كلّ فردٍ على حدة؛ البشر متشابهون جسدياً وروحياً، ولدى كلّ منّا دماغٌ وطحالٌ وقلبٌ ورئتان، وكلّها مبنيةٌ بشكلٍ واحدٍ، وحتى ما يسمى بالسجايا الخلقية، إنما هي واحدةٌ لدى الجميع: فالفروق الطفيفة لا تعني شيئاً، يكفي وجود نموذجٍ بشريٍّ واحدٍ؛ لكي يمكن الحكم على الآخرين جميعاً، فالبشر كأشجار الغاب، وما من عالمٍ نباتيٍّ يمارس دراسة كلّ شجرةٍ على حدة.

رفعت كاتيا التي كانت تصفّ زهرةً إلى زهرةٍ دون استعجالٍ أنظارها متحيرةً إلى بازاروف فاحتقن وجهها حمرةً حتى الأذنين، عندما اصطدمت نظرتها بنظرته السريعة المستهينة، أما آنا سيرغييفنا، فقد هزت رأسها وقالت:

- إذا كانوا كأشجار الغاب، فذلك يعني، برأيك، أنه لا فرق بين البليد والذكي، ولا فرق بين الإنسان الخيّر والشرير، أليس كذلك؟

- كلا، يوجد فرقٌ، كما بين المريض والمعافى، فالرئتان لدى المصاب بالتدرن ليستا بمثل حالتهما لدينا، مع أنهما مبنيتان بشكلٍ واحدٍ، ونحن نعرف على وجه التقريب بواعث العلل الجسدية، أما العلل الأخلاقية، فسببها التربية الفاسدة، ومختلف التفاهات التي تتحشى بها أدمغة البشر منذ الصغر؛ سببها باختصارٍ، حالة المجتمع البشعة، فصححوا أوضاع المجتمع، ولن تظل هناك عللٌ.

كان بازاروف يتحدّث بشكلٍ بدا معه، وكأنه يفكر في الوقت ذاته على النحو التالي: «لا فرق بين ما إذا كنت تصدقينني أم لا!». مسّد فوديه بحركةٍ بطيئةٍ من أصابعه الطويلة، بينما راحت عيناه تجولان في الأنحاء. فقالت آنا سيرغييفنا:

- تتصوّر أنه لن يبقى هناك بلداءٌ ولا أشرارٌ بعد تصحيح المجتمع؟

- لدى توافر النظام الاجتماعي الصائب سيكون سواءٌ، على أقلّ تقديرٍ، ما إذا كان الإنسان بليداً أو ذكياً، شريراً أو خيراً.

- أجل، فهمت. سيكون لدى الجميع نفس الطحال المتماثل.

- بالضبط يا سيدتي الجليلة.

فالتفتت أودينتسوفا إلى أركادي متسائلةً:

- وأنت، يا أركادي نيكولايفيتش، ما هو رأيك؟

فأجاب أركادي:

- إنني متفقٌ مع يفغيني.

نظرت إليه كاتيا عابسةً، فقالت أودينتسوفا:

- إنكما تثيران دهشتي، أيها السيدان، ولكننا سنواصل الحديث فيما بعد، فإن خالتي قادمةٌ؛ لتناول الشاي، وعلينا أن نرأف بحالها.

دخلت الأميرة (خ).، خالة آنا سيرغييفنا، وهي امرأةٌ قميئةٌ نحيلةٌ ذات وجهٍ صغيرٍ منقبضٍ، وعينين شريرتين جامدتين تطلان من تحت شعرٍ مستعارٍ أشيبَ. انحنت للضيفين بالكاد، وارتمت على المقعد المخملي الواسع الذي لا يحقّ لأحدٍ غيرها أن يجلس

عليه، وضعت كاتيا تكيةً تحت قدمي العجوز، فلم تشكرها على ذلك، بل ولم تنظر إليها؛ سوى أنها حركت يدها تحت الوشاح الأصفر الذي يغطي جسمها النحيف كله تقريباً، الأميرة تحب اللون الأصفر، فحتى قلنسوتها مزينةٌ بأشرطةٍ صفراءَ صارخةٍ.

سألتها أودينتسوفا رافعةً صوتها أكثر من المعتاد:

- كيف قضيت ليلتك يا خالتي؟

- هذه الكلبة هنا أيضاً، دمدمت العجوز بدلاً من الجواب، وعندما لاحظت أن فيفي قامت بخطوتين مترددتين نحوها صاحت بها:

- اغربي! اغربي!

استدعت كاتيا فيفي، وفتحت لها الباب:

فاندفعت فيفي إلى الخارج فرحةً على أمل أن أحداً سيذهب للتنزه معها، ولكنها عندما ظلت وحدها وراء الباب؛ أخذت تخدشه وتزعق بخفوتٍ. عبست الأميرة، وهمت كاتيا بالخروج...

فقالت أودينتسوفا:

- أظنّ أنّ الشاي جاهزٌ، أليس كذلك؟ أيها السيدان، هيا، يا خالتي تفضلي لتناول الشاي.

نهضت الأميرة صامتةً من مقعدها، وخرجت في مقدمة الجميع من غرفة الاستقبال، فتوجه الآخرون على أثرها إلى غرفة الطعام، أزاح وصيفٌ صغيرٌ مقعداً محفوفاً بالوسائد عن المائدة، وقد أثار صريفاً، هذا المقعد مخصصٌ هو الآخر للأميرة، فارتمت عليه. صبت كاتيا الشاي، وقدمت إليها أولاً قدحاً مزخرفاً بشعارٍ ملونٍ، وصبت العجوز لنفسها شيئاً من العسل في القدح (فكانت ترى أن احتساء الشاي بالسكر خطيئةٌ، وأنه يكلف غالياً، مع أنها لم تنفق كوبيكاً واحداً على أي شيءٍ)، ثم سألت على حين غرّةٍ بصوتٍ أبحّ، وبلهجةٍ ملتويةٍ:

- ماذا كتب الأمير إيفان؟

لم يجبها أحُد، وسرعان ما أدرك بازاروف وأركادي أن أصحاب البيت لا يعيرونها اهتماماً بالرغم من احترامهم الظاهري لها، وفكر بازاروف في نفسه: «يحتفظون بها من أجل المظاهر؛ لأنها من سلالة الأمراء»... اقترحت آنا سيرغييفنا بعد تناول الشاي الذهاب للنزهة، إلا أن المطر بدأ يتساقط رذاذاً، فعاد الجميع إلى غرفة الاستقبال ما عدا الأميرة، وصل الجار المحبّ للعب الورق. واسمه «بورفيري بلاتونيتش»، وهو شخصٌ بدينٌ أشيبُ قصير القامة، مرحٌ ومؤدبٌ للغاية. كانت آنا سيرغييفنا تتحدث مع بازاروف أكثر من غيره، فسألته عما إذا كان راغباً في أن ينازلها

في لعبة البرفرانس العتيقة، فوافق بازاروف، معلناً أنه يتعين عليه أن يتعود على قتل الفراغ بلعب الورق؛ كي يستعد مسبقاً للوظيفة التي تنتظره كطبيبٍ في أحد الأقضية، فقالت آنا سيرغييفنا:

- ولكن حذار، فأنا وبورفيري بلاتونيتش سنحطمك، ثم أضافت قائلة:

- أما أنت يا كاتيا، فاعزفي شيئاً لأركادي نيكولايفيتش، إذ أنه يهوى الموسيقا، وسوف نستمع إليها نحن أيضاً.

اقتربت كاتيا من البيانو على مضضٍ، وتبعها أركادي على مضضٍ أيضاً، مع أنه يهوى الموسيقا فعلاً، فقد خُيّل إليه أن أودينتسوفا تبعده عنها، بينما اجتاح فؤاده، كما هو شأن أيّ شابٍّ في عمره، ذلك الشعور الغامض المتلهف الشبيه ببوادر الحبّ، رفعت كاتيا غطاء البيانو، وسألت بصوتٍ خفيضٍ دون أن تنظر إلى أركادي:

- ما الذي تريد أن أعزف؟

فأجاب أركادي بلا مبالاةٍ:

- ما تشائين.

فكررت كاتيا السؤال دون أن تبدل جلستها:

- أية موسيقا تفضل؟

فأجاب أركادي بنفس اللهجة:

- الكلاسيكية.

- هل تحبّ «موزارت»؟

- أحبّ موزارت.

أحضرت كاتيا نوطات السوناتا الفانطازية لموزارت، وعزفتها على نحوٍ ممتازٍ، وإن بشيءٍ من الصرامة والجفاف، جلست باستقامةٍ وبلا حراكٍ دون أن تحيد بنظرها عن النوطات، وقد ضمت شفتيها بشدةٍ، وفي آخر السوناتا احتقن وجهها، وتدلت خصلةٌ صغيرةٌ من شعرها المتهدل على حاجبها القاتم.

أعجب أركادي خصوصاً بالقسم الأخير من السوناتا الذي تظهر فيه بغتةً، وفق فرحة النغم المنطلق الآسرة، انفعالات الكآبة المريرة، المأساوية تقريباً... إلا أنّ أفكار أركادي التي أثارتها أنغام موزارت لم تكن تحوم حول كاتيا، فعندما نظر إليها لم تخطر على باله غير فكرةٍ واحدةٍ: «هذه الفتاة تعزف على نحوٍ لا بأس به، وهي نفسها لا بأس بها».

بعد أن انتهت كاتيا من عزف السوناتا، سألت دون أن ترفع يدها عن مفاتيح البيانو: «كفاية»؟.

فقال أركادي إنه لا يجرأ على تكليفها المزيد، وشرع يتكلم معها عن موزارت، وسألها عما إذا كانت قد اختارت هذه السوناتا، بنفسها أم أنّ أحداً ما نصحها بذلك، إلا أن كاتيا كانت تجيبه باختصارٍ. فقد انطوت على نفسها وتقوقعت، عندما تنتابها تلك الحالة يكتسي وجهها بمسحةٍ من العناد الذي يقرب من البلادة. وما كانت؛ لتخرج إلى السطح من قوقعتها إلا بعد فترةٍ. لم تكن خجولةً، لكنها كانت مرتابةً، وعلى شيءٍ من الوجل من أختها التي ربتها، وما كانت هذه الأخيرة تعرف بذلك طبعاً، وانتهى الأمر بأركادي إلى أن استدعى فيفي التي عادت، وأخذ يمسد رأسها بابتسامة ملاطفةٍ بحكم اللياقة لا أكثر، وراحت كاتيا تصفف أزهارها من جديدٍ.

أما بازاروف فكان يتعرّض لجزاءٍ تلو الآخر. كانت آنا سيرغييفنا تلعب الورق بمهارةٍ، وكان بورفيري بلاتونيش ماهراً أيضاً، لذا ظل بازاروف هو المغلوب ولو قليلاً، إلا أن ذلك لم يكن بالأمر المريح له تماماً، وخلال العشاء عادت آنا سيرغييفنا إلى الكلام عن علم النبات، حيث قالت لبازاروف:

- فلنذهب للنزهة غداً منذ الصباح. أريد أن أعرف منك التسميات اللاتينية للنباتات البرية وخواصها.

- وما حاجتك إلى التسميات اللاتينية؟، سأل بازاروف فأجابته هي:

- ينبغي أن يسود النظام كلّ شيءٍ.

عندما خلا أركادي بصديقه في الغرفة المخصصة لهما هتف قائلاً:

- ما أروعها!

- أجل. آنا سيرغييفنا امرأةٌ ذكيةٌ. رأت ما رأت.

- بأيّ معنىً تقول ذلك، يا يفغيني فاسيليفيتش؟

- بمعنىً طيبٍ، يا عزيزي! وأنا واثقٌ من أنها تتصرف بضيعتها على أفضل ما يكون، إلا أن المعجزة ليست هي، وإنما أختها.

- كيف؟ تلك السمراء؟

- أجل، تلك السمراء، فهي النضارة التي لم يمسها أحدٌ، إنها الخوف والصمت، وكل ما يرغب المرء فيه، وهي تستحق

الاهتمام. يمكنك أن تصنع منها ما تشاء، أما تلك فهي امرأةٌ محنكةٌ.

لم يرد أركادي على بازاروف بشيءٍ. رقد كلاهما، وفي ذهنه أفكاره الخاصة.

كانت آنا سيرغييفنا في ذلك المساء تفكر هي الأخرى بضيفيها، أعجبها بازاروف بعدم تصنعه وبحدّة أحكامه، وجدت فيه شيئاً جديداً لم تصادفه من قبل، في حين لا يعوزها الفضول.

كانت آنا سيرغييفنا كائناً غريب الأطوار لدرجةٍ كبيرةٍ، فهي لا تؤمن بأية خرافاتٍ، وليس لديها أية معتقداتٍ راسخةٍ، لكنها لا تتنازل لأحدٍ ولا تتبع أحداً، لقد رأت الكثير، وأولعت بالكثير، ولكن ما من شيءٍ يرضيها بالتمام والكمال، بل ومن المستبعد أنها كانت راغبةً فيما يرضيها بالتمام والكمال، كان ذهنها حاداً ولامبالياً في الوقت ذاته: لم تكن شكوكها؛ لتخمد أبداً إلى حد النسيان، كما لم تكن؛ لتتأجج أبداً إلى حد القلق، ولو لم تكن ثريةً مستقلةً؛ لربما انخرطت في المعركة، وتذوقت طعم الهوى... لكنها كانت تعيش حياتها بيسرٍ، رغم الضجر الذي ينتابها أحياناً، وهي تواصل توديع أيامها الواحد تلو الآخر دون استعجالٍ، ودون تهيج تقريباً. كانت الألوان المستبشرة تلوح أحياناً أمام ناظريها، لكنها تشعر بالارتياح؛ لتلاشي تلك الألوان، ولا تحس بالأسف لغيابها.

كان تصورها يتجاوز حتى حدود ما تعتبره مبادئ الأخلاق المعتادة أمراً مسموحٌ به، لكن دمها، حتى في تلك الحالة ظل يجري باستقرارٍ كالسابق في بدنها الهادئ القويم الجذاب، ويصادف أنها، عندما تخرج من الحمام المعطر دافئةً رقيقةً كلّ الرقة، تأخذ في تأمل تفاهات الحياة، وكدحها وشرورها... فيمتلئ فؤادها ببسالةٍ مفاجئةٍ، ويطفح بالمطافح النبيلة، ولكن آنا سيرغيينا تنقبض وتتأوّه، حالما يهب نسيمٌ من النافذة المواربة، فتكاد تزعل، ولا تعود بحاجةٍ في تلك اللحظة إلا إلى شيءٍ واحدٍ، هو أن لا يهب هذا النسيم الدنيء عليها.

كانت تريد شيئاً ما، شأنها شأن جميع النساء اللواتي لم يتسنَ لهن أن يتذوقن طعم الحب، ولكنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط، وفي الواقع فهي لم تكن تريد شيئاً، بالرغم من توهمها بأنها تريد كلّ شيءٍ. كانت بالكاد تطيق المرحوم أودينتسوف، فقد تزوجت منه لمصلحةٍ، بالرغم من أنها ربما لم تكن توافق، أن تصبح زوجةً له، لو لم تعتبره إنساناً طيباً، فولّد لديها ذلك اشمئزازاً خفياً من جميع الرجال، فلم تعد تتصورهم إلا بشكل كائناتٍ ثقيلةٍ ذاويةٍ متحشفةٍ، وملحاحةٍ عاجزةٍ، ذات مرّةٍ صادفت في مكانٍ ما في الخارج فتىً سويدياً، بمحيا تكسوه مسحةٌ من الفروسية، وعينين

زرقاوين طاهرتين تظللهما جبهةٌ عريضةٌ، ترك فيها هذا الفتى أثراً شديداً، ولكن ذلك لم يمنعها من العودة إلى روسيا.

فكرت آنا سيرغييفنا في نفسها: «يا لَهذا الطبيب من شخصٍ غريب الأطوار!»، وهي مضطجعةٌ في فراشها الرائع، على وسائد مخرمةٍ تحت لحافٍ حريريٍّ خفيفٍ، لقد ورثت عن أبيها بعضاً من ميله إلى الأبهة، وهي تكنّ حبّاً جمّاً لأبيها الخاطئ والطيب في الوقت ذاته، وكان هو متيماً بها، يمزح معها بودٍّ كالند للند، ويثق بها تمام الثقة، ويلتمس النصح عندها؛ لكنها لا تتذكر أمها.

وفكرت من جديدٍ: «يا لَهذا الطبيب من شخصٍ غريب الأطوار!»، تمددت وابتسمت، وأشبكت يديها تحت رأسها، ثم جابت بنظراتها على عجلٍ زهاء صفحتين من روايةٍ فرنسيةٍ تافهةٍ، وسقط الكتاب من يديها، وغفت نظيفةً باردةً في بياضات نظيفةٍ عاطرةٍ.

في صباح اليوم التالي، توجهت آنا سيرغييفنا مع بازاروف فور انتهاء الفطور؛ لدراسة النباتات البرية، ولم تعد إلا قبيل الغداء، لم يترك أركادي المكان، فصرف زهاء ساعةٍ مع كاتيا دون أن يشعر بالملل، وقد أعربت هي نفسها عن استعدادها لتكرار سوناتا الأمس، لكن قلبه انقبض في الحال عندما عادت أودينتسوفا

أخيراً، وعندما رآها... كانت تسير في البستان بخطواتٍ متعبةٍ بعض الشيء، وكانت وجنتاها متوردتين، وعيناها تلمعان بأسطع من المعتاد تحت قبعة القش المستديرة، كانت أصابعها تداعب عوداً رفيعاً لزهرةٍ بريةٍ، وقد هبطت طرحتها الخفيفة على مرفقيها، وتدلت الأشرطة الرمادية العريضة من القبعة، فلامست صدرها، كان بازاروف يسير خلفها، واثقاً من نفسه، وبلا اعتناءٍ، كما هي عادته دوماً، إلا أن ملامح وجهه لم تعجب أركادي بالرغم من مرحها، بل وحتى رقتها، توجه بازاروف إلى غرفته بعد أن دمدم: «مرحباً!».

أما أودينتسوفا، فقد شدت على يد أركادي شاردة البال، ومرت إزاءه هي الأخرى.

ففكر أركادي: «لماذا قال لي مرحباً، أفلم نلتق اليوم»؟![75]

17

الزمن، وهذا أمرٌ معروفٌ؛ يطير كالطير أحياناً، ويزحف كالسلحفاة أحياناً أخرى، إلا أن المرء يغدو على أحسن حالٍ عندما لا يلاحظ كيف يمر الزمن: سريعاً أو بطيئاً. على هذه الحال بالذات

صرف أركادي وبازاروف لدى أودينتسوفا زهاء خمسة عشر يوماً.

وساعد على ذلك، ما اعتادت عليه هي من نظامٍ في دارها وحياتها؛ كانت متمسكةً بهذا النظام تمسكاً صارماً، وكانت تحمل الآخرين على الانصياع له، فكلّ شيءٍ في غضون اليوم الواحد يجري في أوقاته المحددة؛ في تمام الثامنة صباحاً يلتئم الجميع لاحتساء الشاي.

وفي الفترة بين الشاي والفطور يفعل كلّ ما يشاء، وكانت ربة البيت نفسها، آنذاك تسوي الأمور مع الوكيل، فلاحو الضيعة يعملون على أساس الجزية، ومع كبير الوصفاء وكبيرة مدبرات المنزل، وقبيل الغداء يلتئم الجميع من جديدٍ؛ لتجاذب أطراف الحديث أو للمطالعة، وكانت فترة المساء تخصص للتنزه ولعب الورق والموسيقى، وفي الساعة العاشرة والنصف تتوجه آنا سيرغييفنا إلى مضجعها؛ لتنام بعد أن تصدر أوامرها بخصوص يوم غدٍ. لم يرق لبازاروف تنظيم الحياة اليومية الرتيب هذا، والمتسم بشيءٍ من المراسيم الاحتفالية. كان يقول: «كأن المرء يتدحرج على سكّة حديدٍ»، ويعتبر الخدم ببزاتهم الخاصة والوصفاء الخاشعين بمثابة إهانةٍ لمشاعره الديمقراطية. ويرى أنه ما دامت الأمور تسير على هذا الشكل، فينبغي تناول الغداء على

الطريقة الإنجليزية إذن: ببزاتٍ رسميةٍ وربطات عنقٍ بيضاءَ، وقد تداول هذا الموضوع مرّةً مع آنا سيرغييفنا التي اعتادت أن يعرض كلّ شخصٍ أمامها آراءه بلا مواربةٍ، استمعت إليه ثم قالت:

- أنت محقٌ من وجهة نظرك، ولربما أنني، في هذه الحالة، أبدو إقطاعيةً حقاً؛ لكنه لا يجوز العيش في الريف على نحوٍ مشوشٍ، فالضجر سيقتلنا آنذاك، وواصلت العمل على هواها. كان بازاروف يتذمّر من ذلك؛ لكن السبب الذي جعله وأركادي يعيشان بيسرٍ وسهولةٍ عند أودينتسوفا هو بالذات؛ أن كلّ شيءٍ في دارها «كأنما يتدحرجان على سكة حديد»، ومع ذلك حدث تغيرٌ لدى كلا الشابين، منذ الأيام الأولى لمكوثهما في نيكولسكويه، فإن بازاروف الذي مالت إليه آنا سيرغييفنا، كما هو واضحٌ، بالرغم من ندرة اتفاقها معه، صار يشعر بقلقٍ لم يكن يعرف له أثراً في السابق: غدا سريع الانزعاج، قليل الرغبة في الكلام، وأخذ ينظر شزراً، ولا يقرّ له قرار، كما لو أنه يشعر بوخزٍ خفيّ، أما أركادي الذي خُيل إليه نهائياً؛ بأنه وقع في غرام أودينستوفا، فقد أخذ ينساق للكآبة الهادئة، ومع ذلك لم تمنعه هذه الكآبة من التقرب إلى كاتيا، بل وساعدته على أن يقيم معها علاقاتٍ وديةً رقيقةً. فكّر أركادي في نفسه: «تلك لا تقدرني! فليكن!. أما هذا الكائن الطيب

فلا يرفضني»، وتذوق قلبه من جديدٍ حلاوة الأحاسيس المتسامحة، كانت كاتيا تخمن؛ بأنه يبحث عن تهدئةٍ للنفس بمعاشرتها، فلم تحرمه، ولم تحرم نفسها من اللذة العذرية الناجمة عن الصداقة المشوبة بشيءٍ من الخجل، والموشحة بشيءٍ من الثقة، وما كان الاثنان ليحدّثا بعضهما البعض بحضور آنا سيرغييفنا: كانت كاتيا تنكمش دوماً؛ بتأثير نظرة أختها الثاقبة، أما أركادي فما كان باستطاعته، شأنه شأن أيّ محبٍّ، أن يلتفت إلى أيّ كائنٍ آخر بحضور محبوبته، ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح إلا لوجوده مع كاتيا وحدها، كان يدرك بأنه عاجزٌ عن إثارة اهتمام أودينتسوفا، ولذا فهو يعاني من الوجل والحيرة، عندما يبقى معها وحيداً، ولم تكن هي الأخرى تعرف ماذا ينبغي أن تقول له: فهو لا يزال يافعاً جداً بالنسبة لها، أما مع كاتيا، فعلى العكس كان أركادي يشعر، وكأنه مع واحدٍ من أهله، وكان متساهلاً معها، فلا يعيقها عن الإعراب عن الانطباعات التي تخلّفها في نفسها الموسيقى، ومطالعة الكتب والأشعار، وغير ذلك من التفاهات، دون أن يلاحظ أو يدرك أن هذه التفاهات تشغل باله هو أيضاً، ولم تكن كاتيا، من ناحيتها؛ لتعيقه عن الاستسلام للأحزان. كان أركادي يرتاح لكاتيا، وكانت أودينتسوفا ترتاح لبازاروف، ولذلك جرت العادة على أن يلتقي الأربعة؛ لأمدٍ قصيرٍ، ثم يفترقوا، فيتوجه كلّ

زوجٍ إلى جهته، وخصوصاً أثناء النزهات. كاتيا مغرمةٌ بالطبيعة، وأركادي يحب الطبيعة أيضاً، بالرغم من أنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك. كانت أودينتسوفا، شأنها في ذلك شأن بازاروف، غير مولعةٍ بالطبيعة، ولم تمرّ الفرقة المستمرة تقريباً بين صاحبينا، دون أن تترك أثرها: فقد أخذت علاقتهما تتغير.

كفّ بازاروف عن التحدث إلى أركادي بشأن أودينتسوفا، بل وكفّ حتى عن نقد «عاداتها الأرستقراطية»، ولكنه ظل كالسابق يمتدح كاتيا، سوى أنه نصح بتهدئة الميول العاطفي لديها، إلا أن مدائحه كانت مستعجلةً، ونصائحه جافةٌ، وعلى العموم صار يتحدث مع أركادي أقل بكثيرٍ من السابق.. لقد بدا، وكأنه يتحاشاه، ويخجل منه...

لاحظ أركادي ذلك كلّه، ولكنه احتفظ بملاحظاته لنفسه.

كان السبب الفعلي؛ لهذا «التغير الطارئ» هو الشعور الذي أوحته أودينتسوفا لبازاروف، فصار يعذبه، ويخرجه عن طوره، في حين كان بازاروف مستعداً للتخلي عنه في الحال بقهقهةٍ مستهينةٍ وشتائمَ وقحةٍ، لو أن أحداً ما لمّح مجرّد تلميحٍ إلى احتمال وقوع ما يعتمل في دخيلته، كان بازاروف من أشد هواة النساء والجمال الأنثوي، ولكنه نعت الحبّ المثالي، أوالرومانسي على حدّ تعبيره، بالهراء، وبالحماقة التي لا تغتفر، واعتبر المشاعر

الفروسية بمثابة القبح أو المرض، وأعرب أكثر من مرّةٍ عن استغرابه من عدم زجّ «توغينبورغ[76]» مع جميع شعراء الفروسية العاطفيين في دار المجاذيب، كان يقول: «إذا أعجبتك امرأةٌ، فحاول أن تحصل منها على مبتغاك، وإذا لم يكن ممكناً، فلا داعي لشيءٍ، حوّل وجهك عنها: فالكون غير متوقفٍ عليها». لقد راقت له أودينتسوفا، وكانت الإشاعات المنتشرة عنها، وطلاقة أفكارها واستقلالها، وميلها دون شكٍّ إليه، كلّ ذلك كان؛ لصالحه حسب الظاهر؛ لكنه سرعان ما أدرك بأنه «لن يحصل منها على مبتغاه»، وبأنه لا يمتلك القوى الكافية، وياَلَدهشته!!، لتحويل وجهه عنها، كان دمه يفور حالما يتذكرها. وكان بوسعه أن يكبح دمه بسهولة، لكن شيئاً آخر اجتاحه، شيئاً ما كان يتوقعه أبداً، شيئاً كان يسخر هو منه دائماً، مما أهان كبرياءه أشد إهانةٍ، وصار في أحاديثه مع آنا سيرغييفنا يعرب بأكثر من السابق عن احتقاره اللامبالي؛ لكل ما هو رومانسي، ولكنه عندما يخلو بنفسه يشتاط غضباً؛ لوجود الرومانسي في دخيلته هو، وعند ذاك يتوجه إلى الغابة، ويجوبها بخطواتٍ واسعةٍ محطماً الأغصان التي تصادفه، ومسلطاً اللوم بصوتٍ خافتٍ على أودنتسوفا وعلى نفسه، أو يرتقي بيدر العشب المجفف في العنبر، ثم يغلق عينيه بعناءٍ؛ ليرغم نفسه على النوم، الأمر الذي لا يتيسر له على الدوام بالطبع، وعلى حين

غرّةٍ يُخيّل إليه أن هاتين العينين الذكيتين ستحدقان في عينيه برقةٍ، أجل برقةٍ... وعند ذاك ينتابه الدوار، وينسى نفسه للحظةٍ إلى أن يثور الحنق فيه من جديدٍ.

كان يلوم نفسه على مختلف أنواع الأفكار «الشائنة»، كما لو أن الشيطان هو الذي أغواه، ويخيّل إليه أحياناً أن تغيراً يطرأ على أودينتسوفا أيضاً، وأن شيئاً ما متميزاً صار يبدو على ملامح وجهها، لربما... ولكنه آنذاك كان يضرب الأرض برجله عادةً، أو يصرّ على أسنانه ويهدد نفسه بقبضته.

والحال، فإن بازاروف لم يكن على خطأٍ تماماً، لقد أدهش أودينتسوفا، وشغل بالها، فصارت تفكر فيه كثيراً، لم تكن تشعر بالملل في غيابه، ولم تكن تتوق إليه، لكن ظهوره ينعشها على الفور، وهي تنفرد به برغبةٍ، وتتحدث إليه برغبةٍ؛ حتى عندما يغيظها أو ينال من ذوقها، ومن عاداتها الرشيقة، كانت كأنما تريد أن تختبره، وتختبر نفسها.

ذات مرّةٍ، أعلن بصوتٍ متجهّمٍ، وعلى نحوٍ مباغتٍ، أثناء تجوله معها في البستان، أنه ينوي السفر قريباً إلى أبيه في القرية... شحب لونها، وكأنما تعرض قلبها لوخزةٍ؛ وخزةٌ حادةٌ أثارت دهشتها، وجعلتها فيما بعد تفكر؛ لأمدٍ طويلٍ فيما يعنيه ذلك، وما كان بازاروف؛ ليعلن لها عن رحيله بغية اختبارها،

ومعرفة ما يمكن أن يؤول إليه ذلك: فهو لم يلجأ إلى الكذب أبداً، إذ أنه تقابل في صباح ذلك اليوم مع خادمه السابق تيموفييتش الذي أصبح وكيلاً لأبيه، وهو عجوزٌ ضئيلٌ محنكٌ ورشيقٌ بشعره الأصفر الباهت، ووجهه المتورد المسفوع، وعينيه المنكمشتين المنطويتين على دمعتين دقيقتين، فعلى حين غرّةٍ مَثَل أمام بازاروف تيموفييتش هذا بقفطانه القصير من الجوخ السميك الرمادي المائل إلى الزرقة، وجزمته المطلية بالقطران، وهو متمنطقٌ بحزامٍ جلديٍّ مقطوع الطرفين، هتف بازاروف قائلاً:

- هيا، مرحباً يا شيخ!

- مرحباً يا سيدي يفغيني فاسيليفيتش، أجاب العجوز، وابتسم منشرحاً، فاكتسى وجهه على الفور بالتجاعيد والغضون.

- لِمَ جئت؟ أرسلوك لاستدعائي، أليس كذلك؟

- معذرةً يا سيدي، كيف يجوز ذلك؟، تمتم تيموفييتش، وقد ذكر الوصية الصارمة التي تلقاها من سيده الأب قبيل رحيله، كنت متوجهاً إلى المدينة لأداء بعض الشؤون، فسمعت بوجود حضرتكم، ولذا عرّجت في طريقي، لأنظر إلى طلعتكم البهية... فكيف لي أن أقلقكم؟!

- لا تكذب، قاطعه بازاروف، فهل يمرّ الطريق إلى المدينة من هنا؟

انكمش تيموفييتش، ولم يحر جواباً.

- كيف حال والدي؟ هل هو بصحةٍ جيدةٍ؟

- الحمد لله، يا سيدي.

- ووالدتي؟

- إيرينا فلاسيفنا كذلك، والحمد لله.

- لا بد أنهما ينتظرانني، أليس كذلك؟

مال العجوز برأسه الضئيل جانباً، وقال:

- آه، يا يفغيني فاسيليفيتش، كيف لا ينتظران؟! الله شاهدٌ على ما أقوله. ينفطر القلب ألماً عندما أنظر إلى والديكم.

- كفى، كفى، لا تبالغ، قل لهما بأني سأحضر قريباً.

- سمعاً وطاعة، يا سيدي، أجاب تيموفييتش وتنفس الصعداء.

خرج من الدار، وهو يرتدي عمرته، ويشدها على رأسه بكلتا يديه، صعد إلى عربته الخفيفة المزرية التي ركنها عند البوابة، ثم أسرع بها خبباً، ولكن ليس باتجاه المدينة.

في مساء ذلك اليوم، كانت أودينتسوفا جالسةً في غرفتها مع بازاروف، بينما راح أركادي يجوب القاعة منصتاً إلى عزف كاتيا، وقبعت الأميرة في غرفتها في الطابق العلوي، فهي على العموم لا تطيق الضيوف، وخصوصاً هذين «الوقحين الجديدين» كما وصفتهما. اعتادت أن تجلس منتفخة الأوداج في سائر غرف المنزل، ولكنها عندما تختلي في غرفتها، تنفجر أحياناً أمام وصيفتها بشتائمَ مقذعةٍ، بحيث تهتز قلنسوتها على رأسها مع شعرها المستعار من جراء الانفعال، وكانت أودينتسوفا على علمٍ بذلك.

بدأت كلامها متسائلةً:

- كيف عزمت على السفر دون أن تفي بوعدك؟

انتفض بازاروف:

- أيّ وعدٍ يا سيدتي؟

- هل نسيت؟ لقد أردت أن تقدم لي بضعة دروسٍ في الكيمياء.

- لا حيلة في الأمر! والدي ينتظرني، ولا يجوز أن أتأخر أكثر مما تأخرت، بالمناسبة يمكنك أن تقرأي كتاب «مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف (بيلوز وفريمي)[77] فهو كتابٌ جيدٌ بلغةٍ واضحةٍ، وستجدين فيه كل ما تحتاجين إليه.

- أفلا تتذكر، أنك أكدت لي أن الكتاب لا يمكن أن يعوض عن... نسيت تعبيرك، ولكنك تعرف ما أريد أن أقول... هل تتذكر؟

- لا حيلة في الأمر يا سيدتي!، كرر بازاروف.

فقالت أودينتسوفا بصوتٍ أوطأ:

- ما الداعي للسفر؟

ألقى عليها بنظرةٍ، ومالت هي برأسها إلى مؤخرة المقعد، وصلبت يديها العاريتين حتى المرفقين على صدرها، بدت شاحبةً في ضوء المصباح الوحيد المغطى بأباجورٍ من قماشٍ مخرمٍ، وكان فستانٌ أبيضُ فضفاضٌ يلفعها كلياً بطياته الناعمة، وبالكاد بدا طرفا رجليها المتصالبين أيضاً.

أجابها بازاروف بسؤالٍ: وما الداعي للبقاء؟

التفتت أودينتسوفا:

- كيف؟ أفلست مسروراً عندي؟! أم أنك تظن؛ بأنه لن يأسف عليك أحدٌ هنا؟

- أنا واثقٌ من ذلك.

صمتت أودينتسوفا قليلاً، ثم قالت:

- عبثاً تفكر هكذا، وبالمناسبة أنا لا أصدقك، فليس بإمكانك أن تقول ذلك بجدٍّ، ظل بازاروف جالساً بلا حراكٍ، لماذا الصمت، يا يفغيني فاسيليفيتش؟

- ما الذي يمكنني أن أقوله لك؟ لا داعي للتأسف على الناس عموماً، وعليّ خصوصاً.

- لماذا؟

- أنا شخصٌ مستقيمٌ موحشٌ، ولا أجيد الكلام.

- إنك تنشد المديح يا يفغيني فاسيليفيتش.

- ليس ذلك من عاداتي، أفلا تعلمين أن التمتع بالجانب الجميل من الحياة، ذلك الجانب الذي تعتزين به أنت، ليس في مقدوري؟

أخذت أودينتسوفا تمضغ طرف منديلها اليدوي، ثم قالت:

- فكّر ما شاء لك، أما أنا، فسأشعر بالضجر عندما تسافر.

فقال بازاروف:

- سيظل أركادي عندكم.

هزت أودينتسوفا كتفيها، وكررت من جديدٍ:

- سأشعر بالضجر.

- على كلّ حالٍ لن تضجري لأمدٍ طويلٍ.

- لماذا تفترض ذلك؟

- لأنك قلت لي إن الضجر لا ينتابك، إلا عندما يصيب الخلل النظام لديكم، وقد بنيت حياتك على نحوٍ صائبٍ لا خلل فيه، بحيث لن يبقى فيها مجالٌ لا للضجر، ولا للسأم... بل ولا؛ لأية مشاعرَ مريرةٍ.

- هل صحيح ما تقول؟ هل بنيت حياتي على نحوٍ صائبٍ حقاً؟

- كيف لا؟! الساعة، مثلاً، ستدق العاشرة بعد لحظاتٍ، وأنا أعرف مسبقاً أنك ستطردينني.

- كلا، لن أطردك، يا يفغيني فاسيليفيتش، بوسعك أن تبقى، افتح هذه النافذة... فقد ضاقت أنفاسي شيئاً.

نهض بازاروف، ودفع النافذة، فانفتحت مدويةً على مصراعيها... لم يكن يتوقع أنها ستنفتح بهذه السهولة، ثم إن يديه ترتعشان، أطلت على الغرفة، ليلةٌ ناعمةٌ حالكةٌ بسماءٍ سوداءَ تقريباً، وأشجارٍ ينبعث منها حفيفٌ خفيفٌ، ونسيمٌ طلقٌ عليلٌ تفوح منه رائحةٌ طريةٌ.

فقالت أودينتسوفا:

- اسحب الستارة، واجلس، أريد أن أثرثر معك قبيل رحيلك، حدثني قليلاً عن شخصك، فأنت لا تتكلم عن نفسك أبداً.

- أحاول، يا آنا سيرغييفنا، أن أتحدث معك عن أشياءٍ نافعةٍ.

- أنت في منتهى التواضع... ولكن بودي أن أعرف شيئاً عنك، عن أسرتك، عن والدك الذي تتركنا من أجله.

ففكر بازاروف: «لماذا تقول مثل هذا الكلام؟»، ثم نطق بصوتٍ مسموعٍ:

- ليس في ذلك ما يسرّ أبداً، وخصوصاً بالنسبة لك، فنحن من سواد البشر...

- أما أنا، فأرستقراطيةٌ برأيك، أليس كذلك؟

رفع بازاروف بصره إليها، وقال بحدةٍ فيها شيءٌ من المبالغة:

- بلى.

ضحكت بسخريةٍ، وقالت:

- يُخيّل إليّ أنك لا تعرفني إلا قليلاً، لاسيما وأنك تؤكد أن الناس جميعاً متشابهون، ولا داعي لدراستهم، سوف أقصّ عليك قصة حياتي كاملةً في وقتٍ ما... ولكن حدثني عن حياتك أولاً.

فقال بازاروف:

- إنني لا أعرفك إلا قليلاً، ربما أنت على حقّ، ولعل كلّ إنسان لغزٌ في الواقع، فلو تناولناك أنت مثلاً، إنك تشعرين بالغربة في المجتمع، وهو يثقل عليك، ومع ذلك دعوت طالبين؛ ليسكنا عندك حيناً من الوقت، ثم لماذا تقيمين في الريف، أنت التي تتحلين بالحصافة والجمال؟

- كيف؟ ماذا قلت؟ أنا أتحلى... بالجمال؟

سألت أودينتسوفا منتعشةً، فعبس بازاروف، ثم قال:

- لا فرق، أردت أن أقول إني لا أفهم جيداً لماذا تقيمين في الريف؟

- إنك لا تفهم... ولكنك تفسر ذلك لنفسك بشكلٍ ما، أليس كذلك؟

- أجل... يُخيّل إليّ أنك باقيةٌ طوال الوقت في مكانٍ واحدٍ؛ لأنك دللت نفسك، ولأنك تحبين أسباب الراحة حباً جماً، ولا تبالين بأيّ شيءٍ آخرَ.

ضحكت أودينتسوفا من جديدٍ:

- أنت لا تريد قطعاً أن تصدق؛ بأني يمكن أن أولع؟...

فنظر إليها بازاروف عابساً:

- بحبّ الاستطلاع، ربما. ولكن ليس بشيءٍ آخرَ.

- حقاً؟ ها أنا أفهم لماذا تآلفنا، إن الطيور على أشكالها تقع.

- تآلفنا...، دمدم بازاروف بصوتٍ متكومٍ.

- آه! لقد نسيت بأنك تنوي السفر.

نهض بازاروف، كان المصباح ينور بخفوتٍ وسط الغرفة المنعزلة العاطرة التي اكتنفها الظلام بعض الشيء، وكانت طراوة الليل المستنيرة تتسرب عبر الستارة التي تتموج بين الفنية والفنية، ويتهادى الهمس الليلي السحري، لم تحرك أودينتسوفا ساكناً، لكن اضطراباً خفياً أخذ يدبّ فيها تدريجياً... وانتقل هذا الاضطراب بالتدريج إلى بازاروف الذي أدرك أخيراً، أنه اختلى بامرأةٍ شابةٍ رائعةٍ... سألت متباطئةً:

- إلى أين أنت؟

لم يحر جواباً، وارتمى على الكرسي، فواصلت كلامها بنفس الصوت دون أن تحيد ببصرها عن النافذة:

- أنت تعتبرني إنسانةٌ هادئةٌ منعمةٌ مدللةٌ، بينما أنا واثقةٌ من أنني في منتهى التعاسة.

- التعاسة! ما سببها؟ هل تستحق تلك الأقاويل الدنيئة، أن تعيريها أدنى اهتمام؟

عبست أودينتسوفا، وأحزنها أن بازاروف فهمها على هذا النحو فقالت:

- هذه الأقاويل عاجزةٌ حتى عن إثارة الضحك، يا يفغيني فاسيليفيتش، وأنا أربأ بنفسي عن أن أجعلها تقلقني، إنني تعيسةٌ؛ لأنني... لست راغبةً في العيش، أنت تنظر إليّ بارتيابٍ، وتفكر أن التي تتكلم معك أرستقراطيةٌ غارقةٌ في الدانتيلا والثياب الفاخرة، وجالسةٌ على مقعدٍ مخمليّ، لا أنكر إني أهوى ما وصفته بأسباب الراحة، ومع ذلك لا أرغب كثيراً في العيش، حاول أن توفّق بين هذين الضدين كما يحلو لك، ولكن ذلك كلّه في نظرك، رومانسيةٌ.

فهزّ بازاروف رأسه، وقال:

- إنك إنسانةٌ حرّةٌ ثريةٌ معافاةٌ، فما الذي يعوزك؟ وماذا تريدين بعد؟

فكررت أودينتسوفا قولها، وتنهّدت:

- ماذا أريد! أنا مرهقةٌ للغاية، ولقد شخت، حتى خُيّل إليّ أنني أعيش من زمانٍ بعيدٍ جداً، أجل، لقد شخت، أضافت، وهي تسحب بهدوءٍ أطراف الطرحة، فتغطي بها يديها العاريتين.

تقابلت عيناها مع عيني بازاروف، فاحمرّ محياها بعض الشيء:

- خلفّت الكثير من الذكريات: الحياة في بطرسبورغ، والثراء، ثم الفقر، ثم وفاة أبي، والزواج، ثم الرحلة إلى الخارج... الذكريات كثيرةٌ، ولكن لا قيمة لها، وأمامي طريقٌ طويلٌ، طويلٌ للغاية، بينما ليس لديّ هدفٌ... ولذا فأنا لست راغبةً في السير.

- هل خابت آمالك إلى هذه الدرجة؟، سألها بازاروف، فأجابته متمهلةً:

- كلا، ولكني لست قانعةً، يُخيّل إليّ لو أني استطعت أن أتعلق بشيءٍ ما تعلقاً شديداً...

فقاطعها بازاروف:

- بودّك أن تحبي، لكنك لا تستطيعين. وهذا هو مبعوث تعاستك.

انشغلت أودينتسوفا بتفقد ردني طرحتها، ثم تساءلت:

- ألا أستطيع أن أحب؟

- أمرٌ مستبعدٌ، ولكن عبثاً وصفت حالتك بالتعاسة، على العكس، فالذي يحدث له ذلك يستحق الشفقة على الأكثر.

- من تعني؟

- الذي يحب.

- ومن أين لك أن تعرف؟

- بالسماع، أجاب بازاروف حانقاً، وفكّر في نفسه: «إنك تتغنجين. إنك ضجرةٌ، وتتحرشين بي لعدم انشغالك بشيءٍ، بينما أنا...»، وكاد قلبه يتفطر حقاً، فقال، وقد مال بجسمه كلّه إلى الأمام، وهو يتلاعب بأهداب المقعد:

- ثم إنك متشددةٌ جداً، على ما أعتقد.

- ربما، في رأيي: إما كلّ شيءٍ، وإما لا شيء. حياةٌ بحياةٍ، فإذا استأثرت بحياتي، هبني حياتك، وعند ذاك لن يكون هناك مجالٌ للأسف، ولن يكون هناك خطة رجعةٍ. وإلا فلا داعي لشيءٍ.

فقال بازاروف:

- حقاً، هذا شرطٌ مشروعٌ. لكن ما يدهشني هو أنك حتى الآن... لم تعثري على ما ترغبين.

- وهل تظن أن من السهل الاستسلام كلياً لأيّ شيءٍ مهما كان؟

- ليس ذلك بالأمر السهل، إذا أخذ المرء يتأمل، وينتظر، بل ويقيّم نفسه بنفسه، أيّ يعتز بها، أما الاستسلام من دون تفكيرٍ، فهو في منتهى البساطة.

- كيف لا يعتز المرء بنفسه؟ فإذا لم تكن لي أية قيمةٍ فمن، يا ترى، بحاجةٍ إلى إخلاصي؟!!

- ليس من شأني، بل من شأن الإنسان الآخر، أن يقدر قيمتي، الأمر الرئيسي، هو إجادة الاستسلام.

مالت أودينتوسفا إلى الأمام قليلاً، فابتعد ظهرها عن مؤخرة المقعد، وقالت:

- إنك تتكلم، وكأنما قد جربت ذلك كلّه.

- أقول هذا الكلام للمناسبة فقط، فأنت تعرفين، يا آنا سيرغييفنا، أن ذلك كله ليس من اختصاصي.

- ولكن بوسعك أن تستسلم، أليس كذلك؟

- لا أدري. لا أريد التباهي.

لم تقل أودينتسوفا شيئاً، فلزم بازاروف الصمت.

تهادت إليهما أصوات البيانو من غرفة الاستقبال، فقالت أودينتسوفا:

- ما الذي جعل كاتيا تعزف في هذا الوقت المتأخر؟!

فنهض بازاروف، وقال:

- أجل، الوقت متأخرٌ بالفعل، وقد حان موعد نومك.

- تمهّل، ما الداعي للعجلة؟... أريد أن أقول لك كلمةً واحدةً.

- ما هي؟

- تمهّل، قالت أودينتسوفا همساً.

تجمدت نظرتها على بازاروف، وكأنما هي تتفحصه باهتمامٍ، جاب الغرفة بعض الشيء، ثم اقترب منها على حين غرّةٍ، وقال باستعجالٍ «وداعاً»، وشدّ على يدها بقوةٍ، كادت تجعلها تصرخ، ثم خرج، رفعت أصابعها المتلاصقة إلى شفتيها، ونفخت عليها، ثم نهضت من المقعد بقفزةٍ على الفور، وتوجهت إلى الباب بخطواتٍ سريعةٍ، وكأنما تريد إعادة بازاروف... دخلت إلى الغرفة في تلك اللحظة وصيفةٌ تحمل دورقاً زجاجياً على صينيةٍ فضيةٍ، توقفت أودينتسوفا، وأشارت على الوصيفة بالانصراف، ثم جلست مجدداً، وغرقت في التفكير من جديدٍ، انفكت ضفيرتها، وتهدلت كأفعى سوداء على كتفها. ظل المصباح ينير غرفتها لأمدٍ طويلٍ، وظلت هي لأمدٍ طويلٍ، بلا حراكٍ سوى أنها كانت تمسد بأصابعها بين الفينة والفينة ذراعيها اللتين مسهما برد الليل.

أما بازاروف، فقد عاد بعد زهاء ساعتين إلى غرفة نومه منكمشاً متجهماً وقد تبللت جزمته بالندى. وجد أركادي جالساً قرب الطاولة، وبيده كتابٌ، وسترته مشدودة الأزرار حتى العنق، فسأله بازاروف، وكأنما في صوته نأمة زعلٍ:

- ألم تنم بعد؟

فقال أركادي دون أن يجيب على سؤاله:

- جلست طويلاً اليوم، مع آنا سيرغييفنا.

- أجل، جلست معها عندما كنتما، أنت وكاتيا، تعزفان على البيانو.

- أنا لم أعزف...، أراد أركادي أن يواصل كلامه، ولكنه لزم الصمت، لقد أحسّ بأن الدموع ستنهمر من عينيه، ولكنه لا يريد البكاء أمام صديقه الساخر.

18

عندما حضرت أودينتسوفا؛ لتناول الشاي قبيل الإفطار في صباح اليوم التالي، ظل بازاروف جالساً لأمدٍ طويلٍ، وقد انحنى على قدحه، ثم نظر إليها فجأةً... فالتفتت إليه، وكأنما تلقت دفعةً منه. خيّل إليه أن وجهها قد شحب شيئاً خلال الليل، وسرعان ما انزوت في غرفتها، حتى حان موعد الإفطار. كان الطقس ممطراً منذ الصباح، ولم يكن بالإمكان التنزه، فالتأم الجمع كلّه في غرفة الاستقبال، أحضر أركادي آخر عددٍ من إحدى المجلات، وأخذ يقرأه بصوتٍ مسموعٍ، فبدت الدهشة على وجه الأميرة، كما هي العادة، في بادئ الأمر، وكأنما اقترف هو جريرةً معيبةً، ثم ركزت أنظارها الحاقدة عليه، ولكنه لم يعبأ بها.

فقالت آنا سيرغييفنا لبازاروف:

- فلنذهب إلى مكتبي... يا يفغيني فاسيليفيتش... أريد أن أسألك شيئاً.... لقد ذكرت أمس اسم كتابٍ...

نهضت، وتوجهت إلى الباب، فتلفتت الأميرة حواليها، ولسان حالها يقول: «انظروا، انظروا، ما أشد دهشتي!»، ثم ركزت

أنظارها من جديدٍ على أركادي، ولكنه رفع صوته، وتبادل النظرات مع كاتيا الجالسة قربه، وواصل القراءة.

أدركت أودينتسوفا مكتبها بخطواتٍ سريعةٍ، وتبعها بازاروف بخفةٍ، دون أن يرفع بصره، ولكنه كان يتلقف بمسمعه الحفيف الرقيق المنبعث من الفستان الحريري السائر أمامه، جلست أودينتسوفا في نفس المقعد الذي جلست عليه بالأمس، وشغل بازاروف المكان الذي شغله بالأمس.

فقالت هي بعد فترة صمتٍ قصيرةٍ:

- ما اسم ذلك الكتاب؟

فأجاب بازاروف:

- («مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي)[78]، ويمكن أن أوصيك كذلك بدراسة (المنهج الأولي في الفيزياء التجريبية)، من تأليف «غانو»[79]، فالرسوم في هذا الكتاب أكثر وضوحاً، وعلى العموم فإن هذا المنهج...

مدت أودينتسوفا يدها، وقالت:

- معذرةً، يا يفغيني فاسيليفيتش، فقد دعوتك إلى هنا؛ ليس بقصد مناقشة المناهج الدراسية، بودي أن نستأنف حديث البارحة،

فقد انصرفت على نحوٍ مفاجئٍ... هل يزعجك ذلك؟

- أنا في خدمتك، يا آنا سيرغييفنا، ولكن عمّ تحدثنا البارحة يا ترى؟!

صوبت أودينتسوفا نظرةً منحرفةً إلى بازاروف:

- يخيّل إليّ، أننا تحدثنا عن السعادة. حدثتك أنا عن نفسي، وبالمناسبة فقد ذكر كلمة «السعادة». فأخبرني ما الذي يجعلنا، حتى عندما نتمتع بالموسيقا، مثلاً، أو بأمسيةٍ جيدةٍ، أو بحديثٍ مع أناسٍ طيبين، نتصوّر ذلك كلّه مجرد إشارةٍ إلى سعادةٍ لا حدود لها؛ سعادةٌ موجودةٌ في مكانٍ ما، غير السعادة الفعلية، أيّ سعادةٍ التي نتمتع بها نحن؟! ما السبب في ذلك؟! أم أنك ربما لا تشعر بشيءٍ من هذا القبيل؟

فاعترض بازاروف:

- أنت تعرفين المثل القائل «الحال أفضل في ديار الآخرين»، ثم إنك نفسك قلت البارحة بأنك غير قانعةٍ، أما أنا فلا تتبادر إلى ذهني مثل هذه الأفكار.

- ربما تبدو لك مضحكةً؟

- كلا، ولكني لا أفكر بها.

ـ حقاً؟ أتعلم لأني توّاقةٌ جداً إلى معرفة ما تفكر به أنت؟

ـ كيف؟ إنني لا أفهمك.

ـ تصوّر، لقد أردت أن نتصارح من زمانٍ، ولا داعي لأن أقول لك إنك لست من الناس العاديين. فأنت تعرف ذلك بنفسك؛ أنت لا تزال في طور الشباب، والحياة كلّها أمامك، فإلامَ تعدّ نفسك؟ وما هو المستقبل الذي ينتظرك؟! أقصد: أيّ هدفٍ تنوي تحقيقه؟ وإلى أين تسير؟ وما الذي تنطوي عليه جوانحك؟! وباختصارٍ: فمن أنت؟ وما هي هويتك؟!

ـ أنك تثيرين دهشتي، يا آنا سيرغييفنا. أنت تعلمين؛ بأني أدرس العلوم الطبيعية، أمّا من أنا؟!..

ـ أجل، من أنت؟

ـ لقد أخبرتك بأني سأكون طبيباً في أحد الأقضية.

ندت عن آنا سيرغييفنا حركةٌ غير متأنيةٍ:

ـ لماذا تقول ذلك؟ إنك لا تؤمن بما تقول، بوسع أركادي أن يجيبني على هذا النحو، وليس أنت،

ـ فهل أركادي أسوأ!..

- كفاك، هل يجوز أن تقتنع بمثل هذا العمل المتواضع؟! أولست أنت الذي أكدت دوماً أن الطبّ غير موجودٍ بالنسبة لك؟! كيف لك، بأنفتك المعروفة، أن تصبح طبيباً في أحد الأقضية؟! إنك تجيبني على هذا النحو؛ لكي تتخلص مني؛ لأنك لا تثق بي قيد شعرة، ولكن هل تعلم، يا يفغيني فاسيليفيتش، بأنني يمكن أن أفهمك: كنت بنفسي فقيرةً أنوفا مثلك، ولربما اجتزت نفس المحن التي تجتازها؟

- كلّ ذلك شيءٌ طيبٌ، يا آنا سيرغييفنا، ولكن معذرةً... فأنا على العموم لم أعتد الحديث عن نفسي، ثم إن الهوة بينك وبيني سحيقةٌ...

- أية هوّةٍ؟! ستقول لي من جديدٍ إني أرستقراطية، أليس كذلك؟ كفاك، يا يفغيني فاسيليفيتش! أظن أني أثبت لك...

- ثم، قاطعها بازاروف، ثم ما الداعي للكلام والتفكير في مستقبلٍ لا يعتمد علينا بقسمه الأعظم؟ فإذا حدث، وعملت شيئاً مفيداً، فذلك أمرٌ رائعٌ، وإذا لم يحدث فسأكون، على الأقل، قانعاً بأني لم أثرثر عبثاً قبل الأوان.

- أنت تنعت الحديث الودي بالثرثرة... أم أنك ربما لا تعتبرني، كامرأةٍ، إنساناً يستحق ثقتك؟ فأنت تحتقرنا جميعاً.

- إنني، يا آنا سيرغييفنا، لا أحتقرك بالذات، وأنت تعرفين ذلك.

- كلا، لا أعرف شيئاً... ولكن فلنفترض أني أفهم عدم رغبتك في الكلام عن عملك المرتقب، بيد أن ما يعتمل فيك الآن...

- يعتمل! فهل أنا دولةٌ أو مجتمعٌ؟! على كل حالٍ ليس ذلك أمراً هاماً، ثم هل يستطيع المرء أن يتكلّم بصوتٍ جهوريّ دوماً عن كلّ ما «يعتمل» فيه؟

- أنا لا أفهم ما المانع في الإفصاح عن كلّ ما يشعر به المرء.

- وهل تستطيعين ذلك أنت؟، سألها بازاروف، فأجابت بعد ترددٍ قصيرٍ:

- أستطيع.

طأطأ بازاروف رأسه، وقال:

- أنت أسعد مني.

فألقت عليه آنا سيرغييفنا نظرةً متسائلةً، وواصلت كلامها:

- فليكن، ومع ذلك هناك شيءٌ يقول لي إننا لم نتآلف عبثاً، وإننا سنكون صديقين حميمين، أنا واثقةٌ من أن توترك هذا، إن صحّ القول، أو تحفظك سيتلاشى في آخر المطاف.

- هل لاحظت لديّ تحفظاً... أو توتراً على حدّ تعبيرك؟

- أجل.

نهض بازاروف، واقترب من النافذة.

- وتريدين أن تعرفي سبب هذا التحفظ، وتعرفي ما يعتمل في دخيلتي؟

- أجل، كررت أودينتسوفا بخوفٍ غامضٍ.

- ألن تزعلي مني؟

- كلا.

- كلا؟، كان بازاروف واقفاً وظهره إليها، فاعلمي إذن إني أحبك بغباءٍ وجنونٍ... هذا ما فعلته بي.

مدت أودينتسوفا يديها إلى الأمام، بينما التصقت جبهة بازاروف بزجاج النافذة، كان يتنفس بعسرٍ، وكان بدنه يرتعش كلياً على ما يبدو، لكن ما انتابه لم يكن هو ارتعاشة وجل الشباب، ولا الذعر اللذيذ من الاعتراف الأول، لقد نبض في دخيلته هوىً شديدٌ مرهقٌ، هوىً شبيهٌ بالغيظ، ولربما هو الغيظ ذاته...

ارتعبت أودينتسوفا من ذلك، وشعرت بالعطف على بازاروف، فقالت بصوتٍ رنت فيه نغمة عفويةٌ رقيقةٌ:

- يفغيني فاسيليفيتش.

استدار بسرعةٍ، وألقى عليها نظرةً نهمةً، ثم أمسك بكلتا يديها، واحتضنها بغتةً.

لم تتخلص من أحضانه فوراً، لكنها بعد لحظةٍ صارت تقف بعيداً في الركن، وتنظر إلى بازاروف من هناك، وهرع هو إليها...

فقالت برعبٍ واستعجالٍ:

- لم تفهمني.

وخُيل إليها أنه لو خطا خطوةً أخرى؛ لصرخت... عضّ بازاروف شفته، وانصرف.

بعد نصف ساعةٍ سلمت الخادمة تذكرةً من بازاروف إلى آنا سيرغييفنا، كان فيها سطرٌ واحدٌ لا غير: «هل يتعين عليّ السفر اليوم، أم يمكنني البقاء إلى غد؟»، فأجابته آنا سيرغييفنا: «ما الداعي للسفر؟ لم أكن أفهمك، وأنت لم تفهمني»، وفكرت «أنني لم أكن أفهم نفسي أيضاً».

لم تغادر غرفتها حتى الغداء، كانت تجوبها جيئة وذهاباً، وقد أشبكت يديها خلف ظهرها، لم تكن تتوقف إلا نادراً أمام النافذة

تارةً، وأمام المرآة تارةً أخرى، لتمسح بالمنديل على نحوٍ بطيءٍ بقعةً ساخنةً خُيل إليها أنها ظهرت على جيدها، كانت تسائل نفسها عمّا حدا بها إلى أن «تسعى»، على حدّ تعبير بازاروف، إلى جعله يصارحها، وعمّا إذا كانت تتوقع شيئاً... فقالت بصوتٍ مسموعٍ: «أنا المذنبة، ولكنني لم أكن أتوقع ذلك». غرقت في تأملاتها، واحتقنت بصبغةٍ حمراءَ حين تذكرت وجه بازاروف الذي بدا متوحشاً تقريباً، عندما هُرع إليها...

«أم أن...، نطقت بذلك فجأةً، ثم توقفت، فنفضت شعرها... وشاهدت نفسها في المرآة. بدا رأسها المائل إلى الوراء، بابتسامةٍ خفيّةٍ في عينيها، وشفتيها المنفرجتين بالكاد، وكأنما يشير عليها في تلك اللحظة بشيءٍ خجلت منه هي نفسها..».

فقررت في آخر الأمر: «كلا. الله يعلم إلامَ سيقودنا ذلك، لا تجوز المخاطرة. فالهدوء، مع ذلك، هو أفضل ما في الكون».

لم يتزعزع هدوؤها، ولكن الغمّ اعتراها؛ حتى أنها بكت مرّةً دون أن تعلم السبب، بيد أنها لم تبك للشعور بالإهانة، فهي لم تشعر بأنها قد أهينت، وإنما تتصوّر نفسها، على الأكثر، مذنبةٌ، فبتأثير مختلف المشاعر الغامضة، والأسف على الحياة الآفلة، والرغبة في التجديد حملت نفسها على الوصول إلى خط معينٍ،

وأرغمتها على التطلع إلى ما وراءه، فرأت وراءه ليس هوةً سحيقةً، بل خواء... أو ما هو أبشع من الخواء!.

19

مهما بلغت قدرة أودينتسوفا على ضبط نفسها، وتجاوز مختلف الأباطيل، فقد شعرت بعدم ارتياحٍ عندما حضرت للغداء في غرفة الطعام، وبالمناسبة، فقد مضى الغداء بصورةٍ مرضيةٍ نوعاً، حيث وصل بورفيري بلاتونيتش، وأورد مختلف الأخبار المضحكة، إذ كان قد عاد من المدينة لتوّه. وقال، فيما قال، إن المتصرف أمر معاونيه الخاصين أن يرتدوا المهاميز؛ تحوطاً لما إذا كان سيرسلهم راكبين إلى مكانٍ ما على جناح السرعة، وكان أركادي يتحدث مع كاتيا بصوتٍ خافتٍ ويداري الأميرة بتصنّع، بينما لزم بازاروف الصمت متجهماً متعنتاً، نظرت أدوينتسوفا مرتين على نحوٍ مباشرٍ، ومن دون مواربةٍ إلى وجهه السوداوي الصارم بعينيه الخفيضتين، وأثر التصميم الأنوف بادٍ في كل ملامحه، وفكرت في نفسها: «كلا... ثم كلا...» بعد الغداء توجهت مع الجميع إلى البستان، وعندما لاحظت أنّ بازاروف يريد التحدث معها، خطت بضع خطواتٍ إلى الجانب وتوقفت، فاقترب منها، وقال بصوتٍ مكبوتٍ دون أن يرفع إليها أنظاره هنا أيضاً:

- يتعيّن عليّ أن أعتذر منك، يا آنا سيرغييفنا، فأنت غاضبةٌ عليّ ولا بدّ.

فأجابته أودينتسوفا:

- لست غاضبةً عليك، يا يفغيني فاسيليفيتش، ولكنني متكدرةٌ.

- وهذا أسوأ. على كل حالٍ، فقد عوقبت أنا بما فيه الكفاية، إذ ليس هناك أكثر حماقةً من موقفي، وأنت، على ما أظن، توافقينني في ذلك، لقد كتبت لي: ما الداعي للسفر؟ بينما لا أستطيع البقاء، ولا أريده، ولن أكون هنا غداً.

- يا يفغيني فاسيليفيتش، لماذا...

- لماذا أسافر؟

- كلا، ليس هذا ما أردت أن أقوله.

- الماضي لا يعود، يا آنا سيرغييفنا... وذلك شيءٌ يجب أن يحدث عاجلاً أم آجلاً، وبالتالي عليّ أن أسافر، إنني أعرف شرطاً واحداً يمكنني أن أبقى إذا تحقق، ولكن ذلك الشرط لن يتحقق أبداً، فأنت، ومعذرةً على تجاسري، لا تحبينني ولن تحبيني أبداً، أليس كذلك؟

لمعت عينا بازاروف للحظةٍ من تحت حاجبيه القاتمين.

لم تجبه آنا سيرغييفنا، وخطرت على بالها فكرةٌ: «أنا أخشى هذا الإنسان»، فقال بازاروف، وكأنما حزر فكرتها:

- وداعاً.

وتوجه نحو الدار.

تبعته آنا سيرغييفنا بهدوءٍ، ونادت كاتيا، فاصطحبتها ممسكةً بساعدها، لم تفارقها حتى المساء. كما لم تلعب الورق، بل أخذت تضحك ساخرةً، الأمر الذي لم يناسب محياها الشاحب المرتبك، تحيّر أركادي، وصار يراقبها كما يفعل الشبان عادةً، فيسائل نفسه على الدوام: ما الذي يعنيه ذلك؟ وانزوى بازاروف في غرفته، ولكنه عاد لاحتساء الشاي، أرادت آنا سيرغييفنا أن تقول له كلمةً طيبةً، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ الكلام معه...

بيد أنّ حادثاً غير متوقعٍ أخرجها من المأزق، فقد أعلن كبير الوصفاء عن قدوم سيتنيكوف.

يصعب على الكلمات أن تعبر عن السرعة الخرقاء التي اقتحم بها الغرفة داعية التقدم الشاب هذا. فبعد أن صمم، باللجاجة الملازمة له، على التوّجه إلى القرية، إلى امرأةٍ لا يعرفها إلا بالكاد، ولم تكن قد دعته لزيارتها أبداً، ولكنها تستضيف، حسب المعلومات التي وردته، شخصين ذكيين عزيزين عليه، فإنه مع

ذلك شعر بالوجل ينتابه حتى العظام، وبدلاً من أن ينطق عبارات الاعتذار والتحية التي حفظها عن ظهر قلبٍ مسبقاً دمدم سخافةً وهذراً حيث، زعم أن يفدوكسيا كوكشينا بعثته؛ ليستفسر عن صحة آنا سيرغييفنا، وأن أركادي نيكولايفيتش كان يثني دوماً أعظم الثناء...

تلعثم عندما لفظ هذه الكلمة، ونسي نفسه حتى أنه جلس على قبعته، بيد أن أحداً لم يطرده، بل قدمته آنا سيرغييفنا على خالتها وأختها، ولذا سرعان ما التقط أنفاسه، واسترسل في الهذر.

غالباً ما يصبح ظهور الابتذال أمراً نافعاً في الحياة: فهو يخفف من حدة الأوتار المشدودة جداً كما يخفف المشاعر المتعالية أو المنفلتة، إذ تتجلى صلة القربى التي تربط بينها وبينه. بوصول سيتنيكوف أصبح كلّ شيءٍ أكثر بلادةً وأكثر بساطةً على نحو ما، حتى أن الجميع تناولوا طعام العشاء بشهيةٍ أكبر، وتفرقوا للنوم قبل نصف ساعةٍ من المعتاد.

قال أركادي وهو مضطجعٌ على الفراش لبازاروف الذي خلع ملابسه هو الآخر:

- بوسعي أن أكرر لك الآن ما قلته لي أنت ذات مرة:

«لماذا أنت حزين إلى هذا الحد، وكأنما أديت واجباً مقدساً؟»

منذ أمدٍ غير طويلٍ ساد العلاقات نوعٌ من المداعبة المغالية في عدم التكلف، الأمر الذي يدل دوماً على التذمر الخفي، أو على الشكوك التي لم تجد متنفساً.

فقال بازاروف:

- سأسافر غداً إلى والدي.

فنهض أركادي قليلاً، واستند إلى مرفقه، لقد دهش، وفرح لسببٍ ما، وقال؟

- أها! هذا هو مبعث حزنك؟

فقال بازاروف متثائباً:

- من يعرف المزيد، تداهمه الشيخوخة قبل الأوان.

فواصل أركادي كلامه:

- وآنا سيرغييفنا، ما رأيها؟

- وما شأن آنا سيرغييفنا؟

- أقصد هل ستسمح لك؟

- لست أجيراً عندها.

تأمل أركادي بعض الشيء، بينما رقد بازاروف، ووجهه إلى الجدار.

مرت عدّة دقائقَ في صمتٍ، فهتف أركادي على حين غرّةٍ:

- يفغيني!

- ماذا؟

- سأسافر غداً معك.

لم يجب بازاروف بشيءٍ، فواصل أركادي كلامه:

- غير أنني سأذهب إلي أهلي، سنتوجه معاً إلى قرية خوخلوفو، وهناك نأخذ خيولاً من فيدوت. يسرني جداً أن أتعرف على والديك، ولكنني أخشى أن أضيق عليهما وعليك. ثم أنك ستعود إلينا فيما بعد، أليس كذلك؟

فقال بازاروف دون أن يستدير نحوه:

- تركت حاجياتي عندكم.

فكّر أركادي في نفسه: لِمَ لا يسألني عن السبب في سفري على هذا النحو المفاجئ مثل سفره؟. وواصل تأملاته: حقاً أسافر أنا، ولماذا يسافر هو؟ ولم يستطع أن يجد جواباً مرضياً على أسئلته، بينما طفح قلبه بشيءٍ ما لاذعٍ، وأحسّ بأنه سيكون من

العسير عليه مفارقة هذه الحياة التي اعتاد عليها، غير أن بقاءه لوحده أمرٌ فيه شيءٌ من الغرابة، فصار يحاجج نفسه: لقد حدث بينهما شيءٌ ما، فما الداعي؛ لأن أثقل عليها بعد سفره؟ سوف تملّ مني نهائياً، وسأفقد آخر ما لديّ. وأخذ يتصوّر آنا سيرغييفنا، ويتصور وجهاً آخر يلوح قليلاً من وراء محيا الأرملة الشابة المليح.

«أسفي لكاتيا أيضاً!»، همس أركادي للوسادة التي سقطت عليها دمعةٌ... ثم نفض شعره بغتةً، وقال بصوتٍ عالٍ:

- أيّ شيطانٍ جاء بسيتنيكوف البليد هذا؟

تحرك بازاروف في سريره، ثم قال:

- لا تزال أنت، يا أخي، غبياً على ما أعتقد، إن أمثال سيتنيكوف يلزموننا، فأنا بحاجةٍ إلى أمثال هؤلاء البلداء، وعليك أن تفهم ذلك، هل يتعين على الآلهة أن ينشغلوا بالتفاهات؟...

«عجباً»، فكّر أركادي، وانفرجت أمامه فجأةً هوة كبرياء بازاروف سحيقةً لا قرار لها. «ذلك يعني أننا من عداد الآلهة، أو على الأصح أنت إلهٌ، وأنا من البلداء، أليس كذلك؟!».

- أجل، لا تزال أنت غبياً، كرر بازاروف متجهماً.

لم تبدِ أودينتسوفا دهشةً كبيرةً، عندما أعلن أركادي في اليوم التالي عزمه على السفر مع بازاروف. لقد بدت متعبةً شاردة البال. وجهت إليه كاتيا نظرةً صامتةً جادةً، بينما رسمت الأميرة شارة الصليب تحت وشاحها، وكان لا بد له أن يلاحظ ذلك، بيد أن سيتنيكوف بالذات أصبح في أشد الانزعاج، كان قد حضر تواً لتناول الفطور في بدلةٍ جديدةٍ أنيقةٍ للغاية، وليست هذه المرة مما يرتدي أنصار النزعة السلافية، وفي يوم أمس، دُهش الشخص الذي عُيّن لخدمته من كثرة الملابس التي جلبها معه، وها أن رفيقيه يغادران على حين غرّةٍ! تخطّر بعض الشيء بخطواتٍ متقاربةٍ، ثم اندفع كأرنبٍ مطاردٍ في طرف الغابة، وأعلن فجأةً بشيءٍ من الذعر، وبصوتٍ يكاد يقرب من الصراخ، أنه عازمٌ على السفر أيضاً، ولم تحاول أودينتسوفا إقناعه بالبقاء.

قال الشاب التعيس مخاطباً أركادي:

- عندي عربةٌ مكشوفةٌ مريحةٌ جداً، وبوسعي أن أصطحبك، أما يفغيني فاسيليفيتش، فيمكن أن يستقلّ عربتك، وسيكون ذلك أفضل.

- كيف؟ طريقك في غير طريقي، والمسافة إلينا بعيدةٌ.

- لا بأس، لا بأس، لدي متسعٌ من الوقت، ثم عليّ أن أدبر بعض الشؤون في تلك الناحية.

- شؤون تجارة المسكرات؟، سأله أركادي بمنتهى الازدراء.

بيد أن سيتنيكوف كان في حالةٍ من اليأس والقنوط ؛حتى أنه لم يقهقه هذه المرة خلافاً لعادته، فكرر القول:

- أؤكد لك أنّ العربة مريحةٌ للغاية، وفيها مكانٌ لنا جميعاً.

فقالت آنا سيرغييفنا:

- لا تكدر المسيو سيتنيكوف بالممانعة.

نظر إليها أركادي، وطأطأ رأسه بمهابةٍ.

سافر الضيوف بعد الفطور. ودّع بازاروف أودينتسوفا فمدت له يدها قائلة:

- سنلتقي مرةً أخرى، أليس كذلك؟

فأجاب بازاروف:

- كما تأمرين.

- إذن سنلتقي.

كان أركادي أول من خرج من الدار، فصعد إلى عربة سيتنيكوف، وساعده كبير الوصفاء في ذلك بكلّ إجلالٍ، في حين كان بود أركادي أن يصفعه، أو ينتحب. واستقل بازاروف العربة الأخرى. عندما وصلوا إلى قرية خوخلوفو انتظر أركادي حتى شدّ صاحب الخان فيدوت الخيول، فاقترب من عربة بازاروف، وقال له بابتسامته المعهودة:

- يفغيني. خذني معك، أريد أن أذهب إليكم.

فتمتم بازاروف:

- اصعد.

كان سيتنيكوف، وهو يتمشى حول عجلات مركبته، ويصفر بحماسٍ، قد فغر فمه؛ عندما سمع تلك الكلمات، بينما سحب أركادي ببرودٍ حاجياته من عربة ذاك، وصعد إلى عربة بازاروف، فجلس قربه، وحنى رأسه انحناءة تبجيلٍ لسيتنيكوف، وصاح:

«هيا بنا!». تحركت العربة، وسرعان ما اختفت عن الأنظار...

تطلع سيتنيكوف المرتبك أشد ارتباكٍ إلى حوذيه، بيد أن ذاك كان يتلاعب بسوطه فوق ذيل الفرس، وعند ذاك قفز سيتنيكوف

إلى عربته، زعق صارخاً على فلاحَيْن مرّا قربه: «البسا قبعتيكما أيها الأحمقان!»، وتوجّه إلى المدينة، حيث وصلها في ساعةٍ متأخرةٍ. وفي اليوم التالي انهال، لدى كوكشينا، وابلٌ من اللوم المقذع على ذينك «المتكبرين الوقحين الكريهين».

عندما صعد أركادي إلى عربة بازاروف، شدّ على يده بقوةٍ ولم يقل شيئاً لأمدٍ طويلٍ، وبدا وكأن بازاروف قد فهم، وقدّر هذه الالتفاتة من رفيقه. لم يكن قد ذاق طعم النوم، ولا التدخين في الليلة المنصرمة، ولم يكن قد تناول طعاماً يذكر منذ بضعة أيامٍ، ونتأت صفحة وجهه من تحت طاقيته مكفهرةً متجهمةً، ثم قال أخيراً:

- ماذا، يا أخي، هلا أعطيتني سيجاراً... ثم انظر: أليس لساني أصفر؟!

- أصفر.

- هكذا... حتى السيجار غير لذيذٍ. تفككت الماكنة.

- تغيرت حقاً في الآونة الأخيرة.

- لا بأس، سنتعافى. هناك شيءٌ واحدٌ محزنٌ، فإن أمي رقيقة القلب إلى درجة، حتى أنها تتألم أشد الألم، إذا لم ينتفخ بطني، ولم آكل عشر مراتٍ في اليوم، أما أبي فلا بأس. لقد رأى ما رأى،

وغربل الأمور ونخّلها. كلا، لا يمكن التدخين، قال ذلك، وقذف السيجار وسط غبار الطريق.

فسأله أركادي:

- المسافة إلى ضيعتك خمسة وعشرون كيلومتراً؟

- أجل. ولكن اسأل هذا الحكيم عنها.

وأشار إلى الفلاح الجالس على مقعد الحوذي، وهو من العاملين لدى فيدوت.

بيد أن الحكيم أجاب بلهجةٍ محليةٍ: «من يدري؟ لم يقس أحدٌ المسافة هنا»، وواصل شتائمه بصوتٍ خافتٍ على فرس المقدمة التي كانت تهز رأسها بتشنجٍ.

وطفق بازاروف يتكلم:

- أجل، أجل، يا صديقي الفتى، إنه لَدرسٌ فيه عبرةٌ لك، الشيطان وحده يعرف هذه الحماقة! كلّ شخصٍ معلّق بشعرةٍ، ويمكن أن تنفرج تحته هوةٌ سحيقةٌ في كلّ لحظةٍ، بينما يبتدع هو لنفسه مختلف المشاكل، ويفسد حياته.

فسأله أركادي:

- إلامَ تلمّح؟

- ليس في ذلك تلميحٌ، فأنا أقول صراحةً، إنني وأياك تصرفنا تصرفاً أحمق، الأمر واضح تماماً. وقد لاحظت في المستشفى أن الذي يغضب على ألمه لا بد، وأن يقهره.

فقال أركادي:

- لا أفهمك تماماً. يُخيّل إليّ أنه لم يكن هناك ما يمكن أن تشتكي منه.

- ما دمت لا تفهمني تماماً، فأنا أحيطك علماً بما يلي: برأيي أن قلع البلاط من الشارع أهون من السماح لامرأةٍ؛ بأن تمتلكك قيد أنملةٍ، فذلك كلّه مجرّد...، كاد بازاروف يتلفظ كلمته المحببة «رومانسية»، ولكنه امتنع، وقال: سخافةٌ صرفٌ، وسوف لن تصدقني إذا قلت لك الآن: لقد كان في معشر نسائي، وكان ذلك أمراً مسرّاً، لكن ترك مثل هذا المعشر، كالاستحمام بماءٍ باردٍ في يومٍ قائظٍ، فليس لدى الرجل وقتٌ لممارسة هذه التفاهات، على الرجل أن يكون شرساً، كما يقول المثل الإسباني الرائع، فأنت مثلاً، أضاف بازراوف مخاطباً الفلاح الجالس على مقعد الحوذي، أنت أيها الحصيف، هل لديك زوجةٌ؟

التفت الفلاح إلى الصديقين بوجهه المسطح الأعشى:

- زوجةٌ؟ طبعاً، فكيف يمكن من دونها؟

- وهل تضربها؟

- من، زوجتي؟ يصادف، فنحن لا نضرب من دون سببٍ.

- حسناً، وهل هي تضربك؟

هزّ الفلاح الأعنة:

- ما هذا الكلام، أيها السيد، ليس كل شيء يصلح للمزاح... زعل الفلاح على ما يبدو.

- هل أنت سامعٌ يا أركادي نيكولايفيتش؟ أما نحن فقد ضربونا... ذلك ما يعنيه أن يكون المرء مثقفاً.

ضحك أركادي بتكلّفٍ، بينما أشاح بازاروف وجهه، ولم ينبس ببنت شفةٍ طوال ما تبقى من الطريق.

بدت الخمسة والعشرون كيلومتراً لأركادي بقدر خمسين، وأخيراً لاحت على صفحة هضبةٍ منحدرةٍ القرية الصغيرة التي يقطنها والدا بازاروف، وإلى جانبها بدت وسط أجمةٍ من صغار البتولا، دارٌ غير كبيرةٍ من دور النبلاء، وسقفها مغطىً بالقش، وعند أول بيتٍ قرويّ كان فلاحان مهندمان يتشاجران، فقد قال أحدهما للآخر: «أنت خنزيرٌ كبيرٌ، ولكنك أسوأ من الخِنَّوص الصغير»، فقال الثاني: «وزوجتك سحّارة».

فقال بازاروف لأركادي:

- يمكنك الحكم من صيغة المخاطبة غير المتكلفة، ومن لهجة الكلام؛ بأنّ فلاحي أبي لا يتعرضون لمضايقةٍ شديدةٍ، وبالمناسبة فها هو نفسه يخرج إلى باحة الدار، لا بد، وأنه سمع جرس العربة. إنه هو، هو طبعاً، عرفته من قوامه. ولكن، يا للعجبِ كيف شاب المسكين، إلى هذا الحد!!..

20

أطل بازاروف من العربة، واشرأب أركادي بعنقه من وراء ظهر رفيقه، فرأى في مدخل الدار رجلاً نحيفاً فارع القامة، بشعرٍ أشعثَ، وأنفٍ دقيقٍ كمنقار الصقر، وهو يرتدي سترةً عسكريةً عتيقةً مفتحة الأزرار. كان واقفاً منفرج الساقين، يدخن غليوناً طويلاً، ويضيق عينيه بسبب أشعة الشمس.

توقفت الخيول.

فقال بازاروف الأب، وهو يواصل تدخينه، مع أن الغليون يتراقص بين أصابعه:

- ها قد وصلت أخيراً. هيا انزل، انزل، فلنتعانق.

عانق ابنه... فارتفع صوتٌ نسائيٌّ مرتعشٌ: «ينيوشا»[80]، «ينيوشا». فتح الباب على مصراعيه، وظهرت على عتبته عجوزٌ متكورةٌ قصيرة القامة في قلنسوةٍ بيضاءَ، وبلوزةٍ زاهيةٍ قصيرةٍ.

تأوّهت، وتمايلت، وكادت تسقط لولا أن أسندها بازاروف، طوقت يداها الممتلئتان عنقه على الفور، والتصق رأسها بصدره، وساد الصمت كلّ شيءٍ، ما عدا نشيجها المتقطع.

كان العجوز بازاروف يتنفس بصعوبةٍ، وصار يضيق عينيه أكثر من السابق، ثم قال بعد أن التقت نظرته بنظرة أركادي، في حين أشاح الفلاح الجالس على مقعد الحوذي بوجهه:

- كفاك، كفاك يا آرينا! لا داعي لذلك! أرجوك.

فتمتمت العجوز:

- آه، يا فاسيلي إيفانوفيتش!!، منذ متى لم أر حبيب قلبي، وقرة عيني ينيوشا... وأبعدت وجهها المتيم المدعوك المبلل بالدموع عن بازاروف، دون أن ترفع يديها عن عنقه، ونظرت إليه بعينين مغتبطتين، مضحكتين بعض الشيء، ثم التصقت به من جديدٍ، فقال فاسيلي إيفانوفيتش:

- كل ذلك في طبيعة الأشياء، ولكن من الأفضل أن ندخل البيت، فقد وصل ضيفٌ مع يفغيني، ثم أضاف مخاطباً أركادي،

وحفّ برجله قليلاً:

-عفواً، أنت تعرف هذه الأمور. تلك هي نقطة ضعف المرأة، يا لَقلب الأم!!...

قال ذلك، وارتعشت شفتاه وحاجباه، وكان ذقنه يهتزّ اهتزازاً... بيد أنه كان، على ما يبدو، راغباً في ضبط مشاعره، والتظاهر بشيءٍ من اللامبالاة، فانحنى له أركادي. وقال بازاروف:

- فعلاً، فلندخل يا ماما.

واقتاد إلى الدار، العجوز التي خارت قواها، أجلسها في مقعدٍ مريحٍ، وعانق أباه من جديدٍ على عجلٍ، وقدّم له أركادي.

فقال فاسيلي إيفانوفيتش:

- يسعدني من صميم القلب أن نتعارف، ولكن لا تلمني، فكلّ شيءٍ هنا بسيط على الطراز العسكري يا آرينا فلاسيفنا، اعملي معروفاً، وروّحي عن نفسك، فما هذا الخور؟ لا بد، وأنّ السيد الضيف يلومك على ذلك.

فقالت العجوز والدموع تنهمر من عينيها:

- يا عزيزي... لم أتشرف بعد؛ بمعرفة اسمك واسم أبيك...

فقال فاسيلي إيفانوفيتش بصوتٍ خافتٍ له وزنه:

- أركادي نيكولايفيتش.

فقالت العجوز بعد أن تمخطت، ومالت برأسها ذات اليمين وذات الشمال، ومسحت عيناً بعد أخرى بكلّ عنايةٍ:

- اعذرني أنا الغبية، اعذرني، كنت أفكّر، بأني سأموت دون أن يطول بي العمر لأرى قر... قرة عيني!.

فقال فاسيلي إيفانوفيتش:

- ها قد رأيته، يا سيدتي.

ثم التفت إلى بنتٍ حافية القدمين، في حوالي الثالثة عشرة من العمر ترتدي فستاناً قطنياً أحمر صارخاً، وهي تتطلع بخوفٍ من شق الباب، وناداها قائلاً:

- تانيوشا، أحضري للسيدة قدحاً من الماء بالصينية، هل أنت سامعةٌ؟، ثم أضاف بشيءٍ من المداعبة العتيقة الطراز:

- أما أنتما أيها السيدان، فاسمحا لي أن أدعوكما إلى مكتب المحارب القديم المتقاعد.

وأنّت آرينا فلاسيفنا متنهّدة:

- تعال، لأعانقك مرّةً أخرى يا ينيوشا، انحنى إليها بازاروف، كم أصبحت جميلاً!!.

فقال فاسيلي إيفانوفيتش:

- لست واثقاً من جماله، ولكنه غدا رجلاً من خيرة الرجال، كما يقال، أما الآن فآمل، يا آرينا فلاسيفنا، أنك بعد أن أشبعت قلب الأمومة سوف تهتمين؛ بإشباع ضيفيك العزيزين، فالبلبل، كما تعرفين، لا يقتات على الحكايات.

نهضت العجوز من المقعد، وقالت:

- في الحال، يا فاسيلي إيفانوفيتش، ستكون المائدة جاهزةً، سأذهب بنفسي إلى المطبخ، وسآمر بإعداد السماور، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، منذ ثلاث سنواتٍ، لم أره، ولم أطعمه، ولم أسقه، فهل ذلك بالأمر الهين؟

- أرجوك يا ربّة البيت، ابذلي جهدك، فلا تجلبي الملامة على نفسك، أما أنتما أيها السيدان، فأرجوكما أن تتبعاني، وها هو «تيموفييتش» جاء ليحييك يا يفغيني، فهو أيضاً قد سُرّ، ولا بدّ، أليس كذلك أيها العجوز؟ اتبعوني رجاءً.

سار فاسيلي إيفانوفيتش في المقدمة حركاً متململاً، وهو يحفّ، ويخشخش بحذائه البالي.

كانت داره تضم ست غرفٍ صغيرةٍ لا غير، وكانت إحداها، وهي الغرفة التي اقتاد إليها صاحبينا، تسمى بالمكتب؛ كانت طاولةً بقوائمَ سميكةٍ تحتل كل الفسحة بين النافذتين، وعلى الطاولة أكداس أوراقٍ اسودّت من الغبار والقدم حتى بدت كالمشوية بالدخان، وعلى الجدران بنادقُ ومجالدُ تركيةٍ وسيفٌ وخريطتان جغرافيتان، وبعض الرسوم التشريحية وصورة هوفيولاند[81] وطغراء مصنوعةٌ من الشعر في إطارٍ أسودَ ودبلومٌ مزججةٌ، وكانت هناك أريكةٌ جلديةٌ مخسوفةٌ في ناحيةٍ وممزقةٌ في ناحيةٍ أخرى بين صوانين هائلين من خشب البتولا الكاريلية، وكانت الرفوف غاصةً، على غير انتظامٍ، بالكتب والعلب والطيور المحنطة والقناني والزجاجات الصغيرة، وفي أحد الأركان ماكنةٌ كهربائيةٌ معطبةٌ.

بدأ فاسيلي إيفانوفيتش كلامه:

- ذكرت لك يا زائري العزيز، أننا نعيش هنا كما في المخيمات العسكرية المكشوفة...

فقاطعه بازاروف:

- كفاك، علامَ تعتذر؟ أركادي يعرف جيداً؛ بأنك لست قاروناً، وأنك لا تمتلك قصراً. ولكن أين سيقيم؟ تلك هي المشكلة.

- كيف يا يفغيني؟ لدينا في الجناح غرفةٌ ممتازةٌ، وسيرتاح فيها كلياً.

- ماذا؟ هل بنيت جناحاً؟!.

فتدخل تيموفييتش قائلاً:

- كيف لا يا سيدي؟ هناك في مبنى الحمام.

- أيّ قرب الحمام، أضاف فاسيلي إيفانوفيتش على عجلٍ:

-فالوقت صيفٌ.... سأذهب إلى هناك في الحال؛ لأعطي بعض التعليمات، هلا أحضرت يا تيموفييتش، حاجياتهما! أمّا أنت، يا يفغيني، فأترك لك مكتبي طبعاً (لكل ما له)[82].

فقال بازراوف حالما خرج فاسيلي إيفانوفيتش:

- يا له من عجوزٍ ظريفٍ!!. إنه في منتهى الطيبة، وهو غريب الأطوار مثل أبيك، ولكن على طرازٍ آخرَ. إنه كثير الثرثرة.

فقال أركادي:

- وأمك أيضاً امرأةٌ رائعةٌ على ما يبدو.

- أجل، إنها طيبة القلب. وسوف ترى أيّ غداءٍ ستقدّم لنا.

فقال تيموفييتش، وقد دخل لتوّه حاملاً حقيبة بازاروف:

- لم نتوقع وصولكما اليوم، يا عزيزيَّ، فلم نحضر لحم البقر.

- سنستغني عن لحم البقر ما دام غير موجودٍ، فالفقر ليس عيباً كما يقال.

فسأل أركادي على نحوٍ غير متوقعٍ:

- كم نسمة يمتلك أبوك؟

- الضيعة ليست له، فهي ملكٌ لوالدتي، وعدد الفلاحين، على ما أتذكر، خمسة عشر.

- بل اثنان وعشرون، قال تيموفييتش بعد ارتياح.

تهادى حفيف حذاءٍ، وظهر فاسيلي إيفانوفيتش من جديدٍ، وأعلن كالمنتصر:

- بعد بضع دقائقَ ستكون غرفتك جاهزةٌ يا أركادي... نيكولايفيتش، هذا هو اسم أبيك على ما أعتقد، أليس كذلك؟، ثم أضاف مشيراً إلى غلامٍ قصير الشعر، في قفطانٍ أزرقَ ممزقٍ عند المرفقين، وفي جزمة ليست له:

-هذا خادمك، واسمه فيدكا، أعتذر مرّةً أخرى، مع أن ولدي لا يسمح بالاعتذار، فالصبي يجيد، على الأقل، شحن الغليون. أنت

تدخن، أليس كذلك؟

- أنا أدخن السجائر أكثر، أجاب أركادي.

- ذلك في منتهى الحكمة، وأنا شخصياً أفضل السجائر، ولكن من الصعب جداً الحصول عليها في بقاعنا النائية هذه.

فقاطعه بازاروف من جديدٍ:

- كفاك مسْكَنَـةً، من الأفضل أن تجلس هنا على الأريكة؛ لأستطيع التطلع إليك.

ضحك فاسيلي إيفانوفيتش، وجلس؛ كان وجهه يشبه وجه ابنه لدرجةٍ كبيرةٍ، سوى أن جبهته أوطأ وأضيق، وفمه أوسع قليلاً؛ كان دائم الحركة، يهزّ كتفيه بلا كللٍ، وكأنما الثوب ضيّقٌ تحت إبطيه، ويطرف كثيراً، ويسعل بين الفينة والفينة ويحرك أصابعه، في حين يتميز ابنه بشيءٍ من الهدوء اللامبالي.

تحدّث فاسيلي إيفانوفيتش:

- تقول، يا يفغيني إني أتمسّكن! كلا، لا تظن بأني؛ كأنما أريد أن أتشكّى لضيفنا من عيشتنا في طرفٍ منعزلٍ بعيدٍ، فأنا على العكس؛ أرى أنه لا يوجد طرفٌ بعيدٌ بالنسبة للإنسان المفكّر،

وأنا، على الأقل، أحاول، قدر الإمكان، أن أواكب العصر، فلا أترك الطحالب تغطيني، كما يقال.

أخرج فاسيلي إيفانوفيتش من جيبه منديلاً حريرياً أصفرَ جديداً، كان قد أخذه، عندما ذهب لترتيب غرفة أركادي، وواصل كلامه وهو يلوّح بالمنديل:

- ناهيك عن أني، مثلاً، حوّلت الفلاحين للعمل حسب الجزية، وأعطيتهم أرضي مناصفةً في المحصول، بالرغم من الأضرار المحسوسة التي أتكبدها نتيجةً لذلك، فقد اعتبرت هذا واجباً عليّ، فالعقل السليم نفسه يتطلب ذلك، مع أن الكثيرين من الملاك الآخرين لا يفكرون به، وأنا أهتم بالعلوم والتعليم.

فقال بازاروف:

- أجل، أرى أن لديك «صديق العافية»[83] لعام ألف وثمانمئة وخمسة وخمسين.

فقال فاسيلي إيفانوفيتش باستعجالٍ:

- يرسلها لي أحد أصدقائي القدامى، ثم أضاف موجهاً كلامه إلى أركادي على الأكثر، وأشار إلى رأسٍ من الجبس انتصب على الصوان، وقُسّم إلى مستطيلاتٍ مرقمةٍ، وقال:

- نحن مثلاً، نعرف ما هي فراسة الدماغ[84]، ولم يبق شينلين[85] وراديماخير[86] مجهولين لدينا.

فسأل بازاروف:

- أفلا يزالون في هذا اللواء يصدقون راديماخير؟

سعل فاسيلي إيفانوفيتش، وقال:

- في اللواء... أنتم أعرف طبعاً، أيها السادة، فمن أين لنا أن نلحق بكم؟ سوف تحلون أنتم بالذات محلنا، حتى في زماني بدا هوفمان[87]، ونظريته للأخلاط وبراون[88]، ومذهبه الحيوي شخصين مضحكين للغاية، ولكن صيتهما ذاع أيضاً في حينه، وحلّ شخصٌ ما جديدٌ لديكم محل راديماخير، وأنتم تطأطئون رؤوسكم أمامه، لكنه ربما سيكون هو الآخر مثاراً للسخرية بعد عشرين عاماً.

فقال بازاروف:

- أزيدك علماً؛ بأننا الآن نسخر من الطب عموماً، ولا نطأطئ رؤوسنا أمام أحد.

- كيف؟ أفلا تريد أن تصبح طبيباً؟

- بلى، فليس في ذلك تعارضٌ.

دسّ فاسيلي إيفانوفيتش إصبعه الوسطى في غليونه، فلا يزال هناك شيءٌ من الرماد الساخن. وقال:

- ربما، ربما. لن أجادل في ذلك. فمن أنا؟ مجرّد طبيبٍ عسكريٍّ متقاعدٍ، وقد تحوّلت الآن إلى مهندسٍ زراعيٍّ.، ثم وجه كلامه إلى أركادي من جديدٍ:

-خدمت في لواء جدك، أجل رأيت في حياتي الكثير.

فما أكثر المجتمعات التي حضرتها والشخصيات التي صادقتها! إنني، أنا الذي تراني الآن أمامك، قد جسست نبض الأمير فيتغنيشتين[89] وجوكوفسكي[90]!، وكنت أعرف فرداً، فرداً جميع الذين كانوا في الجيش الجنوبي[91]، هل أنت فاهمٌ؟ (وهنا زمّ فاسيلي إيفانوفيتش شفتيه متباهياً). ولكن عملي ثانويٌّ لا شأن له، فلا يُطلب مني غير إجادة المبضع وكفى! أما جدّك فكان عسكرياً حقيقياً، وإنساناً مبجّلاً للغاية.

فقال بازاروف متكاسلاً:

- قل الحقيقة: كان في منتهى الحماقة.

- آه يا يفغيني! أية ألفاظٍ تنطق؟! ارحم حالي... بالطبع، لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد أولئك...

فقاطعه بازاروف:

- اتركه، وشأنه، عندما اقتربت من هنا سررت لأجمتك؛ أجمة البتولا، لقد شهقت وارتفعت كثيراً.

انتعش فاسيلي إيفانوفيتش، وقال:

- هل لاحظت كيف ازدهر البستان؟! غرست بنفسي كلّ شجرةٍ فيه، وتوجد فاكهةٌ وثمارٌ، وأعشاب طبيةٍ، ومهما كان رأيكم أيها السادة الشباب، فإن العجوز باراتسيلس[92] نطق بالحقيقة عينها حينما قال: (بالأعشاب والكلمات والأحجار...[93]). تخليّت عن ممارسة التطبيب، كما تعلم، غير أني مضطرٌ إلى العودة إليه مرتين في الأسبوع.

فعندما يلتمس الناس المشورة لا يمكن طردهم، ويصادف أن يحتاج الفقراء إلى إسعافٍ، بينما لا يوجد هنا أطباءٌ على الإطلاق. تصوّر أن أحد الجيران، وهو رائدٌ متقاعدٌ، يمارس التطبيب أيضاً. وعندما سألته، عما إذا كان قد درس الطب أم لا، قيل لي: كلا، لم يدرسه، إنما يمارسه عملاً بالمعروف... ها، ها، عملاً بالمعروف! أرأيت؟ ها- ها! ها- ها!

فقال بازاروف متجهّماً:

- فيكدا! املأ غليوني!

ثم واصل فاسيلي إيفانوفيتش كلامه بشيءٍ من الأسف:

- ذات مرّةٍ وصل طبيبٌ لعيادة مريضٍ، ولكن هذا الأخير (التحق بالأجداد[94])، فلم يسمح الوصيف للطبيب بالدخول، وقال له: لا حاجة، ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك، فسأله مرتبكاً: «ماذا؟ هل فاق السيد قبيل الوفاة؟» - «أجل». - «وهل فاق كثيراً؟» - «كثيراً»- «ذلك شيء حسن». وعاد أدراجه. ها - ها - ها-!

ضحك العجوز لوحده، وارتسمت ابتسامةٌ متكلفةٌ على محيا أركادي، بينما اكتفى بازاروف؛ بأن أخذ نفساً من غليونه. استمر الحديث على هذا النحو زهاء ساعةٍ، وتيسّر وقتٌ لأركادي كي يذهب إلى غرفته ويعود، فاتضح له أنها غرفة ملابس الاستحمام، ولكنها مريحةٌ ونظيفةٌ للغاية، وأخيراً دخلت تانيوشا، وأعلنت أن الغداء جاهزٌ.

نهض فاسيلي إيفانوفيتش أولاً، وقال:

- فلنذهب أيها السادة! معذرةً إذا كنت قد أضجرتكما، ولعل ربة بيتي تلبي حاجتكما أكثر مني.

كان الغداء فاخراً، بل وسخياً، بالرغم من الاستعجال في إعداده، غير أن طعم النبيذ، لم يكن على المستوى المطلوب إن صح القول، كان طعم نبيذ الهيريس القاتم الذي اشتراه تيموفييتش

من بائعٍ يعرفه في المدينة شبيهاً بطعم النحاس أو صمغ الصنوبر، وكان الذباب قد لعب دوره أيضاً.

في الأوقات العادية كان الخادم الصغير، يطرد الذباب بغصنٍ أخضَر كبيرٍ، إلا أن فاسيلي إيفانوفيتش أبعده هذه المرة؛ كي لا يتعرض للملامة من قبل الجيل الفتي، وتسنى لآرينا فلاسيفنا أن تتزين، فقد ارتدت قلنسوةً عاليةً بأشرطةٍ حريريةٍ، ووشاحاً أزرقَ موشىً، انتحبت من جديدٍ، حالما وقع نظرها على ابنها ينيوشا، غير أن زوجها لم يضطر إلى تهدئتها، فقد عجّلت هي نفسها بمسح دموعها؛ كي لا يبتل الوشاح. تناول الشابان الطعام وحدهما، إذ أن أهل البيت تغدوا قبل حينٍ. وسهر على الخدمة فيدكا الذي بدا مرهقاً بالجزمة غير المعتادة، وعاونته في ذلك أنفيسوشكا، وهي امرأةٌ عوراءُ. ذات ملامحٍ تنمّ عن البسالة، تؤدي وظائف مدبرة المنزل، ومربية الدواجن والغسالة. أخذ فاسيلي إيفانوفيتش طوال الغداء يتمشى في الغرفة، ويتحدث بسرورٍ، بل، وبغبطةٍ عن المخاوف الوخيمة التي أوحت بها إليه سياسة نابليون والمسألة الإيطالية المشوشة[95]، ولم تكن آرينا فلاسيفنا؛ لتلتفت إلى أركادي، ولم تستحثه على تناول الطعام، فقد أسندت بقبضتها وجهها المستدير الذي أضفت عليه شفتاها المنتفختان القرمزيتان والشامات على وجنتيها وفوق حاجبيها مسحةً من الطيبة المتناهية،

وركزت أنظارها على ابنها، وراحت تتنهد طوال الوقت. كانت تتحرق إلى معرفة المدة التي سيقضيها بين ظهرانيهم، ولكنها تخشى أن تسأله عن ذلك، فكرت في نفسها: «ماذا لو قال يومين؟!»، وكاد قلبها يتوقف عن الوجيب، بعد تناول المقليات، اختفى فاسيلي إيفانوفيتش لحظةً، ثم عاد يحمل قنينة شمبانيا مفتوحةً، وهتف قائلاً: «مع أننا نعيش في الريف البعيد، فلدينا ما نسلّي أنفسنا به في المناسبات!». صبّ الشمبانيا في ثلاث كؤوسٍ كبيرةٍ، وقدحٍ صغيرٍ، ورفع نخب «الزائرين الكريمين»، وتجرع كأسه دفعةً واحدةً؛ كما يفعل العسكريون، وأرغم آرينا فلاسيفنا على احتساء القدح حتى الثمالة، وعندما جاء دور المربى، رأى أركادي الذي لا يطيق أيّ شيءٍ سكري أنّ من واجبه أن يذوق أربعة أنواعٍ مختلفةٍ كانت قد أعدت مؤخراً، لا سيما، وأن بازاروف رفض المربى رفضاً قاطعاً، ودخن سيجارةً في الحال، ثم ظهر على المائدة الشاي مع القشدة والزبدة والبسكويت، وبعد ذلك اقتاد فاسيلي إيفانوفيتش الجميع إلى البستان للتمتع بجمال المساء، وعندما مروا بأحد المقاعد همس لأركادي:

- في هذا المكان أهوى التفلسف، وأتمتع بغروب الشمس كما يليق بالنسّاك، وهناك، على مسافةٍ أبعد، غرست عدداً من الأشجار المحببة إلى هوراس[96].

فسأل بازاروف الذي أنصت إليه:

- أية تلك الأشجار؟!

- إنها بالطبع... الأكاسيا.

بدأ بازاروف يتثاءب، فقال فاسيلي إيفانوفيتش:

- أعتقد أنه حان الوقت للرّحالتين كي يعانقا مورفيوس[97].

فقال بازاروف على الفور:

- أي حان الوقت للنوم! هذا رأيٌّ صائبٌ، فقد حان الوقت حقاً.

ودّع أمه، فقبلها في جبينها، وعانقته هي أيضاً، ثم رسمت علامة الصليب خلسةً، من وراء ظهره، ثلاث مرات، رافق فاسيلي إيفانوفيتش أركادي إلى غرفته، وتمنى له «استجماماً هنيئاً؛ كالذي تذوقته أنا، عندما كنت في عمركم السعيد»، وبالفعل، فقد غطّ أركادي في نومٍ هادئٍ في غرفة الملابس التي تفوح فيها رائحة النعناع، وكان جدجدان يتناوبان على الصرير على نحوٍ منومٍ وراء المدفأة.

ترك فاسيلي إيفانوفيتش أركادي، وتوجه إلى مكتبه، فاتكأ على الأريكة عند رجلي ابنه، كان ينوي التحدث معه، ولكن بازاروف أبعده على الفور، وقال إنه راغبٌ في النوم، بينما لم

يغمض له جفنٌ حتى الصبح. فتح عينيه باتساعٍ، وصار يحدّق في الظلمة حانقاً: فلم تكن لذكريات الطفولة سلطةٌ عليه، زد على ذلك أنه لم يتخلص بعد، من الانطباعات المريرة الأخيرة. وصلّت آرينا فلاسيفنا وابتهلت في البداية ما شاءت، ثم تحدثت لأمدٍ طويلٍ جداً مع أنفيسوشكا التي وقفت متسمّرة أمام سيدتها، وغرزت فيها عينها الوحيدة، وعرضت عليها بهمسٍ سحريّ كلّ ملاحظاتها وآرائها بخصوص يفغيني فاسيليفيتش، ألمّ الدوار برأس العجوز من الفرحة، والنبيذ ودخان السجائر، وحاول زوجها أن يتلكم معها، ولكنه صرف النظر عن ذلك، فلوّح بيده يائساً.

آرينا فلاسيفنا نبيلةٌ روسيةٌ حقاً من نبيلات الماضي، وكان ينبغي أن تعيش قبل مئتي عامٍ في عهود موسكو القديمة، فهي متدينةٌ للغاية ورقيقة الشعور، تؤمن بكل أنواع الفال والعرافة والتعاويذ والأحلام، وتؤمن بالدراويش والجن والعفاريت، وبمصادفات السوء، وعين الحسود والأدوية الشعبية وملح الخميس، وبقرب حلول نهاية العالم، وتعتقد أن محصول الحنطة السوداء يكون جيداً إذا لم تطفأ الشموع، أثناء صلاة الليل في عيد الفصح، وأن الفطر لا ينمو بعد أن تراه عين الإنسان، وأن الشيطان يحوم حول المياه، وأن هناك بقعةٌ من الدم على صدر كلّ يهوديّ. كانت تخشى الفئران والأفاعي والضفادع والعصافير

والعلق والرعد، والماء البارد وهبوب الريح، والجياد والماعز والأشخاص المغر والقطط السود، وتعتبر الجداجد والكلاب حيواناتٌ نجسةٌ، ولا تأكل لحم العجول والحمام والأرنب والسرطان والجبن والبطيخ الأحمر، لأن البطيخ المفتوح يذكرها برأس يوحنا المعمدان[98]، وما كانت لتستطيع الكلام عن المحار من دون ارتعاشٍ. كانت نهمةً أكولاً، ولكنها تلتزم بالصيام كلّ التزام، وكانت تنام عشر ساعات في اليوم، ولا تنام مطلقاً إذا داهم الصداع فاسيلي إيفانوفيتش. ولم تقرأ أيّ كتابٍ ما عدا «الكسيس، أو كوخ في الغاب»[99]. وكانت تحبر رسالةً واحدةً، أو رسالتين لا أكثر في العام، لكنها تجيد تدبير الأمور المنزلية وتجفيف الفاكهة، وإعداد المربى، مع أن يدها لم تمس شيئاً، ومع أنها لا تتحرك من مكانها عموماً إلا بِشقّ الأنفس. كانت آرينا فلاسيفنا في منتهى الطيبة، ولم تكن غبيةً أبداً على طريقتها الخاصة. فهي تعرف أن في الكون أسياداً يجب أن يأمروا، وأناساً بسطاء يجب أن يخدموا، ولذلك لا تستنكف عن التزلف، ولا عن الركوع لحدّ ملامسة الأرض، ولكنها تعامل مرؤوسيها بلطفٍ ووداعةٍ، ولا تترك أيّ متسوّلٍ دون أن تتصدق عليه، ولا تلوم أحداً على الإطلاق، مع أنها تحب الخوض في مناقشة سلوك الناس. كانت في شبابها مليحةٌ للغاية، وكانت تعزف على الكلافيكورد،[100] وتتكلم الفرنسية بعض

الشيء، ولكنها أصبحت بدينةً، ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية خلال الرحلات طوال سنينٍ عديدةٍ مع فاسيلي إيفانوفيتش الذي تزوجته مرغمةً، وهي تحبّ ابنها حبّاً جمّاً وتخشاه كل الخشية، وقد تخلّت عن إدارة الضيعة لزوجها، فلم تعد تهتم بشيءٍ فيها، سوى أنها صارت تتأوّه وتنش بمنديلها، وترفع حاجبيها أعلى فأعلى مرتعبةً؛ كلما شرع عجوزها يتحدث عن التحويلات المرتقبة، وعن مشاريعه، كانت متريّبة، تتوقع على الدوام شراً مستطيراً، وسرعان ما تنهمر الدموع حالما تتذكر شيئاً محزناً... إن عدد أمثال هؤلاء النسوة يتضاءل الآن، والله وحده يعلم، ما إذا كان يجب أن نفرح لذلك أم لا!

21

نهض أركادي من الفراش، وفتح النافذة على مصراعيها، وأول ما وقعت عليه أنظاره هو... فاسيلي إيفانوفيتش. كان العجوز في جبةٍ شرقيةٍ، مما يرتديه أهالي بخارى، وراح يجهد في البستنة

متمنطقاً بمنديلٍ، وعندما لمح ضيفه الشاب بادره مستنداً إلى الرفش:

- عم صباحاً! كيف قضيت ليلتك؟

- على أروع ما يكون.

- أما أنا، فكما ترى، مثل شنشيناتوس[101]. أعد جنينة للشلجم الأفلي المتأخر، لقد حل الآن، والحمد لله؛ زمانٌ يتعيّن فيه على كلّ شخصٍ أن يهيئ الأغذية لنفسه بيديه، فلا مجال للتعويل على الآخرين: ينبغي للمرء أن يعمل بنفسه، ويعني ذلك أنّ جان جاك روسو محقٌّ[102]. كان بوسعك، يا سيدي، أن تراني قبل نصف ساعةٍ بهيئةٍ أخرى تماماً، فقد تشكّت إحدى الفلاحات من الزحار كما يسمونه؛ أي من الدزنتري، كما نسميه نحن، ففعلت لها... كيف لي أن أجد التعبير الأفضل؟! حقنتها بالأفيون، ثم اقتلعت سن امرأةٍ أخرى، واقترحت عليها استخدام الأثير... لكنها رفضت. إنني أفعل ذلك كلّه (مجاناً)[103] كهاوٍ، وبالمناسبة ليس في ذلك ما يثير العجب، فأنا (إنسانٌ جديدٌ)[104] من الدهماء، ولست، كزوجتي الكريمة، من النبلاء أباً عن جد... هلا تفضّلت إلى هنا، في الظل، لتتنشق النسيم العليل قبيل شاي الصباح؟!

خرج أركادي إليه، فقال فاسيلي إيفانوفيتش رافعاً يده بالتحية، على الطريقة العسكرية، إلى الطاقية العتيقة المتسخة التي تغطي رأسه:

- أهلاً وسهلاً بك مرّةً أخرى! لقد تعودت أنت، كما أعلم، على الأبهة وأسباب الراحة، ولكن حتى عظماء العالم، لا

يستنكفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف الكوخ.

فقال أركادي بصوتٍ مرتفعٍ:

ـ عفواً، أين أنا من عظماء العالم؟! ثم إني لم أتعوّد على الأبهة.

فأعرض فاسيلي إيفانوفيتش بتأدبٍ:

ـ كلا، كلا. فمع أني مُحالٌ الآن إلى الأرشيف، ولكنني في المجتمع الراقي أيضاً، وأنا أعرف الطير من تحليقه؛ أنا نفسانيٌّ وسيمائيٌّ على طريقتي الخاصة، وأتجاسر على القول؛ بأني لو لم أملك هذه الموهبة؛ لانتهى أمري من زمانٍ، ولسحقت أنا الإنسان الصغير، وأقول لك بلا محاباةٍ أن الصداقة التي ألحظها بينك وبين ولدي تبعث السرور حقاً في نفسي، لقد رأيته الآن، فهو، كعادته، وهذا أمر معروفٌ لك، ولا بد، قد نهض مبكراً، وراح يجوب الأطراف، اسمح لي أن أستفسر منك: هل تعرّفت على ابني يفغيني من زمانٍ؟

ـ منذ الشتاء المنصرم.

ـ هكذا إذن، اسمح لي أن أسألك مرّةً أخرى، ولكن ألا تجلس؟ اسمح لي كأبٍ أن أسألك: ما هو رأيك بابني يفغيني؟ فأجاب أركادي بحماسٍ:

- ابنك واحدٌ من أروع الناس الذين تيسّر لي أن أقابلهم، في أيّ وقتٍ.

اتسعت عينا فاسيلي إيفانوفيتش فجأةً، واحمّرت وجنتاه بعض الشيء، وسقط الرفش من يديه، ثم واصل كلامه:

- هكذا إذن، تتصوّر...

فعاجله أركادي:

- أنا واثقٌ أن مستقبلاً عظيماً ينتظر ابنك، وأنه سيرفع رأسك، تأكّدت من ذلك منذ لقائنا الأول.

- كيف.... كيف كان ذلك؟!، نطق فاسيلي إيفانوفيتش هذه الكلمات بالكاد، وانفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ عريضةٍ معجبةٍ، لم تفارقهما بعد ذلك.

- تريد أن تعرف كيف التقينا؟

- نعم... وعلى العموم...

راح أركادي يتحدث عن بازاروف بحماسٍ وإعجابٍ أكبر مما في ذلك المساء عندما رقص المازوركا مع أودينتسوفا.

استمع إليه فاسيلي إيفانوفيتش، وأطال الاستماع، ثم تمخط، ولفّ المنديل بكلتا يديه وسعل، ونفش شعره، وأخيراً لم يتمالك

نفسه، فانحنى على أركادي وقبّله في كتفه، ثم قال دون أن تفارقه ابتسامته:

- أفرحتني جداً، وعليّ أن أقول لك بأني... أُؤلّه ابني

ناهيك عن عجوزي، فهي أمٌّ، وهذا أمرٌ معروفٌ، ولكنني لا أجرؤ بحضوره، على أن أعرب عن مشاعري؛ لأنه لا يحب ذلك، فهو خصمٌ لكل العواطف، حتى أن الكثيرين يلومونه على تصلب الطباع هذا، ويرون فيه علامة الغرور، أو انعدام الشعور، إلا أن أمثاله لا يمكن أن يقاسوا بالمعيار المعتاد، أليس كذلك؟ وعلى سبيل المثال فإن شخصاً غيره لا بد وأن ينفق أموال والديه بلا انقطاعٍ، أما هو، فلم يأخذ منّا، والله ولا كوبيكاً زائداً، هل تصدق؟!.

فقال أركادي:

- إنه إنسانٌ نزيهٌ غير أناني.

- غير أناني بالفعل، وأنا، يا أركادي نيكولايفيتش، لا أؤلّهه، فحسب، بل أفتخر به. ومن دواعي اعتزازي، أن ترد ضمن سيرة حياته بمرّ الزمن الكلمات التالية: «ابن طبيبٍ عسكريٍّ بسيطٍ، ولكن أباه، استطاع أن يستكشف مواهبه مبكراً، ولم يبخل بشيءٍ من أجل تربيته...»، قال العجوز ذلك بصوتٍ متقطعٍ.

فشدّ أركادي على يده.

وبعد فترة صمتٍ سأل فاسيلي إيفانوفيتش:

- ماذا ترى؟ سيبلغ الشهرة التي تتنبأ بها له، ليس في مجال الطبّ، أليس كذلك؟

- ليس في مجال الطبّ طبعاً، مع أنه سيكون في هذا الميدان أيضاً، واحداً من ألمع العلماء.

- ففي أيّ مجالٍ، يا أركادي نيكولايفيتش؟

- من الصعب التكهن بذلك حالياً، ولكنه سيكون شهيراً.

- سيكون شهيراً!، كرر العجوز، وغرق في تأملاته.

مرت أنفيسوشكا إزاءهما، حاملةً طبقاً كبيراً من توت العليق اليانع، وقالت:

- أمرتني آرينا فلاسيفنا، أن أدعوكما لاحتساء الشاي.

فانتفض فاسيلي إيفانوفيتش، وقال:

- هل سيقدّم التوت مع القشدة الباردة؟

- أجل، يا سيدي.

- فلتكن باردةً حقاً، لا تعبأ بالرسميات، يا أركادي نيكولايفيتش، خذ المزيد. لماذا لم يحضر يفغيني بعد؟!.

- أنا هنا، دوى صوت بازاروف الذي أطل من غرفة أركادي.

التفت فاسيلي إيفانوفيتش على عجلٍ، وقال:

- أها! أردت أن تزور رفيقك، ولكنك تأخرت (يا صديقي)[105]، فقد كانت لنا معه محادثةٌ طويلةٌ، أما الآن، فينبغي أن نذهب لاحتساء الشاي: أمك تدعونا، وبالمناسبة، فأنا أريد أن أتحدث معك.

- عم؟

- في القرية فلاحٌ يعاني من اليرقان...

- أيّ داء الصفر، أليس كذلك؟

- بلى، إنه يعاني من يرقانٍ مزمنٍ يكاد يكون عضالاً، وقد نصحته بتناول حشيشة القنطريون، وعشبة القديس يوحنا، وأرغمته على أكل الجزر، وأعطيته شيئاً من الصودا، ولكن ذلك كلّه مجرّد أدويةٍ مسكنةٍ، يجب إعطاؤه شيئاً ناجعاً، ومع أنك تسخر

من الطب، فأنا واثقٌ من أنك يمكن أن تقدّم لي نصيحةً حصيفةً؛ لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد، أما الآن، فهيا لتناول الشاي.

نهض فاسيلي إيفانوفيتش نشيطاً من المصطبة، وأنشد بيتين من «روبرت»[106]:

سنشرّع لنا قانوناً، قانوناً

لعيشة سعيـ..سعيـ... سعيدةٍ!

فعلّق بازاروف مبتعداً عن النافذة:

- يا لها من قدرةٍ رائعةٍ على الحياة؟!!

انتصف النهار، وبدت الشمس لافحةً من وراء حجابٍ رقيقٍ من الغيوم البيضاء، كان الصمت يلفع كلّ شيءٍ، ما عدا الديكة التي تتصايح بحماسةٍ في القرية مثيرةً في فؤاد كلّ من يسمعها إحساساً غريباً بالنعاس والضجر.

وفي مكانٍ ما في أعالي الأشجار رنّ، كهتافٍ متباكٍ، نعيق نسرٍ فتيٍّ لجوجٍ.

اضطجع أركادي وبازاروف في ظل كومةٍ غير عاليةٍ من الأعشاب المجففة، بعد أن افترشا حزمتين من حشيشٍ يابسٍ مخشخشٍ، احتفظ بشيءٍ من خضرته وعبقه.

قال بازاروف:

- شجر الحور تلك تذكرني بطفولتي، فهي تنمو على طرف الحفرة التي تبقت من المستودع القرميدي، كنت آنذاك واثقاً من أن لدى الحفرة والشجرة طلسماً خاصاً: فلم أشعر بالضجر أبداً قربهما، ولم أكن أفهم آنذاك، أنني لم أشعر بالضجر؛ لأني كنت طفلاً، أما الآن، فأنا إنسانٌ راشدٌ، ولا يؤثّر عليّ الطلسم.

فسأله أركادي:

- كم من الوقت قضيت هنا؟!

- زهاء عامين متتاليين، وفيما بعد، صرنا نأتي إلى هنا بين حينٍ وآخر، فقد عشنا حياة الترحل، إذ كنا نجوب المدن أكثر من غيرها.

- وهل الدار مبنيةٌ من زمانٍ؟

- نعم. بناها جدّي، والد أمي.

- ومن هو جدّك؟

- الشيطان وحده يعلم، كان رائداً على ما أعتقد، خدم سوفوروف[107]، وكان يتحدث دوماً عن عبورالألب. كان يكذب، ولا بد.

- ولذلك علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال لديكم، إنني أحبّ الدْور الصغيرة العتيقة، والدافئة مثل داركم، ثم إن لها رائحةً خاصةً متميزةً.

فقال بازاروف متثائباً:

- يفوح منها زيت القناديل والحندقوق، أما عن الذباب في هذه الدور الجميلة... فحدّث ولا حرج!

بعد فترةٍ قصيرةٍ سأل أركادي:

- قل لي: هل كنت تتعرض لمضايقاتٍ في الطفولة؟

- أنت ترى والديّ. إنهما ليسا متشددين.

- أنت تحبهما يا يفغيني، أليس كذلك؟

- طبعاً، يا أركادي!

- إنهما متيّمان بك!

لاذ بازاروف بأذيال الصمت، ثم دسّ يديه تحت رأسه، وقال أخيراً:

- هل تحزر بمَ أفكر؟

- كلا. بمَ؟

- أفكر، أن والديّ يعيشان بهناءٍ!!. فأبي في الستين، وهو مشغولٌ بأشغاله، ويتحدث عن الأدوية المسكنة، ويعالج الناس، ويتسامح مع الفلاحين، وباختصارٍ، فهو يعيش حياةً مرحةً، وأمي تعيش بهناءٍ أيضاً، فيومها مشحونٌ بالمشاغل والتأوهات والتحسرات إلى درجةٍ لا تترك لها متسعاً من الوقت لالتقاط النفس، أما أنا....

- وأنت؟

- أما أنا فأفكر: ها أنا ذا أضطجع هنا، في ظلّ الكومة...

والمحل الضيق الذي أشغله هنا ضئيلٌ جداً بالمقارنة مع ما تبقى من المكان؛ حيث أنا غير موجودٍ ولا شأن لأحدٍ بي، ثم إن ذلك القسم من الزمن الذي سأعيشه ضئيلٌ جداً بالمقارنة مع الخلود؛ حيث لم أكن موجوداً ولن أوجد... في حين هذه الذرة، هذه النقطة الهندسية، يدور فيها دمٌ، ويعمل فيها دماغٌ يريد شيئاً ما... فياللفظاعة! ويا للسخف!

- عفواً! إن ما ذكرته ينطبق عموماً على جميع البشر...

فعاجله بازاروف قائلاً:

- أنت على حقٍ. أردت أن أقول أنهما، أعني والديّ، مشغولان، ولا يفكران بتفاهتهما، وهي لا تزكم أنفيهما... أما أنا...

فلا أحس بغير الضجر والغضب.

- الغضب؟ لماذا الغضب؟

- لماذا؟ كيف لماذا؟ فهل نسيت؟!!

- إنني أتذكر كلّ شيءٍ، ومع ذلك لا أعترف بحقك في الغضب، أنت تعيسٌ، لا أجادل في ذلك، ولكن...

- آ! يبدو لي أنك، يا أركادي نيكولايفيتش، تفهم الحبّ مثل جميع الشباب العصريين: تعالي، تعالي يا دجاجة!! ولكن حالما تبدأ الدجاجة بالاقتراب؛ تطلق أنت ساقيك للريح!! لست من هذا الطراز. ولكن كفانا كلاماً عن ذلك، فمن العيب الكلام عما نحن عاجزون عنه -استدار على جنبه- أها! يا للشجاعة هذه النملة التي تجرّ ذبابةً محتضرةً؛ واصلي عملك، يا أختي، واصليه! فبالرغم من مقاومتها؛ انتهزي فرصة كونك، كحيوانٍ، تتمتعين بحقّ عدم الاعتراف بمشاعر المؤاساة، خلافاً للإنسان الذي يحطّم نفسه بنفسه!

- لا يليق بك هذا الكلام يا يفغيني! فمتى حطّمت أنت نفسك؟

رفع بازاروف رأسه، وقال:

- إنني أفتخر بذلك، فما دمت لم أحطم نفسي بنفسي، فلن تحطمني امرأةٌ هذا هو القول الفصل! خلاص! ولن تسمع مني كلمةٌ واحدةٌ عن ذلك بعد الآن.

ظل الصديقان صامتين بعض الوقت.

ثم طفق بازاروف يتكلم:

- أجل، الإنسان كائنٌ غريب الأطوار، عندما تلقي نظرةً جانبيةً، عن بعدٍ على الحياة الصماء التي يعيشها «الآباء»، هنا يخيّل إليك أنه لا أفضل منها! فيكفي أن تأكل وتشرب؛ حتى تتصور بأنك تسلك السلوك الأصوب، والأكثر تعقلاً، كلا! الضجر سيستولي عليك، وبودّ المرء أن يعاشر الناس، ولو اضطر إلى لومهم، فلا بد من المعاشرة.

فقال أركادي متأملاً:

- ينبغي تنظيم الحياة بحيث تكون لكلّ لحظةٍ فيها أهميةٌ.

- لا اعتراض على ذلك، فالشيء المهم حلوٌ بالرغم من الزيف الذي يرافقه أحياناً، ويمكن التسامح حتى مع الأشياء التافهة... ولكن المشاحنات... المشاحنات هي الطامة الكبرى.

- المشاحنات غير موجودةٍ بالنسبة للإنسان، إذا كان لا يريد الاعتراف بها طبعاً.

- احم... لقد قلت الآن عبارةً مبتذلةٌ مضادةً.

- ماذا؟ ما الذي تقصده بهذه التسمية؟

- إليك ما أقصده: إذا قلنا، مثلاً، إنّ التعليم نافعٌ، فتلك عبارةٌ مبتذلةٌ، وإذا قلنا التعليم ضارٌ، فتلك عبارةٌ مبتذلةٌ مضادةٌ، فهي، حسب الظاهر. أكثر أناقةً، ولكنها نفس الشيء في الواقع.

- ولكن أين الحقيقة؟ وفي أيّ جانبٍ هي؟

- أين؟ سأجيبك كالصدى: أين الحقيقة؟

- مزاجك سوداويٌّ اليوم يا يفغيني.

- حقاً؟ لا بد، وأن الشمس قد لفحتني، ثم أنني أكلت الكثير من توت العليق.

- إذن، فلا بأس بأن نغفو قليلاً.

- أجل، ولكن لا تنظر إليّ: فإن وجه أيّ إنسانٍ يبدو بليداً أثناء النوم.

- هل تعير بالاً، لما يفكر به الآخرون عنك؟

- لا أدري بماذا أجيبك، فالإنسان الحقيقي لا ينبغي أن يفكر بذلك، والإنسان الحقيقي ليس هو الذي يفكر فيه الآخرون، بل هو الذي يخضعون له، أو يكرهونه.

- يا للغرابة!! فأنا لا أكره أحداً، قال أركادي بعد أن تفكر قليلاً.

- أما أنا فأكره كثيرين، أنت شخصٌ رقيقٌ رخو العود، فأين منك الكره؟! إنك خجولٌ لا تعول على نفسك كثيراً...

- وأنت؟، قاطعه أركادي، هل تعوّل على نفسك؟ وهل تقدّر نفسك كثيراً؟

لزم بازراوف الصمت فترةً، ثم قال متمهلاً:

- عندما أقابل شخصاً لا يستسلم لي، فسوف أغير رأيي عن نفسي، أما الكره، فإنك، مثلاً، قلت اليوم حينما، مررنا ببيت مختار القرية «فيليب»، - وهو بيتٌ أبيضُ جميلٌ- قلت إن روسيا ستبلغ الكمال عندما تكون لدى أبسط فلاحٍ مثل هذه البناية، وأن على كلّ منا أن يساعد في ذلك... عند ذاك، كرهت أنا هذا الفلاح البسيط، فيليب أو سيدور، الذي يتعين عليّ أن أبذل جهدي من أجله، أما هو، فلن يقدم إليّ حتى كلمة شكرٍ... ثم ما حاجتي إلى شكره؟

حسناً، سيعيش هو في بيتٍ أبيضَ، وسينبت على قبري الشوك، وماذا بعد؟

- كفاك يا يفغيني... من يستمع إليك اليوم، يتفق مرغماً مع أولئك الذين يلوموننا على انعدام المبادئ.

- أنت تتكلم مثل عمّك، ليست هناك مبادئُ إطلاقاً، بل هناك الإحساسات، وكلّ شيءٍ متوقفٌ عليها، وأنت لم تدرك ذلك حتى الآن.

- كيف ذلك؟

- إنه كذلك بالذات، خذني مثلاً: إنني أتمسك باتجاه الرفض، وذلك بحكم الإحساسات، فالرفض يبعث السرور في نفسي، ودماغي مبنيٌّ على هذا الأساس، ذلك كلّ شيءٍ! فما الذي يجعل الكيمياء تعجبني؟ وما الذي يجعلك تحبّ التفاح؟!!، ذلك أيضاً بحكم الإحساسات، فالأمر سواءٌ، ولن يتغلغل البشر إلى أعمق من ذلك أبداً، ولن يقول أيّ كان، وحتى أنا لن أقوله لك مرّةً أخرى.

- والنزاهة هل هي إحساسٌ أيضاً؟

- كيف لا؟!

- يفغيني!!!، شرع أركادي يتكلم بصوتٍ حزينٍ، فقاطعه بازاروف:

- آ؟ ماذا؟ لم يعجبك ذلك؟ كلا، يا أخي! فطالما قررت أن تحشَ كلّ شيءٍ، فحشَ رجليك أيضاً!... وعلـيّ وعلى أعدائي يا رب! ولكننا تمادينا في التفلسف. قال «بوشكين»: «الطبيعة تبعث صمت الكرى».

فاعترض أركادي:

- لم يقل بوشكين شيئاً من هذا القبيل مطلقاً.

- لم يقل، كان باستطاعته، وكان يتعين عليه كشاعرٍ أن يقول ذلك، وبالمناسبة، فقد أدّى خدمته العسكرية، ولا بد.

- لم يكن بوشكين عسكرياً أبداً!

- كيف لا؟ فعلى كلّ صفحةٍ لديه تجد «إلى المعركة! إلى المعركة! دفاعاً عن كرامة روسيا!»[108].

- ما هذه الأساطير التي تبتدعها؟ ذلك افتراءٌ.

- افتراءٌ؟ فليكن! بهذه الكلمة تريد أن تخيفني؟! مهما افترينا على الإنسان، فهو في الواقع يستحق أكثر من ذلك بعشرين مرّةٍ.

- من الأفضل أن ننام!، قال أركادي بزعلٍ.

فأجاب بازاروف:

- بكلّ سرورٍ.

بيد أن النعس لم يراودهما، واجتاح فؤاديهما شعورٌ يكاد يكون عدائياً، وبعد خمس دقائقَ فتحا عيونهما، وتبادلا النظرات صامتين.

ثم قال أركادي فجأةً:

- انظر! انفصلت ورقة إسفندان جافةٌ، وها هي تسقط على الأرض بشكلٍ يشبه كلّ الشبه تحليق الفراشة، أفليس ذلك غريباً؟ إن أكثر الأمور كآبةً، وموتاً شبيهٌ بأكثرها مرحاً وحياةً.

فهتف بازاروف:

- يا صديقي أركادي نيكولايفيتش! أرجو منك شيئاً واحداً:

لا تتكلم على نحوٍ جميلٍ.

- إنني أتكلّم بقدر استطاعتي... ثم إن ذلك تعسفٌ في آخر الأمر، تبادرت إلى ذهني فكرةٌ، فما الذي يمنعني من أن أعرب عنها؟

- هكذا إذن، فما الذي يمنعني أنا أيضاً من أن أعرب عن فكرتي؟ إنني أرى الكلام على نحوٍ جميلٍ أمرٌ معيبٌ.

- فما هو الأمر غير المعيب؟ الشتائم؟

- هه! يبدو لي، أنك تنوي أن تقتفي حقاً آثار عمّك العزيز.

فما أشد فرحة ذلك الأبله، لو أنه سمعك!

- بم وصفت عمي بافل بيتروفيتش؟

- وصفته بما يستحق: بالأبله.

- ذلك أمرٌ لا يطاق!، هتف أركادي.

فقال بازاروف بهدوءٍ:

- أها! ثارت فيك مشاعر القربى، لقد لاحظت أنها راسخةٌ في الناس بتصلبٍ وعنادٍ، فالإنسان مستعدٌّ للتخلي عن كلّ شيءٍ، ولمفارقة كلّ الأوهام، ولكن الاعتراف، مثلاً، بأن أخاه الذي يسرق مناديل الغير لصٌّ، إنما هو فوق طاقته، وبالفعل، فهل يمكن أن لا يكون أخي عبقرياً إذا كان هو أخاً لي بالذات؟..

فاعترض أركادي منفعلاً:

- إن ما ثار فيّ، هو شعور العدالة البسيط، وليس مشاعر القربى، ولكنه طالما؛ أنك لا تفهم هذا الشعور، وليس لديك هذا الإحساس، فليس باستطاعتك أن تحكم عليه.

- وبعبارةٍ أخرى: إن أركادي كيرسانوف فوق مستوى فهمي، لذا أطأطئ رأسي وألوذ بالصمت.

- كفاك، أرجوك يا يفغيني، سوف نتشاجر في آخر الأمر.

- آه يا أركادي! اعمل معروفاً، فلنتشاجر مرّةً كما يرام، حتى النفس الأخير، حتى الإبادة.

- يُخيّل إليّ أننا، على هذا النحو، سننتهي إلى...

فعاجله بازراوف:

-... أن نتلاكم؟ أليس كذلك؟ لا بأس أن نتلاكم هنا، على العشب، في هذا الجو الشاعري بعيداً عن العالم، وعن أنظار الناس، ولكنك لن تقوى علي، فسوف أتشبث بنحرك على الفور....

نشر بازاروف أصابعه الطويلة المتصلبة... واستدار أركادي، واستعدّ للمقاومة مازحاً... لكن وجه صديقه بدا له شريراً، وخُيّل إليه أن خطراً فعلياً يتهدده، في ابتسامة شفتيه الساخرة المصطنعة، وفي عينيه المتوقدتين، مما جعله يحس بوجلٍ لا إرادي...

- أها! هنا اختفيتما!، دوى في تلك اللحظة صوت فاسيلي إيفانوفيتش، جاء الطبيب العسكري العجوز مرتدياً سترةً قطنيةً بيتية الصنع، وقبعةً من القش بيتية الصنع أيضاً، بحثت عنكما

طويلاً... ولكنكما اخترتما مكاناً ممتازاً، وانشغلتما بعملٍ رائعٍ، حيث تتطلعان إلى السماء راقدين على الأرض... أفلا ينطوي ذلك على أهميةٍ خاصةٍ؟!

فقال بازاروف:

- إنني لا أنظر إلى السماء، إلا عندما تنتابني عطسةٌ.، ثم التفت إلى أركادي، وأضاف همساً: من المؤسف أنه حال بيننا، فهمس أركادي، وشدّ على يد صديقه خلسةً:

- كفاك، فإن أية صداقةٍ لن تصمد طويلاً؛ لمثل هذه الاشتباكات.

فقال فاسيلي إيفانوفيتش آنذاك، وهو يهز رأسه، وقد استند بيديه المتصالبتين على عصا معقوفةٍ بتفننٍ صنعها بنفسه، ووضع مقبضاً لها بشكل رأسٍ تركيٍّ معممٍ.

- إنني أتطلع إليكما يا عزيزي، ولا أشبع منكما، فكم فيكما من قوةٍ وشبابٍ مزدهرٍ وقابلياتٍ ومواهبَ! إنكما... مثل كاستوروس وبولوكس[109] بالضبط!

فقال بازاروف:

- ها قد استشهد بالميثولوجيا! واضحٌ تماماً أنك كنت في حينه متضلعاً في اللاتينية! فلقد فزت، على ما أذكر، بالميدالية الفضية لقاء الإنشاء، أليس كذلك؟

- توأمان بالضبط!، قال فاسيلي إيفانوفيتش.

- ولكن كفاك رقةً، يا أبتي.

فقال العجوز:

- ذلك مسموحٌ به مرّةً في العمر، وبالمناسبة، فقد بحثت عنكما أيها السيدان؛ لا لأعبر لكما عن المجاملات، بل لأخبركما، أولاً: بأننا سنتناول طعام الغداء قريباً، وثانياً: أردت أن أحذرك يا يفغيني..

فأنت إنسانٌ ذكيٌّ تعرف الناس، والنساء كذلك، لذا فسوف تتسامح... أرادت أمك أن تؤدي مراسيم الصلاة بمناسبة مجيئك، ولا تتصور بأني أدعوك لحضور هذه المراسيم، فقد انتهت، ولكن الأب «ألكسي»...

- خوري؟

- أجل. الخوري سوف... يتغدى عندنا... لم أكن أتوقع ذلك، حتى أني نصحته بعدم... ولكني لم أنجح... فهو لم يفهمني... ثم إن

آرينا فلاسيفنا... علماً بأنه إنسانٌ متعقلٌ، وفي منتهى الطيبة.

فسأل بازاروف:

- لن يأكل حصتي من الغداء، أليس كذلك؟

فقال فاسيلي إيفانوفيتش ضاحكاً:

- كيف؟

- أنا لا أطالب إذن، بأكثر من ذلك، وأنا مستعدٌّ للجلوس إلى المائدة مع أيّ كان.

عدّل فاسيلي إيفانوفيتش قبعته، وقال:

- أنا واثقٌ مسبقاً، من أنك أعلى مستوى من جميع الخرافات، فحتى أنا العجوز في سني الثانية والستين أخلو من تلك الخرافات، لم يتجرأ فاسيلي إيفانوفيتش على الاعتراف؛ بأنه نفسه رغب في أداء الصلاة... كان متديناً لا أقل من زوجته، أما الأب ألكسي فقد كان راغباً أشد الرغبة في التعرف عليك، وسوف يعجبك، سترى ذلك بنفسك، وهو لا يعتذر عن لعب الورق... حتى أنه... وهذا سرٌّ بيننا... يدخن غليوناً.

- ما العمل؟ سنلعب القمار بعد الغداء، وسوف أغلبه.

- هيه، من يعشْ يرَ! فتلك مسألةٌ فيها نظرٌ.

- ماذا؟ هل تستعيد ذكريات الماضي؟، سأل بازاروف بنبرةٍ متعمدةٍ، فاحمرت وجنتا فاسيلي إيفانوفيتش البرونزيتان على نحوٍ مبهمٍ، وقال:

- عيبٌ عليك يا يفغيني... ما فات فات. نعم، أنا مستعدٌّ للاعتراف، أمام أركادي نيكولايفيتش؛ بأنني كنت مولعاً بذلك في فتوتي، نعم، ولكنني دفعت الثمن! ما أشد حرارة الجو، اسمحا لي أن أجلس قربكما. فلن أثقل عليكما، أليس كذلك؟

- مطلقاً، أجاب أركادي.

ارتمى فاسيلي إيفانوفيتش على العشب متأوّهاً، ثم طفق يتكلم:

- مضجعكما الحالي، يا سيديّ الجليلين، يذكرني بحياتي في المخيمات العسكرية، ومراكز التضميد في مكانٍ ما قرب أكوام العشب، وكان ذلك في أحسن الأحوال، وندت عنه تنهيدةٌ، فلقد اجتزت كثيراً من المحن في حياتي، وعلى سبيل المثال أحدثكما، إذا سمحتما، عن وباء الطاعون في «بيسارابيا».

فعاجله بازاروف قائلاً:

- ذلك الذي مُنحت وسام فلاديمير من أجله؟ نعرف ذلك جيداً... وبالمناسبة فلماذا لا تحمل الوسام؟

- قلت لك بأني، لا أعبأ بالخرافات، دمدم فاسيلي إيفانوفيتش، وهو الذي أمر يوم أمس فقط بانتزاع شريط الوسام الأحمر من سترته، وراح يتحدث عن وباء الطاعون، ثم همس لأركادي بغتةً، وهو يشير إلى بازاروف، وقد غمز بطيبة قلبٍ:

- لقد غفا، ثم أضاف بصوتٍ عالٍ:

- يفغيني! انهض! فلنذهب لتناول الغداء...

اتضح أن الأب ألكسي، وهو رجلٌ مكتنزٌ مرموقٌ بشعره الكثيف الممشط بدقةٍ، وزناره المطرز على غفّارته الحريرية البنفسجية، يتحلّى بقدرٍ كبيرٍ من المهارة والفطنة، فقد بادر إلى مصافحة أركادي وبازاروف، وكأنه يدرك مسبقاً بأنهما ليسا بحاجةٍ إلى تبريكاته، وقد تصرف عموماً بلا تكلفٍ، فلم يفضح نفسه، ولم يمسّ الآخرين، وقد سخر على نحوٍ مناسبٍ من اللغة اللاتينية المدرسية، ودافع عن أسقفه، وارتشف قدحين من النبيذ، ورفض القدح الثالث، وتناول من أركادي سيجاراً، ولكنه لم يدخنّه، بل قال إنه سيأخذه معه إلى البيت، كان شيءٌ واحدٌ لا يبعث على الارتياح فيه، وهو أنه يرفع يده ببطءٍ وحذرٍ بين حينٍ وآخر؛ ليتصيد الذباب على وجهه، ثم يهرسه أحياناً، وقد جلس إلى المائدة الخضراء؛ معبراً عن ارتياحه باعتدالٍ، وانتهى إلى أن غلب بازاروف روبلين وخمسين كوبيكاً ورقية: فإن عائلة آرينا فلاسيفنا

لم تكن تعرف الحساب بالنقود الفضية... جلست الأم، كعادتها إزاء ابنها، ولم تساهم في لعب الورق، فأسندت خدها بقبضتها كالسابق، ولم تكن تنهض، إلا لكي تأمر بإحضار صنفٍ جديدٍ من أصناف الطعام.

كانت تخشى مداراة بازاروف الذي لم يبدر منه ما يشجعها على المداراة، ثم إن فاسيلي إيفانوفيتش نصحها هو الآخر؛ بأن لا تزعج ابنها كثيراً، وأكد لها إن الشباب لا يرغبون في ذلك، ولا داعي للكلام عن غداء ذلك اليوم، فقد ارتحل تيموفييتش بنفسه منذ الفجر؛ لكي يقتني لحم بقرٍ من نوح تشيركاسي خاصٍ، وتوجه مختار القرية إلى جهةٍ أخرى؛ لاقتناء سمك البربوط والراف والسرطان، وتسلمت الفلاحات اثنين وأربعين كوبيكاً نحاسياً لقاء الفطر وحده، بيد أن عيني آرينا فلاسيفنا المتطلعين إلى بازاروف على الدوام، لم تعبّرا عن الولاء والحنان وحدهما، فقد لاحت فيهما كآبةٌ ممزوجةٌ بالفضول والرعب، ولاح فيهما شيءٌ من العتاب الرادع.

وبالمناسبة فقد كان بازاروف في شغلٍ شاغلٍ عن تفحّص ما تعبر عنه عينا أمّه، فكان نادراً ما يخاطبها، ويطرح عليها سؤالاً ما موجزاً، طلب منها أن تقدّم له يدها، كفألٍ حسنٍ في لعب الورق، فوضعت يدها الرقيقة بهدوءٍ على راحته الواسعة المتصلبة.

وبعد قليلٍ سألته:

ـ ماذا؟ هل أعانك ذلك؟

فأجاب بابتسامةٍ ساخرةٍ مستهينةٍ:

ـ أصبح الأمر أسوأ.

فقال الأب ألكسي متظاهراً بالتأسف، ومسّد لحيته الجميلة:

ـ إنه يجازف كثيراً.

فتدخل فاسيلي إيفانوفيتش الذي لعب بالآس قائلاً:

ـ تلك قاعدةٌ نابيليونيةٌ، يا أبانا، قاعدة نابليون.

فقال الأب ألكسي، وهو يغطي الآس بورقة القشوش الرابحة:

ـ إنها هي تلك التي قادته إلى جزيرة سانت هيلانة[110].

وسألت آرينا فلاسيفنا:

ـ ألا ترغب في عصير عنب الثعلب، يا ينيوشا؟!!

فاكتفى بازاروف في أن هزّ كتفيه.

في اليوم التالي قال لأركادي:

ـ كلا! سأرتحل غداً. لقد ضجرت، أريد أن أعمل، ولكن العمل هنا مستحيلٌ، سأذهب إلى قريتكم من جديدٍ، فقد تركت جميع

مستحضراتي عندكم، هناك يمكنني أن أنفرد على الأقل، أمّا هنا، فإن أبي يؤكد لي: «مكتبي تحت تصرفك، ولن يشوش عليك أحدٌ»، ولكنه هو بالذات لا يفارقني لحظةً. ثم إن انفرادي عنه أمر لا يليق، وأمي هي الأخرى... فأنا أسمعها تتنهد من وراء الجدران، وعندما أخرج إليها، لا أجد ما أقوله لها.

فقال أركادي:

- سوف تتألم هي كثيراً، وهو أيضاً.

- سأعود إليهما مرّةً أخرى.

- متى؟

- في طريقي إلى بطرسبورغ.

- إنني متأسفٌ لأمك خصوصاً.

- ماذا؟ هل اشترتك بالثمار؟

غضّ أركادي بصره.

- أنت لا تعرف أمك جيداً يا يفغيني، فهي ليست امرأةً رائعةً فقط، بل هي ذكيةٌ جداً في الواقع. تحدّثت معي زهاء نصف ساعةٍ صباح اليوم، وكان حديثها حصيفاً ممتعاً.

- لا بد، وأنها تحدثت عني طوال الوقت، أليس كذلك؟

- لم يكن الحديث عنك وحدك.

- ربما، أنت أعرف، وما دامت المرأة تستطيع أن تتجاذب أطراف الحديث، طوال نصف ساعةٍ، فتلك دلالةٌ حسنةٌ، ومع ذلك سأرتحل.

- لن يكون سهلاً عليك أن تخبرهما بهذا النبأ، فهما يتحدثان دوماً عما سنفعله هنا بعد أسبوعين.

- ليس سهلاً، كيف أغواني الشيطان أن أتحرش بأبي هذا اليوم؟ كان قد أمر مؤخراً؛ بضرب أحد فلاحيه العاملين بالجزية، وحسناً فعل. أجل، أجل، لا تنظر إليّ مستفظعاً، حسناً فعل، فذاك الفلاح لصٌّ وسكيرٌ رهيبٌ، لكن أبي لم يكن يتوقع مطلقاً، بأني سأسمع بذلك، لقد ارتبك أشد الارتباك، أما أنا، فسوف أضطر إلى إيلامه زيادةً على ذلك... ولكن لا بأس! هذا أمرٌ يمكن تحمله.

قال بازاروف «لا بأس!»، ولكنه لم يتجرأ على إشعار فاسيلي إيفانوفيتش بنيّته إلا بعد مرور يومٍ كاملٍ، فبعد أن ودّعه أخيراً في المكتب، قال بتثاؤبةٍ متصنعةٍ:

- آ،... كدت أنسى أن أقول لك... فليرسلوا خيولنا غداً إلى فيدوت لتستريح عنده[111].

دهش فاسيلي إيفانوفيتش:

- ماذا؟ هل يغادرنا السيد كيرسانوف؟

- أجل، وأنا معه.

تبدلت سحنة فاسيلي إيفانوفيتش في الحال:

- أنت تنوي السفر؟

- أجل... عليّ أن أرحل. أرجو أن تأمرهم بخصوص الخيول.

فقال العجوز متلعثماً:

- حسناً... سنرسل الخيول لتستريح... حسناً... ولكن، ولكن... كيف ذلك؟

- عليّ أن أرحل إليه لوقتٍ قصيرٍ، وسأعود إلى هنا فيما بعد.

- أجل! لوقتٍ قصيرٍ... حسناً، أخرج فاسيلي إيفانوفيتش منديله، وتمخط منحنياً حتى كاد يلامس الأرض، ما العمل؟. سيكون ذلك... جاهزاً. ظننت أنك ستبقى عندنا... أمداً أطول، فإن ثلاثة أيامٍ... بعد ثلاث سنواتٍ... شيءٌ قليلٌ، قليلٌ، يا يفغيني!

- أقول لك: إني سأعود قريباً، من الضروري أن أرحل.

- ما دام ذلك ضرورياً... فما العمل؟. ينبغي أداء الواجب قبل كلّ شيءٍ... إذن سنرسل الخيول، أليس كذلك؟!! حسناً، بديهي أننا، أنا وآرينا، لم نتوقع ذلك.

فهي، قد طلبت زهوراً من جارتها، وأرادت أن تزيّن غرفتك، لم يذكر فاسيلي إيفانوفيتش شيئاً عن أنه، كان ينهض من بزوغ الفجر كلّ صباحٍ، ويجتمع إلى تيموفييتش، وقوفاً، ورجلاه في حذائه دون جواربَ، ويخرج بأصابعه المرتعشة ورقةً نقديةً باليةً إثر أخرى، فيكلفه؛ باقتناء مختلف المشتريات، مؤكداً بصورةٍ خاصةٍ على الأطعمة والنبيذ الأحمر الذي أُعجب به الشابان أشدّ إعجابٍ كما يبدو، الحرية أهم شيءٍ، وتلك هي قاعدتي... فلا ينبغي التضييق على أحدٍ... لا...

وصمت فجأةً، ثم اتجه نحو الباب.

- سنلتقي قريباً، يا أبتي، أعدك.

إلا أن فاسيلي إيفانوفيتش لوّح بيده يائساً، وخرج دون أن يلتفت، عاد إلى غرفة النوم، فوجد زوجته في الفراش، وأخذ يصلي همساً كيلا يوقظها، لكنها استيقظت، وسألته:

- هذا أنت، يا فاسيلي إيفانوفيتش؟

- نعم، أيتها الأمّ!

- هل أنت قادمٌ من ينيوشا؟ أتدري؟ أخشى أن لا ينام نوماً هادئاً على الأريكة، طلبت من أنفيسوشكا أن تفرش له حشيتك

السفرية، ووسائدَ جديدةٍ، وبودي أن أعطيه حشيتنا الريش، ولكنه، على ما أذكر، لا يحب الفراش الوثير.

- لا تقلقي، أيتها الأم، فهو مرتاحٌ، يا إلهي، امح خطايانا، واعف عنا، واصل صلاته بصوتٍ خفيضٍ، لقد رأف فاسيلي إيفانوفيتش بعجوزه، فلم يخبرها في الليل بالمصيبة التي ستلمّ بها.

سافر بازاروف وأركادي في اليوم التالي، خيّمت الكآبة على كلّ من في الدار منذ الصباح، كانت صحونٌ قد تساقطت من يدي أنفيسوشكا، وحتى فيدكا تحيّر، وانتهى إلى أن خلع جزمته.

كان فاسيلي إيفانوفيتش مضطرباً أكثرمن أيّ وقتٍ مضى؛ كان يتمالك نفسه على ما يبدو، ويتكلم بصوتٍ مرتفع، ويطقطق برجليه، لكن وجهه قد ذبل وذوى، وصارت نظراته تتجنب ولده. انتحبت آرينا فلاسيفنا بخفوتٍ، وكادت تستسلم للحيرة، وعدم ضبط النفس، لدرجةٍ أكبر لولا أن صرف زوجها في الصباح الباكر ساعتين كاملتين في إقناعها، وتهدئتها.

وبعد أن تخلّص بازاروف، أخيراً، من اليدين اللتين طوقتاه، وقطع وعوداً متكررةً؛ بأنه سيعود في وقتٍ لا يتجاوز الشهر مطلقاً، وصعد إلى العربة، وتزحزحت خيولها، ودقّ جرسها الصغير، وتحركت عجلاتها، ولم يعد هناك داعٍ لملاحقتها

بالنظرات، فسكن الغبار الذي أثارته، وعاد تيموفييتش مَحني الظهر كلياً، يجر قدميه مترنحاً في مشيته إلى غرفته الصغيرة، وبعد أن ظل العجوزان وحيدين في دارهما التي بدت، هي الأخرى، منكمشةً هرمةً على نحوٍ مباغتٍ، وارتمى فاسيلي إيفانوفيتش الذي كان قبل بضع لحظاتٍ يلوّح بمنديله متماسكاً في مدخل الدار، على الكرسي، وتدلى رأسه على صدره، وتمتم: تركنا، تركنا، ضجر منا، وبقي الآن وحيداً، وحيداً، كالأصبع!، كرر هذا القول مراراً، وكان في كلّ مرة يدفع بيده إلى الأمام، وسبابته منتصبةٌ، وعند ذاك اقتربت منه آنا فلاسيفنا، ومالت برأسها الأشيب إلى رأسه الأشيب أيضاً، وقالت: ما العمل يا فاسيلي! الابن كسرةٌ مقطوعةٌ من رغيفٍ، وهو كالصقر يحطّ متى يشاء، ويحلّق متى شاء، أما نحن، فمثل نبتتين من الفطر عند تجويفٍ في جذع شجرةٍ، نجلس جنباً إلى جنب، ولا نتزحزح من مكاننا، لكنني سأظل مخلصةً لك إلى الأبد؛ مثلما أنت مخلصٌ لي..

ورفع فاسيلي إيفانوفيتش يديه عن وجهه، وعانق زوجته، ورفيقة حياته بشدةٍ، لم يعانقها بمثلها حتى في زمن الشباب، فقد خففت عليه أحزانه.

22

وصل صاحبانا إلى فيدوت صامتين، فلم يتبادلا إلا كلماتٍ لا شأن لها، بين الحين والآخر، لم يكن بازاروف راضياً عن نفسه تماماً، وما كان أركادي راضياً عنه، زدْ على ذلك أنه أحس بكآبةٍ لا مبرر لها تعتصر قلبه، وهي كآبةٌ لا يعرفها إلا من هم في ريعان الصبا، استبدل الحوذي الخيول، وصعد إلى مقعده، وسأل: إلى اليمين أم الشمال؟

ارتعش أركادي؛ الطريق إلى اليمين يؤدي إلى المدينة، ومنها إلى داره، أما الطريق إلى الشمال فيؤدي إلى أودينتسوفا.

التفت إلى بازاروف، وسأله:

- يفغيني، إلى الشمال؟

فأشاح بازاروف بوجهه، ودمدم:

- ما هذه الحماقة؟

فأجاب أركادي:

- أنا أعرف أنها حماقةٌ. لا ضير في ذلك، فهل هذه هي حماقتنا الأولى؟

خفض بازاروف عمرته، حتى غطت جزءاً من جبهته، ثم قال أخيراً:

- كما تشاء.

فصاح أركادي:

- إلى الشمال!

أسرعت العربة باتجاه نيكولسكويه، إلا أن الصديقين اللذين قررا اقتراف تلك الحماقة، قد صمتا بعنادٍ أشد من السابق؛ حتى لكأنهما حانقان.

أدركا من كيفية استقبال كبير الوصفاء لهما، في مدخل دار أودينتسوفا، أنهما تصرفا بغير حكمةٍ، عندما انصاعا لفكرةٍ راودتهما على حين غرّةٍ، فمن الواضح أن أحداً ما لم يكن يتوقع قدومهما. انتظرا طويلاً في غرفة الاستقبال، واكتسى وجهاهما بمسحةٍ من البلادة، وأخيراً حضرت أودينتسوفا، رحّبت بهما بلطفها المعتاد، لكنها دهشت لعودتهما السريعة، ولم تكن، كما بدا من تباطؤ حركاتها ولهجتها، في غاية السرور لذلك، وأسرع الشابان للإعلان بأنهما عرّجا عليها في طريقهما إلى المدينة التي سيتوجهان إليها بعد زهاء أربع ساعاتٍ، فاكتفت هي؛ بأن تأوّهت

متعجبةً بعض الشيء، ورجت أركادي أن ينقل تحياتها إلى أبيه، وبعثت في طلب خالتها.

حضرت الأميرة ناعسةً، مما أضفى مزيداً من الحنق على ملامح وجهها الهرم المتغضن، وكانت كاتيا متوعكةً، فلم تغادر غرفتها، أحس أركادي فجأةً، بأنه راغبٌ في رؤية كاتيا، كما في رؤية آنا سيرغييفنا سواءٌ بسواءٍ على أقل تقديرٍ، انقضت الساعات الأربع في أحاديثَ لا أهمية لها عن كيت وكيت، وكانت آنا سيرغييفنا تستمع، وتتكلم دون أن تبتسم، ولم تتحرك المشاعر الودية السابقة في فؤادها، على ما يبدو، إلا خلال الوداع، حيث قالت:

- انتابتني الكآبة في الآونة الأخيرة، ولكن لا تهتما بذلك، تعالا إليّ معاً بعد حينٍ من الزمن.

ردّ عليها بازاروف وأركادي بانحناءةٍ صامتةٍ، وصعدا إلى مركبتهما، واتجها إلى البيت في مارينو دون أن يتوقفا في أيما مكانٍ.

وصلا بسلامٍ في مساء اليوم التالي، وطوال الطريق كلّه لم يذكر لا هذا، ولا ذاك حتى اسم أودينتسوفا، ولم يفتح بازاروف

على الخصوص فمه طوال الوقت تقريباً؛ حيث راح يتطلع بقساوةٍ متوترةٍ إلى جانبي الطريق.

سرّ الجميع في مارينو، لوصولهما غاية السرور، فإن غياب أركادي ذلك الأمد الطويل أخذ يقلق نيكولاي بتروفيتش الذي هتف، وطبطب برجليه، وتقافز على الأريكة عندما ركضت إليه فينيتشكا بعينين براقتين، وأعلنت عن وصول «السيدين الشابين».

وحتى بافل بتروفيتش أحس ببعض الاضطراب المفرح، وابتسم متسامحاً، وهو يشد على يدي الجوالين العائدين، وبدأت الأحاديث والتساؤلات، وتكلم أركادي أكثر من غيره، وخصوصاً أثناء العشاء الذي استمر لأمدٍ طويلٍ بعد منتصف الليل، أمر نيكولاي بتروفيتش؛ بتقديم بضع قنانٍ من جعة البورتر المركزة التي جلبت لتوّها من موسكو، وأفرط هو في الشراب، حتى غدت وجنتاه قرمزيتين، وراح يضحك بقهقهةٍ فيها شيءٌ من ضحك الأطفال أو الضحك العصبي، واجتاحت الفرحة الخدم أيضاً، فكانت دونياشا تتراكض إلى هنا وهناك كالمهووسة، وهي تصفق الأبواب بين الحين والآخر، وحاول بيوتر، حتى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، أن يعزف فالس القوزاق على القيثارة. كانت الأوتار تنوح بلطفٍ في الجو الجامد، ولكن الوصيف المتعلم لم يعزف أي شيءٍ على ما يرام، ما عدا بعض النغمات الأولية

القصيرة: فالطبيعة لم تمنحه موهبةً موسيقيةً، ولا أية موهبةٍ أخرى.

بيد أن الحياة في مارينو، لم تكن تجري على نحوٍ طيبٍ تماماً، كانت حالة نيكولاي بتروفيتش المسكين تسوء أحياناً، وكانت الهموم في المزرعة تزداد من يومٍ لآخر، وهي همومٌ مشوشةٌ لا تبعث على السرور، وغدا التعامل مع الأجراء أمراً لا يطاق، فالبعض منهم يطالبون بتصفية الحساب، أو زيادة الأجور، بينما يترك البعض الآخر العمل مستأثراً بالرعبون، كانت الخيول عرضةً للأمراض، وعدّتها تتلف بلمح البصر، كانت الأعمال تنفذ من دون إتقانٍ، واتضح أن الآلة الدرّاسة التي جلبت من موسكو غير صالحةٍ بسبب ثقلها، أما الآلة الأخرى، فقد أصابها العطب منذ تشغيلها للمرة الأولى، واحترق نصف حظيرة الماشية؛ لأن عجوزاً عمياءَ من الخدم خرجت أثناء هبوب الريح تحمل جذوةً لتدخين بقرتها... غير أن هذه العجوز نفسها أكدت؛ بأن سبب المصيبة؛ هو نيّة السيد في استحداث أجبانٍ وألبانٍ لا مثيل لها، وعلى حين غرّةٍ انتاب الكسل وكيل المزرعة، حتى أنه أخذ يترهل كما يترهل كلّ روسيّ يعيش في بحبوحةٍ، وحالما يرى نيكولاي بتروفيتش قادماً من بعيدٍ يلقي بخشبةٍ على خِنّوص يمرّ راكضاً قربه، أو يهدد غلاماً شبه عارٍ، وذلك؛ ليبين له جده واجتهاده، لكنه

في الواقع كان ينام أكثر الأوقات، ولم يكن الفلاحون العاملون بالجزية يدفعون النقود في الموعد المحدد، وكانوا يسرقون الأخشاب، وفي كلّ ليلةٍ تقريباً كان الحرس يتصيدون خيول الفلاحين ترعى في مروج «المزرعة»، وأحياناً كانوا يقتادونها منهم بعراكٍ، وقد فرض نيكولاي بتروفيتش غرامةً نقديةً على إتلاف المزروعات، لكن الأمور تنتهي عادةً بأن تصرف تلك الخيول يوماً أو يومين في حظيرة السيد، ثم تعاد إلى أصحابها، زدْ على ذلك أن الفلاحين أخذوا يتشاجرون فيما بينهم؛ صار الأخوة يطالبون بالتقسيم، ولم تستطع زوجاتهم أن يتعايشن في منزلٍ واحدٍ، وكان العراك ينشب بينهم فجأةً، فيعمّ هرجٌ ومرجٌ على حين غرّةٍ كما لو أن أحداً قد أمر بذلك، ويهرع الجميع إلى مدخل المكتب مندفعين إلى السيد مخمورين بوجوهٍ مخدشةٍ في الغالب وهم يطالبون بمحاكمةٍ وعقابٍ، وترتفع ضجةٌ وعويلٌ، وتختلط صأصأة النسوة المنتحبات بشتائم الرجال، كان يتعين الفصل بين الأطراف المتعادية، ولا بد من الصياح؛ حتى يبحَّ الصوت، مع أن الصائح يعلم مسبقاً أنه لا يمكن التوصل إلى حلٍّ صائبٍ. لم تكن الأيدي العاملة كافيةً لجمع الغلة: فالفلاح الغني الوسيم المجاور، وعد بأن يحضر الحاصدين مقابل روبلين عن كلّ هكتارٍ، ولكنه خدع نيكولاي بتروفيتش بدناءةٍ. وطالبت فلاحاتُ السيد أجوراً

مرتفعةً للغاية، بينما أخذ القمح يتناثر من السنابل، أخفق الحصاد، في حين صار مجلس الوصاية يهدد، ويطالب بدفع الفائدة المئوية، بالتمام والكمال فوراً...

كان نيكولاي بتروفيتش يكرر بقنوطٍ:

- خارت قواي! ليس بوسعي أن أعارك، ولا أستطيع الاستنجاد بالشرطة، فالمبادئ تحول دون ذلك، بينما لن ينجز أحدٌ شيئاً من دون الخوف من العقاب!

- (هدوءاً، هدوءاً)[112]، كان بافل بتروفيتش يجيبه، ولكنه هو نفسه يدمدم، ويعبس وينتف شاربيه.

أما بازاروف، فكان بعيداً عن هذه «المشاحنات»، بل وما كان مضطراً، كضيفٍ، أن يتدخل في شؤون الغير، فمنذ اليوم التالي لوصوله إلى مارينو انهمك بمعالجة ضفادعه ونقاعياته ومستحضراته الكيمياوية، وصرف الوقت كلّه في ذلك، في حين رأى أركادي، على العكس، أن من واجبه أن يساعد أباه، أو أن يتظاهر على الأقل بالاستعداد لمساعدته.

كان يستمع إليه بصبرٍ، وقدّم له ذات مرّةٍ نصيحةً، لا لكي يعمل بها أحدٌ، بل لكي يعلن عن مساهمته بشكلٍ ما، ولم يكن تدبير أمور المزرعة؛ ليثير اشمئزازه، فهو يحلم بارتياحٍ بممارسة

النشاط الزراعي، بيد أن أفكاراً أخرى شغلت باله آنذاك، كانت أفكار أركادي - ويا لدهشته هو!!- تحوم طوال الوقت حول نيكولسكويه، كان في السابق يكتفي بهزّ الكتفين، لو أن أحداً قال له: بأنه يمكن أن يشعر بالضجر من العيش مع بازاروف تحت سقفٍ واحدٍ، ناهيك عن سقف الوالدين، أمّا الآن، فقد غدا ضجراً حقاً، وصار شيءٌ ما يدعوه إلى بعيدٍ، قرر أن يتمشّى حتى الإرهاق، لكن ذلك لم يجده نفعاً، تحدث مع أبيه نيكولاي بتروفيتش ذات مرّةٍ، فعلم أن لديه بضع رسائلَ ممتعةٍ جداً كانت قد بعثت بها أم أودينتسوفا إلى المرحومة زوجته منذ زمانٍ بعيدٍ، ولم يتركه، وشأنه إلا بعد أن تسلّم منه تلك الرسائل التي اضطرّ نيكولاي بتروفيتش، على التفتيش عنها في زهاء عشرين من الأدراج والصناديق المختلفة، وعندما غدا أركادي مالكاً لهذه الوريقات البالية، استقرّ بعض الشيء، كما لو تراءى له الهدف الذي يتعيّن عليه بلوغه، وصار يهمس بلا كللٍ «لقد قالت بنفسها: تعالا إليّ معاً... سأسافر، سأسافر، وليكن ما يكون!»، لكنه يتذكّر الزيارة الأخيرة والاستقبال الفاتر، وارتباكه السابق، فيعتريه الوجل، وأخيراً سيطرت عليه «عسى ولعل»، ورغبة الشباب الخفية، في تذوق طعم سعادته، وتجربة قواه على انفراجٍ من دون أية وصايةٍ مهما كان مصدرها، لم تمضِ على عودته إلى مارينو عشرة أيام؛

حتى عاد من جديدٍ إلى المدينة، بحجة دراسة نظام مدارس الآحاد[113]، ومن هناك عرّج على نيكولسكويه، كان يستعجل الحوذي بلا انقطاعٍ وهو ينهب الدرب إلى هناك، كضابط شابٍّ توّجه إلى المعركة؛ كان مرتعباً مرحاً، وهو ينتظر الوصول بفارغ الصبر، ويؤكد لنفسه «الأمر الأهم هو أن لا أفكر بشيءٍ»، وقد وقع اختياره على حوذيٍّ مغوارٍ، كان يتوقف أمام كلّ حانةٍ قائلاً: «هل نتجرع؟» أو «فلنتجرع!»، ولكنه بعد أن «يتجرع» لا يعود يرأف بالجياد، وها قد لاح أخيراً السقف العالي لتلك الدار المعروفة... وفكر أركادي على الفور: «ماذا فعلت؟ ولكن لا مجال للعودة!»، وراحت الخيول الثلاث تنهب الدرب بوئامٍ، والحوذي يستحثها بصفيره.

ها هو الجسر الصغير، قد جلجل تحت السنابك والعجلات، وها هو ممشى أشجار الشوح الحليقة المقلمة... ومرق فستانٌ نسائيٌّ ورديٌّ وسط الخضرة الداكنة، وتطلّع وجهٌ فتيٌّ من تحت أهداب مظلةٍ خفيفةٍ... إنها كاتيا، عرفها وعرفته، أمر أركادي الحوذي بوقف الخيول المنطلقة، فقفز من المركبة، واقترب منها، فقالت بعد أن احتقن وجهها كلّه بالتدريج: «هذا أنت! فلنذهب إلى أختي، إنها هنا، في البستان، وسوف تسرّ لرؤيتك».

اقتادت كاتيا أركادي إلى البستان، وكان اللقاء معها فألاً حسناً جداً، كما خُيّل إليه، فقد سّر لها كما لو كانت من أهله.

وجرت الأمور على أروع ما يكون: من دون كبير الوصفاء، ومن دون مراسيم، ففي منعطف الممشى لمح آنا سيرغييفنا التي كانت واقفةً، وظهرها إليه، وعندما سمعت الخطى استدارت بهدوءٍ.

كاد أركادي يرتبك من جديدٍ، إلا أن أولى الكلمات التي فاهت بها، جعلته يهدأ في الحال، «مرحباً، أيها الهارب!»، قالت بصوتها المتناسق الحنون، وتوجهت للقائه باسمةً؛ بعينين شبه مغمضتين من الشمس والريح: «أين عثرت عليه يا كاتيا؟».

فبدأ هو كلامه:

- جئت إليك، يا آنا سيرغييفنا، بشيءٍ لا تتوقعينه أبداً...

- جئت إليّ بنفسك، وهذا أفضل شيءٍ.

23

كان بازاروف، قد ودّع أركادي، متأسفاً متهكماً، ولمّح له بأنه لا يمكن أن يُخدع قيد أنملةٍ بخصوص الهدف الحقيقي لهذه الزيارة، ثم اعتكف نهائياً، حيث انتابته حمى العمل، لم يعد يتجادل

مع بافل بتروفيتش، لا سيما وإن هذا صار، يتخذ بحضوره هيئةً أرستقراطيةً مفرطةً، ويعرب عن آرائه بأصواتٍ متقطعةٍ أكثر مما بكلماتٍ، ومرّةً واحدةً فقط، كاد بافل بتروفيتش ينخرط في مساجلة مع النهلستي؛ بصدد المسألة الشائعة آنذاك عن حقوق نبلاء منطقة البلطيق[114]، لكنه توقف فجأةً، وقال بتأدبٍ فاترٍ:

- على كلّ حالٍ، ليس بوسعنا أن نفهم بعضنا بعضاً، فأنا، على أقل تقديرٍ، عاجزٌ عن أن أتشرف بفهمك.

- كيف لا؟!، هتف بازاروف، الإنسان قادرٌ على فهم كلّ شيءٍ؛ حتى اختلاج الأثير، وما يحدث على الشمس، لكنه عاجزٌ عن أن يفهم كيف يتمخط إنسانٌ آخرُ بشكلٍ يختلف عن تمخطه هو.

فقال بافل بتروفيتش متسائلاً:

- هل هذا شيءٌ ظريفٌ؟، وانزوى جانباً، بيد أنه كان في بعض الأحيان يستأذن من بازاروف لحضور تجاربه، حتى أنه ذات مرّةٍ، قرّب وجهه المعطر، والمضمخ بعقاقيرَ ممتازةٍ من المجهر؛ لكي يرى كيف التهمت نقاعيةٌ شفافةٌ ذرةً خضراءَ، وانشغلت بمضغها بواسطة قبضاتٍ صغيرةٍ ورشيقةٍ جداً موجودةً في حلقومها، إلا أن نيكولاي بتروفيتش أكثر من أخيه تردداً على بازاروف. كان بودّه أن يحضر كلّ يومٍ للتعلم، على حدّ تعبيره،

لولا مشاغل المزرعة الذي تلهيه، ولم يكن يضايق الباحث الشاب، فهو ينزوي في أحد أركان الحجرة، ويتطلع بانتباهٍ، ونادراً ما يسمح لنفسه بطرح سؤالٍ متهيبٍ. وكان يسعى أثناء تناول طعام الغداء والعشاء إلى توجيه الكلام نحو الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء، وذلك لأن جميع الأمور الأخرى، حتى ما يتعلق منها بشؤون المزرعة، ناهيك عن المسائل السياسية، يمكن أن تؤدي إلى عدم ارتياح الطرفين، إن لم نقل إلى الصدامات بينهما، وقد خمن نيكولاي بتروفيتش؛ أن حقد أخيه على بازاروف لم يتقلص قيد شعرةٍ، ثم إن حادثةً تافهةً، من بين الحوادث العديدة الأخرى، قد أكدت تخمينه هذا.

أخذت الكوليرا تظهر في بعض الأماكن المجاورة، بل، وانتزعت اثنين من سكان مارينو نفسها. وذات ليلةٍ تعرّض بافل بتروفيتش لنوبةٍ شديدةٍ، تعذب حتى الصباح، ولكنه لم يلجأ إلى خدمات بازاروف، وعندما رآه في اليوم التالي، وسأله بازاروف، لماذا لم يرسل في طلبه؟ أجابه، وهو لا يزال شاحباً كلياً، ولكنه تنظّف جيداً، وحلق ذقنه: ألمْ تقلْ بنفسك، على ما أتذكر، إنك لا تؤمن بالطبّ؟. مرت الأيام على هذا المنوال، وكان بازاروف يعمل بمثابرةٍ وتجهّمٍ... في حين تضم دار نيكولاي بتروفيتش

كائناً؛ بوسعه أن يروّح عن بازاروف همومه، وعلى الأصح أن يتجاذب معه أطراف الحديث بسرورٍ... وهذا الكائن هو فينيتشكا.

كان يتقابل معها في أغلب الحالات أثناء الصباح الباكر في البستان أو في الباحة. لم يكن يتردد على غرفتها، ولم تكن هي تقترب من غرفته إلا مرّةً واحدةً، سألته فيها عند الباب عما إذا كان يتعيّن عليها أن تغسل ميتيا أم لا؟! كانت تثق به، ولا تخشاه، بل كانت تتصرف بحضوره دون تكلّفٍ، وبطلاقةٍ أكثر مما بحضور نيكولاي بتروفيتش نفسه، ومن الصعب معرفة السبب في ذلك. لعلها كانت تحسّ بصورةٍ لا شعوريةٍ أن بازاروف خالٍ مما يميز النبلاء، من كلّ ما هو رفيعٌ يستهويها، ويخيفها في الوقت ذاته. لقد كان هو في أنظارها؛ طبيباً ممتازاً، وإنساناً بسيطاً سواءٌ بسواءٍ. كانت لا تشعر بالضيق من وجوده، وهي تداري طفلها. ذات مرّةٍ أخذ الدوار برأسها فجأةً وأصابها الصداع، فتلقت من يده ملعقة الدواء، كانت، بحضور نيكولاي بتروفيتش، كالغريبة على بازاروف: ولم تكن تفعل ذلك بسبب الدهاء، بل بشعورٍ من اللياقة لا أكثر، وصارت تخشى بافل بتروفيتش أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فقد أخذ منذ حينٍ يراقبها، ويظهر بغتةً وراء ظهرها، كما لو انفطرت عنه الأرض ببدلته الإنجليزية، ووجهه العبوس الجامد، ويديه المخبأتين في جيبيه، ولقد تشكّت فينيتشكا إلى دونياشا قائلةً:

«تنتابني الرجفة منه»، فأجابت دونياشا بتنهيدةٍ، وراحت تفكر بإنسانٍ آخرَ «خالٍ من العواطف». لقد غدا بازاروف، دون علمٍ منه، طاغيةً قاسياً سيطر على فؤادها.

كانت فينيتشكا معجبةً ببازاروف، وكان هو معجباً بها، حتى أن سحنة وجهه تتغير، عندما يتحدث إليها: فتكتسب تعبيراً صافياً يكاد يكون طيّباً، ويختلط بإهماله المعتاد شيءٌ من الاهتمام الملفع بالفكاهة. كانت فينيتشكا تزداد جمالاً من يومٍ لآخرَ، ففي حياة النساء الشابات تصادف مرحلةٌ يبدأن فيها بالازدهار، والتفتح كورود الصيف، وقد حلّت هذه المرحلة بالنسبة لفينيتشكا، فكلّ شيءٍ يساعد على ذلك، حتى قيظ يوليو الذي خيّم آنذاك. كانت ترتدي فستاناً خفيفاً أبيضَ؛ تبدو فيه أكثر بياضاً وخفةً، ولم تكن السمرة لتعلق ببشرتها، في حين صبغ الحرّ الذي لم تستطع أن تحتمي منه وجنتيها وأذنيها بالحمرة، وأضفى على جسدها كلّه سكوناً هادئاً، وصار ينعكس في عينيها الجميلتين؛ بشكل فتورٍ ناعسٍ. لم تعد قادرةً على ممارسة أيما عملٍ تقريباً، كانت يداها تكادان تلتصقان بركبتيها، وكادت تكفّ عن المشي، فصارت تتأوّه وتتشكى بعجز لعوبٍ.

كان نيكولاي بتروفيتش يقول لها:

- من الأفضل أن تستحمي كثيراً.

أنشأ مسبحاً واسعاً، فوقه ظلةٌ من قماشٍ سميكٍ في واحدة من بركه التي لم ينضب ماؤها بعد.

- آه، يا نيكولاي بتروفيتش! يموت الإنسان، قبل أن يصل إلى البركة، وعندما يعود منها يموت أيضاً، فالبستان خالٍ من الظلال.

- حقاً، ليست هناك ظلالٌ، يجيبها نيكولاي بتروفيتش، ويمسح حاجبيه.

ذات مرّةٍ عاد بازاروف من جولته في الساعة السابعة صباحاً، فوجد فينيتشكا في تعريشة الليلاك التي ذوت زهورها من زمانٍ، لكنها ظلت كثيفةً خضراءَ. كانت جالسةً على المصطبة، وقد لفّت رأسها، كعادتها، بمنديلٍ أبيضَ، وقربها حزمةٌ كبيرةٌ منورودٍ حمراءَ وبيضاءَ، لا تزال نديةً. حياها فقالت:

- آ! يفغيني فاسيليفيتش!

ورفعت طرف منديلها، لكي تلقي نظرةً عليه، فتعرت يدها حتى المرفق.

- ماذا تفعلين هنا؟ تضفرين باقةً؟، سأل بازاروف، وجلس قربها.

- أجل، باقةٌ لمائدة الفطور، نيكولاي بتروفيتش يحبّ ذلك.

- الفطور لا يزال بعيداً. ما أكثر هذه الورد!

- قطفتها الآن، لأن من الصعب الخروج فيما بعد بسبب الحرّ، فالآن فقط يمكن أن نتنسّم الهواء. أصابني ضعفٌ شديدٌ من هذا الحرّ. وأخشى أن أمرض بسببه.

- ما هذه الأوهام؟! دعيني أجسّ نبضك، التقط بازاروف يدها، وبحث عن العرق، فوجده يدقّ بانسجامٍ؛ حتى أنه لم يحسب دقاته، ثم قال:

- ستعيشين مئة عامٍ.

- آه، الله يستر!، هتفت فينيتشكا.

- لماذا؟ ألا تريدين أن تعيشي طويلاً؟

- مئة عامٍ! هذا كثيرٌ! جدتنا بلغت الخامسة والثمانين.

فما كان أعظم آلامها! غدت سوداءَ صماءَ حدباءَ تسعل طوال الوقت، كانت عالة على نفسها، فما نفع هذه الحياة؟!

- تفضلين البقاء شابةً، أليس كذلك؟

- وإلا فما الداعي لذلك؟

- ما هي أفضلية الشباب؟ خبريني!

- كيف؟ فأنا الآن، شابةٌ أستطيع ان أفعل كلّ شيءٍ بنفسي، أروح وأغدو، وأحضر ما يلزم، ولا أحتاج طلب المعونة من أحدٍ... فهل هناك أفضل من ذلك؟

- أما أنا، فسيّان لدي، شاباً كنت أم شيخاً.

- كيف تقولون سيّان؟ ما تقولونه أمرٌ مدهشٌ.

- احكمي بنفسك يا فينيتشكا، ما نفع فتوتي؟ إنني أعيش وحيداً، أعزبَ...

- ذلك يتوقف عليكم دوماً.

- ليس عليّ... تلك هي القضية! حبّذا لو رأف أحدٌ بحالي.

ألقت فينيتشكا نظرةً جانبيةً على بازاروف، ولم تقل شيئاً.

وبعد فترة صمتٍ سألته:

- ما هذا الكتاب الذي معكم؟!!

- هذا؟ كتابٌ علميٌّ معقدٌ.

- هل تدرسون طوال الوقت؟ ألا يضجركم ذلك؟ يخيل إليّ أنكم تعرفون كلّ شيءٍ.

- ليس كلّ شيءٍ، على ما يبدو. هاك، اقرأي قليلاً.

- لن أفهم من ذلك ذرةً. هل هو كتابٌ روسيٌّ؟، سألت فينيتشكا، وهي تتلقى بيديها المجلد الثقيل، ما أثقله!

- روسيٌّ.

- لن أفهم منه شيئاً مع ذلك.

- لا أقصد بأن تفهمي، أريد فقد أن أتطلع إليك عندما تقرأين، فأثناء ذلك تتحرك أرنبة أنفك بشكلٍ لطيفٍ جداً.

ضحكت فينيتشكا، وتركت الكتاب بعد أن كانت قد تهيأت؛ لتقرأ بصوتٍ خافتٍ المقالة التي فتحته عليها، وهي عن «خلاصة القطران»... فانزلق الكتاب من المصطبة إلى الأرض، فقال بازاروف:

- يعجبني كذلك أن أراك تضحكين.

- ماذا تقولون؟

- ويعجبني أن أسمعك تتكلمين، كخرير جدولٍ.

أشاحت فينيتشكا بوجهها، ثم قالت، وهي تمسّ الورد بأصابعها:

- ما حاجتكم إلى الاستماع إليّ؟ لقد دارت أحاديث بينكم، وبين نساءٍ نبيلاتٍ ذكياتٍ.

- آه، يا فينيتشكا، صدقيني إن كلّ النبيلات الذكيات في العالم، لا يساوين مرفقك.

- ماذا تقولون؟، همست فينيتشكا، وضغطت يديها إلى بدنها.

رفع بازاروف الكتاب من الأرض.

- هذا كتابٌ طبيٌّ، لماذا ألقيت به؟

- طبيّ؟!!، سألت فينيتشكا، واستدارت نحوه، هل تعلمون؟ ميتيا ينام نوماً هانئاً، منذ أن أعطيتموني تلك القطرات، هل تذكرون؟ لا أدري كيف أشكركم على ذلك، ما أطيبكم!

فقال بازاروف ساخراً:

- في الحقيقة يجب الدفع للأطباء. فهم، كما تعلمين، أناسٌ نفعيون.

رفعت فينيتشكا إلى بازاروف عينيها، فبدتا أكثر سواداً؛ بسبب الانعكاس الضارب إلى البياض، والذي وقع على القسم العلوي من وجهها، ولم تكن تعرف ما إذا كان جادّاً أم مازحاً.

- إذا أردتم، فنحن على كلّ استعدادٍ... سأطلب من نيكولاي بتروفيتش....

- تظنين بأني أريد نقوداً؟، قاطعها بازاروف، كلا، إنني أريد منك شيئاً غير النقود.

- ماذا إذن؟، سألت هي.

- ماذا؟ احزري، قال بازاروف.

- كيف لي أن أحزر؟!

- إذن، فسأقول لك: إنني أريد... واحدةً من هذه الورد.

ضحكت فينيتشكا من جديدٍ؛ حتى أنها ضربت كفاً على كفٍّ، فقد بدت لها أمنية بازاروف مسليةً للغاية، كانت تضحك، وتشعر في الوقت نفسه؛ بأن ذلك إطراءٌ لها. وكان بازاروف يحدق فيها.

وقالت أخيراً بعد أن انحنت على المصطبة، وراحت تنقّي الورد:

- تفضلوا، تفضلوا، أية وردةٍ تريدون حمراءَ أم بيضاءَ؟

- حمراء وغير كبيرةٍ جداً.

عدّلت من قامتها، وقالت:

- خذوا.

ولكنها، سرعان ما سحبت يدها الممدودة، وعضت على شفتيها، ونظرت إلى مدخل التعريشة، ثم أخذت تتسمع، فسأل بازاروف:

- ماذا؟ هل هو نيكولاي بتروفيتش؟

- كلا... ذهب إلى الحقل... ثم إنني لا أخشاه... ولكن بافل بتروفيتش... خُيل إليّ...

- ماذا؟

- خُيل إليّ أنه هو الذي يتمشى هنا. كلا... لا أحد، خذوا، سلمت فينيتشكا الوردة إلى بازاروف.

- لماذا تخافين من بافل بتروفيتش؟

- إنه يخيفني دوماً، لا يقول شيئاً، ولكنه ينظر إليّ بغموضٍ، ثم إنكم أيضاً لا تحبونه، هل تذكرون كيف كنتم في السابق تتجادلون معه، لا أدري عم كنتم تتجادلون، ولكني رأيت كيف تتلاعبون به هكذا، ثم هكذا...

أومأت فينيتشكا بيديها إلى كيفية تلاعب بازاروف ببافل بتروفيتش، كما خُيّل إليها.

ضحك بازاروف، ثم سألها:

- لو فرضنا أنه تفوّق عليّ، فهل كنت ستدافعين عني؟

- كيف لي أن أدافع عنكم؟ كلا، لن يقوى عليكم أحدٌ.

- حقاً؟ أما أنا، فأعرف يداً تستطيع أن تقهرني بأصبعٍ واحدٍ إذا أرادت.

- أية يدٍ هذه؟

- ألا تعرفينها؟ شمي هذه الوردة التي أعطيتنيها.

اشرأبت فينيتشكا، وقرّبت وجهها من الوردة... انزلق المنديل من رأسها على الكتفين، ولاح خضمٌ ناعمٌ من الشعر الأسود اللامع المشعث بعض الشيء.

- تمهّلي، أريد أن أشمها معك، قال بازاروف، وانحنى عليها فطبع قبلةً شديدةً على شفتيها المتفتحتين. ارتعدت، وأنشبت كلتا يديها في صدره، لكن مقاومتها كانت ضعيفةً، فتسنى له أن يكرر قبلته، ولأمدٍ أطول.

تعالى سعالٌ جافٌ من وراء الليلاك. ابتعدت فينيتشكا إلى طرف المصطبة الآخر بلمح البصر، وبان بافل بتروفيتش، فانحنى قليلاً، وقال بكآبةٍ حاقدةٍ: أنتما هنا، ثم ابتعد. التقطت فينيتشكا كلّ الورد في الحال، وخرجت من التعريشة هامسةً:

«حرام يا يفغيني فاسيليفيتش»، ورنت في همسها ملامةٌ غير منفعلةٍ.

تذكر بازاروف المشهد الآخر مع أودينتسوفا، فأنّبه ضميره، وشعر بكآبةٍ وبشيءٍ من الاحتقار. لكنه نفض رأسه على الفور، وهنّأ نفسه ساخراً «على الانتماء الرسمي إلى سلك العشاق»، وتوجه إلى غرفته.

أما بافل بتروفيتش، فقد خرج من البستان، ووصل إلى الغابة بخطاه المتباطئة، ظل هناك أمداً طويلاً، وعندما عاد؛ لتناول الفطور سأله نيكولاي بتروفيتش بكلّ اهتمامٍ عن صحته، فقد غدا وجهه في غاية القتامة، وأجاب بافل بتروفيتش بهدوءٍ:

- أنت تعلم، بأني أعاني أحياناً من داء الصفراء.

24

بعد زهاء ساعتين طرق بافل بتروفيتش باب بازاروف.

- استميحك عذراً، لأني ألهيك عن مشاغلك العلمية، قال، وجلس على كرسيٍّ قرب النافذة، واستند بكلتا يديه إلى عصا ذات مقبضٍ من العاج، وهو يتمشى عادةً من دون تلك العصا

- لكنني مضطٌر؛ لاستعطافك بأن تخصص لي من وقتك خمس دقائقَ... لا أكثر.

- وقتي كلّه في خدمتك، أجاب بازاروف، وقد تبدلت سحنته؛ حالما اجتاز بافل بتروفيتش عتبة بابه.

- تكفيني خمس دقائقَ، جئت لأطرح عليك سؤالاً.

- عمّ، يا ترى؟!

- تفضل واستمع، أول ما حللت أنت في دار أخي، عندما لم أكن قد حرمت نفسي من متعة التحدث معك، تعيّن عليّ أن أستمع إلى محاججاتك بشأن العديد من الأشياء، ولكن الكلام، بقدر ما أتذكر، لم يتناول بيننا، ولا بحضوري أبداً مسألة المنازلات، والمبارزة عموماً. فاسمح، لي أن أعرف رأيك بهذا الخصوص.

كان بازاروف الذي نهض، لاستقبال بافل بتروفيتش في البداية، قد جلس على طرف الطاولة، وكتَّف يديه، فقال:

-إليك رأيي؛ المبارزة سخافةٌ من الناحية النظرية، ولكنها شيءٌ آخر من الناحية العملية.

- يعني تريد أن تقول، إذا كنت قد فهمتك جيداً، إنك لن تسمح لأحدٍ في الواقع، بأن يهينك دون أن تطالب بمبارزته، بالرغم من

رأيك النظري بهذا الخصوص، أليس كذلك؟

- لقد حزرت فكرتي تماماً.

- حسنا جداً يا سيدي، يسرني كلّ السرور، أن أسمع ذلك منك، كلماتك تنقذني من المجهول.

- تريد أن تقول: من التردد.

- الأمر سيّان يا سيدي، إنني أتكلم بالشكل الذي يفهمني به الآخرون، فأنا... لست من جرذان المدارس والكليات، كلماتك تحررني من بعض الضروريات المحزنة، لقد صممت على أن أتبارز معك.

جحظت عينا بازاروف:

- معي أنا؟

- معك بالذات.

- معذرةً، لأيّ سببٍ؟

فواصل بافل بتروفيتش كلامه:

- بوسعي أن أوضح لك السبب، ولكنني أفضل السكوت عليه، إنك برأيي، شخصٌ نافلٌ هنا، وأنا لا أطيق وجودك، إنني أحتقرك، وإذا كان ذلك لا يكفيك...

لمعت عينا بافل بتروفيتش... والتهبت عينا بازاروف أيضاً، فقال مدمدماً:

- حسناً جداً يا سيدي، لا داعي للمزيد من التوضيح، لقد راودك وهمٌ؛ بأن تجرّب عليّ فروسيتك، وبوسعي أن أرفض منحك هذه المتعة، ولكن لا بأس، فليكن!

- إنني ممتنٌ لك كلّ الامتنان، أجاب بافل بتروفيتش، ويمكنني الآن، أن آمل بأنك تتقبل التحدي دون أن تحملني على اللجوء إلى إجراءات العنف.

- أي اللجوء إلى هذه العصا، إذا تكلمنا من دون مجازٍ، أليس كذلك؟، سأل بازاروف ببرودٍ، ذلك عين الصواب، فليس هناك مطلقاً ما يدعوك إلى إهانتي، ثم إن ذلك ليس من دون مخاطرَ. بوسعك أن تظل جنتلماناً... وأنا أتقبّل تحديك، كما يفعل الجنتلمان أيضاً.

- حسناً، قال بافل بتروفيتش، ووضع العصا في ركن الغرفة، سنذكر الآن بضع كلماتٍ بشأن شروط مبارزتنا، ولكن بودي أن أعرف أولاً: ما إذا كنت ترى ضرورةً للجوء إلى شكليات الخصام البسيط الذي يمكن أن يغدو حجةً للتحدي.

- كلا، الأفضل من دون شكلياتٍ.

- وأنا من هذا الرأي أيضاً، ويُخيّل إليّ كذلك أن لا داعي للتعمّق في الأسباب الحقيقية لنزاعنا، فنحن لا نطيق بعضنا البعض، فهل من داعٍ إلى المزيد؟!

- حقاً، هل من داعٍ إلى المزيد؟! كرر بازاروف متهكّماً.

- أما بخصوص شروط المبارزة، فبحكم عدم وجود شاهدين لدينا... من أين لنا العثور عليهما؟

- أجل، من أين لنا العثور عليهما؟!!

- فإنني أتشرف بأن أقترح عليك ما يلي: نتبارز غداً في وقتٍ مبكرٍ، في السادسة مثلاً، وراء الأجمة، بمسدسين، وعلى مسافة عشر خطواتٍ...

- عشر خطواتٍ؟ يعني أننا نحقد على بعضنا البعض بقدر هذه المسافة.

- من الممكن ثماني خطواتٍ، قال بافل بتروفيتش.

- ممكن. لمَ لا؟!

- نطلق الرصاص مرتين، وتحوّطاً للطوارئ، يضع كلّ منا في جيبه رسالةً، يلقي فيها على نفسه مسؤولية وفاته.

- ذلك ما لا أوافق عليه تماماً، قال بازاروف، إنه يشبه الروايات الفرنسية، ولا يطابق الواقع.

- ربما، ولكن ليس من المريح التعرض لتهمة القتل، أليس كذلك؟

- أجل، ولكن هناك وسيلةٌ لتلافي هذه الملامة الكئيبة، لن يكون لدينا شاهدان رسميان، ولكن من الممكن إحضار شاهدٍ عاديٍّ واحدٍ.

- من هو يا ترى؟

- بيوتر.

- أي بيوتر هذا؟

- وصيف أخيك، إنه شخصٌ ارتقى إلى مستوى التعلم العصري، وهو يؤدي واجبه بكلّ ما تتطلبه هذه الحالات من لياقةٍ.

- يخيل إليّ أنك تمزح يا سيدي الجليل.

- أبداً، إذا ناقشت اقتراحي ستتأكد من أنه اقتراحٌ وجيهٌ وبسيطٌ، فتلك مسألةٌ لا يمكن إخفاء آثارها، أما بيوتر فأتعهد بإعداده بالشكل اللازم، وإيصاله إلى ساحة المعركة.

- إنك لا تزال تمزح، قال بافل بتروفيتش ناهضاً، ولكن بعد الاستعداد الذي أبديته متفضلاً لا يحق لي أن أعترض عليك... وهكذا دبرنا كلّ شيءٍ... وبالمناسبة هل لديك مسدسان؟

- من أين لي، يا بافل بتروفيتش؟ فأنا لست عسكرياً.

- اذن أقترح أن تستخدم مسدسيّ، وكن على ثقةٍ؛ بأنني لم أستعملهما منذ خمس سنواتٍ.

- هذا نبأٌ يبعث على السرور؛ لدرجةٍ كبيرةٍ.

التقط بافل بتروفيتش عصاه...

- لا يتبقى عليّ، أيها السيد الجليل، بعد ذلك إلا أن أشكرك، وأتركك تعود إلى أشغالك. يشرفني أن أنحني مودعاً.

- إلى لقاءٍ سعيدٍ، يا سيدي الجليل، قال بازاروف مودعاً ضيفه.

خرج بافل بتروفيتش، فوقف بازاروف أمام الباب لحظةً، ثم هتف فجأةً: «تفو! يا للشيطان!! ما أجمل ذلك!، وما أغباه! أية ملهاةٍ مثّلنا؟! الكلاب المدربة ترقص على قوائمها الخلفية، بهذا الشكل، وما كان بالإمكان الرفض، فلربما سوّلت له نفسه أن يضربني، وعند ذاك... شحب لون بازاروف، لهذه الفكرة، وفارت

فيه عزّة النفس، عند ذاك سأكون مضطراً إلى خنقه كقطٍّ صغيرٍ، عاد إلى مجهره، لكن قلبه يتفطر، وفارقه الهدوء اللازم للمراقبة والبحث».

وفكر في نفسه: «لقد رآنا اليوم، ولكن هل يدافع عن أخيه حقاً؟ ثم ما أهمية القبلة؟ لا بد، وأن هناك سبباً آخر. يا إلهي! أليس هو مغرماً بها؟! بالطبع، بالطبع. أمرٌ واضحٌ وضوح النهار، ما أحرج الموقف! شيءٌ فظيعٌ! فظيعٌ من كلّ الوجوه... ينبغي أن أعرض جبيني للرصاص، وأن أسافر على كلّ حالٍ. هذا أولاً، ثم هناك أركادي... وهذا الحمل الوديع نيكولاي بتروفيتش، شيءٌ فظيعٌ، فظيعٌ».

مرّ النهار بهدوءٍ باهتٍ أكثر من المعتاد، واختفى أثر فينيتشكا، وكأنما لم تكن موجودةً في هذا العالم، قبعت في غرفتها كفأرةٍ في جحر، وبدا نيكولاي بتروفيتش مهموماً، فقد ورده نبأ ظهور داء السناج في قمحه الذي علق عليه آماله بخاصةٍ، وكان بافل بتروفيتش بمجاملته الجليدية ثقيلاً على الجميع، حتى على بروكوفيتش، بدأ بازاروف بتحرير رسالةٍ إلى أبيه، ولكنه مزقها وألقى بها تحت الطاولة، وفكر في نفسه «إذا مت فسوف يعلمان، ولكنني لن أموت، فسوف أجول طويلاً في هذا العالم»، طلب من بيوتر أن يأتي إليه عند بزوغ فجر الغد، من أجل قضيةٍ هامةٍ،

وتصوّر بيوتر أن بازاروف يريد أن يصطحبه إلى بطرسبورغ، خلد بازاروف إلى النوم في ساعةٍ متأخرةٍ، وأخذت أحلامٌ مشوشةٌ تعذبه طوال الليل... كانت أودينتسوفا تدور أمامه، وكانت هي أمه في الوقت نفسه، وتبعتها قطةٌ ذات شواربٍ سوداءَ، وهذه القطة هي فينيتشكا، وبدا له بافل بتروفيتش بشكل دغلٍ كثيفٍ عليه أن يتبارز معه من كلّ بدٍّ، أيقظه بيوتر في الرابعة صباحاً، فارتدى ملابسه على الفور، وخرج معه.

كان الصباح منعشاً رائعاً، وكانت السحابات صغيرةً متموجةً تتناثر على زرقةٍ صافيةٍ وشاحبةٍ، واستقر ندىً رقيقٌ على الأوراق والأعشاب، وبيوت العناكب، وصار يلمع كالفضة، لاحت الأرض الندية القاتمة، وكأنها تحتفظ بآثار الفجر الحمراء، وكانت أغاريد القبّرات تصدح من كلّ أرجاء السماء. بلغ بازاروف الأجمة، فجلس في الظل على طرفها، وعند ذاك، فقط كشف لبيوتر عن الخدمة التي ينتظرها منه، ارتعب الوصيف حتى الموت، ولكن بازاروف هدّأ من روعه؛ مؤكداً له، بأنه ليس عليه إلا أن يقف بعيداً، ويتطلع، وبأنه لا يتحمل أية مسؤوليةٍ، وأضاف قائلاً: ولكن فكّر أنت، أيّ دورٍ ستضطلع به!. أشار بيوتر بيديه إشارةً يائسةً، وأطرق برأسه ممتقعاً شاحباً، واستند إلى جذع بتولا.

الطريق من مارينو يلتف حول الغابة الصغيرة، وهو مغطىً بغبارٍ خفيفٍ لم تمسه عجلةٌ، ولا رجلٌ منذ يوم أمس، كان بازاروف ينظر عفوياً إلى طول هذا الطريق، ويقتلع عشباً، ويقضمه ويفكر في نفسه مكرراً: يا للغباوة!، وجعله برد الصباح يرتعش مرتين أو ثلاثاً... نظر إليه بيوتر بكآبةٍ، فاكتفى بازاروف بابتسامةٍ ساخرةٍ، فهو ليس جباناً.

تهادى وقع سنابكٍ على الطريق... ولاح فلاحٌ من وراء الأشجار، كان يقود حصانين معقلين أمامه، وعندما مرّ قرب بازاروف نظر إليه نظرةً غريبةً دون أن يرفع قبعته، الأمر الذي حيّر بيوتر باعتباره فألاً غير حسنٍ، وفكر بازاروف في نفسه لقد نهض هذا مبكراً أيضاً، ولكنه على الأقل من أجل العمل، أما نحن فلأيّ غرضٍ؟.

- يُخيّل إليّ أنه قادمٌ، يا سيدي، همس بيوتر فجأةً.

رفع بازاروف رأسه، فرأى بافل بتروفيتش في سترةٍ خفيفةٍ مخططةٍ بمربعاتٍ وسروالٍ ناصعٍ كالثلج، كان يسير مسرعاً في الطريق، وقد تأبّط صندوقاً مغلفاً بقماشٍ أخضرَ.

- معذرةً، فقد جعلتكما تنتظران على ما أظن، قال منحنياً لبازاروف في البداية، ثم لبيوتر الذي غدا في تلك اللحظة يحترم

فيه شيئاً من قبيل الشاهد، ما أردت إيقاظ وصيفي.

-لا بأس. لقد وصلنا نحن أيضاً للتوّ، أجاب بازاروف.

- آ! حسناًَ!، تلفت بافل بتروفيتش حواليه، لا أحد هناك، لن يعيقنا أحدٌ... هل نبدأ؟

- أجل.

- أعتقد أنك لا تطالب بإيضاحاتٍ جديدةٍ؟

- كلا.

- هل تريد أن تشحنهما؟، سأل بافل بتروفيتش، وهو يخرج المسدسين من الصندوق.

- كلا. اشحنهما بنفسك، أما أنا، فسأقيس المسافة، رجلاي أطول، أضاف بازاروف ساخراً واحد، اثنان، ثلاثة...

- يفغيني فاسيليفيتش، تمتم بيوتر بصعوبةٍ، إذ كان يرتعش كالمحموم، الأمر لكما، سأبتعد.

- أربعة... خمسة... ابتعد، يا أخي، ابتعد، يمكنك أن تقف وراء شجرةٍ، بل وسدّ أذنيك، ولكن لا تغمض عينيك، وحالما يسقط أحدنا، اركض نحوه، وارفعه. ستة... سبعة... ثمانية... توقف بازاروف، وقال مخاطباً بافل بتروفيتش:

- كفايةً؟ أم أضيف خطوتين؟

- كما تشاء - قال ذاك، وهو يعبئ الرصاصة الثانية.

- إذن فلنضف خطوتين أخريين، ورسم بازاروف بطرف جزمته خطين على الأرض، ها هما الخطان الفاصلان، وبالمناسبة فكم خطوةً ينبغي، لكلٍّ منا أن يبتعد عن خطه؟ هذه مسألةٌ هامةٌ أيضاً، ولكننا لم نناقشها بالأمس.

- عشر خطواتٍ على ما أعتقد، أجاب بافل بتروفيتش، وقدّم كلا المسدسين إلى بازاروف، تفضّل بالاختيار.

- حسناً، ولكن ألا توافقني يا بافل بتروفيتش، على أن مبارزتنا غريبةٌ إلى حدٍّ مضحكٍ، انظر إلى الوجه البليد لشاهدنا، مثلاً.

- أنت ترغب في المزاح دوماً، أجاب بافل بتروفيتش، إنني لا أنكر غرابة مبارزتنا، ولكنني أرى من واجبي، أن أحذرك، بأني أنوي المبارزة بكلّ جدٍّ، فليسمع كلّ من لديه آذان![115].

- هيه! لا يخامرني شكٌّ، في أننا عزمنا على إبادة بعضنا البعض، ولكن ما الذي يمنعني من الضحك والتوفيق بين (المنفعة والمسرة)[116]؟ هكذا إذن: تكلمني بالفرنسية! وأكلمك باللاتينية.

- سأتبارز بكلّ جدّ، كرر بافل بتروفيتش القول، واتجه إلى مكانه، وحسب بازاروف من جهته عشر خطواتٍ عن خطه، وتوقف، فسأله بافل بتروفيتش:

- هل أنت مستعدٌّ؟

- تماماً.

- يمكننا أن نتقارب.

تحرّك بازاروف بهدوءٍ إلى الأمام، فاتجه بافل بتروفيتش نحوه، وقد دسّ يده اليسرى في جيبه، ورفع فوهة المسدس بالتدريج... ففكر بازاروف «إنه يهدف نحو أنفي مباشرةً، ويفعل ذلك بكلّ عنايةٍ، يا لَه من قاطع طريقٍ! ولكن ذلك إحساسٌ غير مُسرٍ. الأفضل أن أتطلع إلى سلسلة ساعته...». صرّ شيءٌ ما بحدّةٍ قرب إذن بازاروف، ودوت إطلاقةٌ في اللحظة ذاتها، وخطرت في ذهنه فكرةٌ: «ما دمت قد سمعت فلا خطر هناك»، خطا خطوةً أخرى، وضغط على الزناد دون تهديف.

ارتجف بافل بتروفيتش رجفةً خفيفةً، وأمسك فخذه بيده، وشخب الدم على بنطاله الأبيض.

ألقى بازاروف المسدس جانباً، وهرع إلى خصمه، فسأله:

- هل جرحت؟

فقال بافل بتروفيتش:

- كان من حقك، أن تدعوني إلى الخط الفاصل، أما الجرح، فهو طفيفٌ لكلّ منا حسب الشروط، حقٌّ في إطلاقةٍ أخرى.

- ولكن معذرةً، فلنؤجل ذلك إلى المرة التالية، أجاب بازاروف، وأسند بافل بتروفيتش الذي بدأ لونه يشحب، فأنا الآن لست مبارزاً، بل أنا طبيبٌ، عليّ قبل كلّ شيءٍ أن أفحص جرحك. بيوتر! تعال إلى هنا. بيوتر! أين اختفيت؟

فقال بافل بتروفيتش بصوتٍ متقطعٍ:

- كلّ ذلك سخفٌ... أنا لست بحاجةٍ إلى معونة أحدٍ. ينبغي... مرةً أخرى...، أراد أن يمسك بشاربه، ولكن قواه خارت، فغارت عيناه، وفقد وعيه.

- يا للغرابة! إغماءٌ! لأي سببٍ؟، هتف بازاروف، وهو يضع بافل بتروفيتش على العشب فلننظر ماذا حدث؟، أخرج منديلاً، ومسح الدم وتحسس الجرح... ودمدم: العظم سليمٌ، والرصاصة اخترقت اللحم سطحياً، ولم تتلف إلا عضلة vastus externus. سيكون بوسعه أن يرقص بعد ثلاثة أسابيعَ!.. ومع ذلك أغمي عليه! يا لَهؤلاء الناس العصبيين! ما أشد نعومة بشرتهم!

- هل قتل يا سيدي؟ حفّ صوت بيوتر اللاهج وراء ظهره، فالتفت بازاروف:

- أحضر قليلاً من الماء، يا أخي، بسرعةٍ، أما هو، فسيعيش أطول من عمرك وعمري.

إلا أن الخادم العصري المكتمل لم يفهم كلماته، على ما يبدو، فظل واقفاً دون حراكٍ. فتح بافل بتروفيتش عينيه ببطءٍ، فهمس بيوتر: إنه يحتضر!! وراح يرسم علامة الصليب.

- أنت على حقٍّ... يا لَه من وجهٍ بليدٍ! قال السيد الجريح بابتسامةٍ مكرهةٍ.

- اذهب لإحضار الماء، يا للشيطان!، صاح بازاروف.

- لا داعي... كان ذلك مجرّد (دوار)[117] للحظةٍ...

ساعدني في الجلوس... هكذا... يكفي لفّ هذا الخدش بشيءٍ ما، وعند ذاك سأذهب إلى المنزل ماشياً، وإلا فيمكن إرسال عربةٍ مكشوفةٍ، أما المبارزة، فيمكن ألا تستأنف إذا شئت، لقد تصرفت بنبلٍ... هذا اليوم، اليوم فقط، لاحظ ذلك.

- لا داعي لتذكر الماضي، قال بازاروف، أما المستقبل، فلا داعي كذلك، لتدويخ الرأس بشأنه، لأنني أنوي الارتحال دون

إبطاءٍ، دعني أضمد لك رجلك الآن، جرحك لا خطر فيه، ومع ذلك من الأفضل وقف النزيف، ولكن من الضروري في بادئ الأمر إعادة الوعي إلى بيوتر.

هزّ بازاروف بيوتر من ياقته، وأرسله لإحضار العربة.

فقال له بافل بتروفيتش:

- احذر، لا ترعب أخي، وإياك أن تخبره.

أسرع بيوتر راكضاً، لإحضار العربة، بينما جلس كلا الخصمين على الأرض، ولزما الصمت، حاول بافل بتروفيتش ألا ينظر إلى بازاروف، فلم يكن راغباً في التصالح معه، رغم كلّ شيءٍ، كان خجلاً من غطرسته، ومن إخفاقه، كان خجلاً من هذه البدعة التي اختلقها، مع أنه كان يشعر بأنها لن تنتهي على نحوٍ أفضل مما انتهت إليه، وراح يهدّئ نفسه: «لن يبقى هنا على الأقل، والحمد لله». استمر الصمت ثقيلاً مرهقاً، وكان كلاهما في حالةٍ سيئةٍ، كان كلّ منهما يدرك أن الآخر يفهمه، وهذا الإدراك أمرٌ يبعث السرور لدى الأصدقاء، ولكنه غير مريحٍ مطلقاً للخصوم، وخصوصاً عندما لا تمكن تسوية الأمر ولا الافتراق.

سأل بازاروف أخيراً:

- هل آلمك التضميد؟

- كلا، لا بأس، رائعٌ، أجاب بافل بتروفيتش، ثم أضاف بعد قليلٍ:

- لن نستطيع خدع أخي، ولا بد من إخباره، بأننا تحارشنا بسبب السياسة.

فقال بازاروف:

- حسناً جداً، بوسعك أن تخبره، بأني شتمت جميع الموالين للإنجليز، وكان هذا هو سبب المبارزة.

- طيّب، ما الذي يظنه بنا هذا الشخص، على حدّ اعتقادك؟، واصل بافل بتروفيتش كلامه مشيراً إلى نفس ذلك الفلاح الذي اقتاد الحصانين المعقلين، حيال بازاروف لبضع دقائقَ قبل المبارزة، ثم عاد في نفس الطريق، ورفع قبعته عندما رأى «السيدين»، فأجاب بازاروف:

- من يدري؟! إنه لا يظن شيئاً، على الأغلب، فالفلاح الروسي هو ذلك المجهول الخفي الذي تحدثت عنه كثيراً السيدة رادكليف[118] في زمانٍ ما، فمن الذي يفهمه؟ إنه هو لا يفهم نفسه.

- آ! هذا هو رأيك؟!، طفق بافل بتروفيتش يتكلم، ولكنه هتف فجأةً:

- انظر، ماذا فعل صاحبك الأبله بيوتر! ها هو أخي قادمٌ إلى هنا!

التفت بازاروف، فرأى نيكولاي بتروفيتش بوجهه الشاحب جالساً في العربة، قفز من العربة، قبل أن تتوقف، وهرع إلى أخيه، وقال بصوتٍ متهدجٍ:

- ما يعني ذلك؟ يا يفغيني فاسيليفيتش، قل لي من فضلك ما هذا؟

فأجاب بافل بتروفيتش:

- لا شـيء، عبثاً أقلقوك، لقد تناقشنا قليلاً أنا والسيد بازاروف، وقد دفعت الثمن أنا بعض الشيء.

- لأي سببٍ حدث ذلك، بالله عليكما؟

- كيف لي، أن أوضح الأمر؟ السيد بازاروف تحدّث بغير احترامٍ عن السيد روبرت بيل[119]، وأضيف فوراً، بأني أنا وحدي المذنب في كلّ شيءٍ، فأنا الذي تحديته، وقد تصرف السيد بازاروف تصرفاً ممتازاً.

- هذا دمٌ، كيف؟!

- وهل كنت، تظن أن ماءً يجري في عروقي؟!! هذا الفصاد نافعٌ لي، أليس كذلك يا دكتور؟ ساعدني في ركوب العربة، ولا تجعل الأفكار السوداء تسيطر عليك، فسوف أشفى غداً. هكذا، رائعٌ، تحرّك يا حوذي.

سار نيكولاي بتروفيتش وراء العربة، وكاد بازاروف يتخلّف... فقال له نيكولاي بتروفيتش:

أرجوك أن تعتني بأخي إلى أن يأتي إلينا من المدينة طبيبٌ آخرُ.

طأطأ بازاروف رأسه صامتاً.

وبعد ساعةٍ كان بافل بتروفيتش راقداً على السرير، ورجله مضمدةٌ بمهارةٍ، عمّ الهرج والمرج الدار، وأصيبت فينيتشكا بالدوار، وكان نيكولاي بتروفيتش، يتألم في السرّ، بينما راح أخوه يضحك، ويطلق النكات، وخصوصاً مع بازاروف، وقد ارتدى قميصاً قطنياً خفيفاً مع سترة الصباح الأنيقة وطربوشاً، لم يسمح بإنزال ستائر النوافذ، وأعرب على نحوٍ طريفٍ عن أسفه لضرورة الامتناع عن تناول الطعام.

ولكن حرارته ارتفعت أثناء الليل، وانتابه الصداع، وصل طبيبٌ من المدينة، لم يستمع نيكولاي بتروفيتش إلى نصيحة أخيه

بعدم استدعاء الطبيب، ثم إن بازاروف نفسه أراد ذلك، كان قد قبع في غرفته، طوال النهار مصفراً حانقاً، ولم يغادرها إلا؛ ليعود المريض لأمدٍ قصيرٍ. صادف فينيتشكا مرتين، بيد أنها كانت تهرب منه مرتعبةً. نصح الطبيب الجديد المريض، بتناول أشربةٍ مرطبةٍ، وأكد، وبالمناسبة، رأي بازاروف من أنه لا يتوقع أي خطرٍ، وقال له نيكولاي بتروفيتش أن أخاه جرح نفسه بسبب قلة حذره، فأجاب الدكتور: «هيه!»، ولكنه أضاف، عندما تسلّم في الحال خمسة وعشرين روبلاً من الفضة: «حقاً! هذا أمرٌ غالباً ما يحدث، بالضبط».

لم يخلع أحدٌ في الدار ملابسه، ولم ينم. كان نيكولاي بتروفيتش يتردد على أخيه، بين الفينة والفينة سائراً على أطراف أصابعه، ويخرج منه على أطراف أصابعه أيضاً. كانت تنتاب ذاك الغيبوبة، أو يئن بخفوتٍ، ويقول له بالفرنسية (ناموا)[120]، ويطلب شراباً، وقد رجا نيكولاي بتروفيتش فينيتشكا مرّةً، أن تحمل إليه قدحاً من شراب الليمون، فحدّق بافل بتروفيتش فيها، وتجرع القدح حتى الثمالة، وعند الصباح، اشتدت حرارته قليلاً، وانتابه هذيانٌ خفيفٌ؛ في بادئ الأمر تلفظ بافل بتروفيتش بكلماتٍ غير مترابطةٍ، ثم فتح عينيه فجأةً، وقال عندما رأى أخاه قرب السرير، منحنياً عليه بعنايةٍ:

- ألا ترى، يا نيكولاي، أن فينيتشكا تشبه نيللي بعض الشبه؟!.

- من هي نيللي هذه، يا بافل؟

- كيف تسأل من هي؟ إنها الاميرة (ر)... وخصوصاً في القسم العلوي من الوجه، (من نفس القبيل)[121].

لم يحر نيكولاي بتروفيتش جواباً، بل تعجّب في سرّه من حيوية العواطف القديمة، لدى الإنسان، وفكر: «ها انبجست بعد كل هذا الزمان».

وقال بافل بتروفيتش، بأنينٍ، وهو يضع يديه وراء رأسه كئيباً:

- آه، كم أحب هذا الكائن الفارغ!!، ثم تمتم بعد عدة لحظاتٍ:

- لن أسمح، لأيّ شخصٍ وقحٍ أن يتجرأ على المساس...

تنهد نيكولاي بتروفيتش، فلم يكن يدرك من يعني أخوه بهذه الكلمات.

جاءه بازاروف في الساعة الثامنة من اليوم التالي، وقد اتّسع له الوقت، كي يجمع حاجياته، ويطلق سراح ضفادعه وحشراته وطيوره كلّها.

فقال نيكولاي بتروفيتش، وهو ينهض لاستقباله:

- جئت لتودعني؟

- بالضبط يا سيدي.

- إنني أفهمك، وأستحسن تصرفك تماماً، فأخي المسكين مذنبٌ، طبعاً، وقد تلقى جزاءه، وقال لي بنفسه، إنه وضعك في موقفٍ يستحيل معه أن تفعل غير ما فعلت، أنا واثقٌ من أنك لم تستطع أن تتحاشى هذا المبارزة التي... التي تعزى بقدرٍ ما إلى مجرّد التناحر المستمر بين نظرتيكما المتبادلتين، أخذ نيكولاي بتروفيتش يخلط بين الكلمات، إن أخي إنسان من الطراز القديم، وهو عنيدٌ سريع الغضب... والحمد لله على هذه النهاية، ثم إني أخذت كلّ الإجراءات اللازمة، لتلافي إشاعة...

فقال بازاروف باستهانةٍ:

- سأترك لك عنواني، فيما إذا حدثت ورطةٌ.

- آمل ألا تقع أية ورطةٍ يا يفغيني فاسيليفيتش... ويؤسفني جداً أن وجودك في داري قد انتهت... عفواً، قد انتهى على هذا النحو، ومما يزيد في أسفي أن أركادي...

- إنني سأراه لابد، اعترض بازاروف الذي تثير فيه كلّ أنواع التوضحيات والاعتذارات دوماً شعوراً بنفاد الصبر، وفي حالة العكس أرجوك أن تبلغه تحياتي واعتذاري.

- وأنا أرجوك، أجاب نيكولاي بتروفيتش مطأطئاً رأسه، ولكن بازاروف لم ينتظر ختام عبارته، فانصرف.

عندما عرف بافل بتروفيتش، باستعداد بازاروف للسفر، أعرب عن رغبته في أن يراه ويشدّ على يده، إلا أن بازاروف، ظل هذه المرة أيضاً بارداً كالجليد، فهو يعلم أن بافل يريد أن يظهر بمظهر النبل، ولم يتسنَ، لبازاروف أن يودع فينيتشكا، فقد تبادل معها النظرات فقط عبر النافذة، وبدا له محياها كئيباً، فقال في سره: «ستهلك على الأغلب!.. ولربما ستنجو على نحوٍ ما». أما بيوتر، فقد تأثر لدرجةٍ كبيرةٍ؛ حتى صار ينتحب على كتف بازاروف، إلى أن خفف عليه هذا بسؤاله، عما إذا كانت دموعه، قد انهمرت أم لا، في حين اضطرت دونياشا للالتجاء إلى الأجمة؛ كي تخفي انفعالها. ارتقى المسؤول عن كلّ هذه الآلام عربة النقل، وأشعل سيجاراً، عندما تماثلت أمام عينيه، لآخر مرّةٍ عند منعطف الطريق؛ ضيعة كيرسانوف الممتدة بخطٍ واحدٍ مع دارها الجديدة اكتفى بازاروف بأن بصق وتمتم: «أرستقراطيون ملاعين»، وتلفف بمعطفه على نحوٍ أوثق.

سرعان، ما تحسنت صحة بافل بتروفيتش، ولكنه اضطر، لملازمة الفراش حوالي أسبوع، وقد تحمّل الأسر، على حدّ تعبيره، بصبرٍ وأناةٍ، بيد أنه أفرط في الاهتمام بالزينة، وطلب مراراً أن يُرش بالكولونيا. كان نيكولاي بتروفيتش يقرأ له المجلات، بينما استمرت فينيتشكا على خدمته كالسابق، حيث كانت تحمل إليه المرق وشراب الليمون، والبيض البرشت والشاي، ولكن رعباً خفياً كان ينتابها كلما دخلت غرفته، فإن تصرف بافل بتروفيتش غير المتوقع، قد أرعب كلّ من في الدار، وأرعبها هي أكثر من الجميع، وظل بروكوفيتش هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرب، وراح يقول إن الأسياد في زمانه أيضاً كانوا يتبارزون «كان السادة النبلاء، فقط يتبارزون فيما بينهم، أما أمثال هؤلاء السفلة، فكانوا يأمرون بمعاقبتهم في الإسطبل لقاء خشونتهم».

لم تتعرض فينيتشكا لتأنيب الضمير تقريباً، إلا أن فكرة السبب الحقيقي للنزاع، كانت تعذبها بين الحين والآخر، ثم إن بافل بتروفيتش يسلط عليها نظراتٍ غريبةً... بحيث كانت تشعر بعينيه تحدقان فيها؛ حتى عندما تدير له ظهرها، وقد أصابها الهزال بسبب القلق الداخلي الذي لا يفارقها، وأصبحت، كما هي العادة، أكثر رقةً وجمالاً.

ذات صباحٍ، كان بافل بتروفيتش في حالةٍ جيدةٍ، فانتقل من السرير إلى الأريكة، بينما توجه نيكولاي بتروفيتش إلى البيدر بعد أن استفسر عن صحته، حملت فينيتشكا قدح الشاي، ووضعته على الطاولة، وهمّت بالخروج، لكن بافل بتروفيتش أوقفها قائلاً:

- لمَ أنت مستعجلةٌ يا فينيتشكا؟ عندك شغل آخر؟.

- كلا... أجل يا سيدي... ينبغي أن نصبّ الشاي هناك.

- ستصبّه دونياشا من دونك، أنا مريضٌ، فاجلسي معي قليلاً، وبالمناسبة، فأنا أريد التحدث إليك.

جلست فينيتشكا صامتةً على طرف المقعد، فقال بافل بتروفيتش، وهو يمسد شاربه:

- اسمعي، منذ زمانٍ أردت أن أسألك: يخيل إلي أنك تخافين مني حقاً؟.

- أنا يا سيدي؟

- نعم، أنت، إنك لا تنظرين إلي أبداً، وكأنما لست بريئةً.

احمّرت فينيتشكا، ولكنها نظرت إلى بافل بتروفيتش الذي بدا لها غريباً بعض الشيء. فارتجف قلبها قليلاً، وسألها هو:

- أنت بريئةٌ أليس كذلك؟

فهمست هي:

- لمَ لا؟

- من يدري؟! وعلى كلّ حالٍ، فإزاء من يمكن أن تكوني مذنبةً؟ إزائي أنا؟ أمرٌ غير معقولٍ. إزاء أشخاصٍ آخرين في المنزل؟ شيٌء غير ممكنٍ أيضاً، لم يبق إلا أخي، ولكنك تحبينه، أليس كذلك؟

- أحبه.

- بكلّ روحك وفؤادك؟

- إنني أحب نيكولاي بتروفيتش بكلّ فؤادي.

- حقاً؟ انظري إليّ يا عزيزتي، هذه المرة الأولى التي يخاطبها فيها بهذه الصيغة... أنت تعلمين أن الكذب خطيئةٌ كبرى!

- إنني لا أكذب، يا بافل بتروفيتش، كيف لي أن لا أحب نيكولاي بتروفيتش؟ إنني لست بحاجةٍ إلى الحياة من دونه!

- ولن تستبدليه بأحدٍ؟

- بمن أستطيع أن أستبدله؟

- من يدري؟ لنفرض، بهذا السيد الذي ارتحل من هنا.

نهضت فينيتشكا:

- يا إلهي! لماذا تعذبونني يا بافل بتروفيتش؟ ما الذي فعلته لكم؟ كيف يمكن قول ذلك؟..

فقال بافل بتروفيتش بصوتٍ حزينٍ:

- فينيتشكا، لقد رأيت...

- ما الذي رأيتموه يا سيدي؟

- هناك... في التعريشة.

احمّرت فينيتشكا حتى الشعر، حتى الأذنين، وقالت بصعوبةٍ:

- ما ذنبي في ذلك؟

فنهض بافل بتروفيتش قليلاً:

- ألست مذنبةً؟ كلا؟ أبداً؟

- إنني أحب نيكولاي بتروفيتش وحده في هذا العالم، وسأحبه إلى الأبد!، قالت فينيتشكا بقوةٍ مفاجئةٍ، بينما اختنقت بعبراتها، أمّا ما رأيتموه، فسأقول في يوم القيامة؛ بأني لم أكن مذنبةً فيه أبداً، ومن الأفضل أن أموت الآن ما دامت تحوم حولي الشبهات والظنون؛ بأني أكفر بنعمة نيكولاي ببتروفيتش...

إلا أن صوتها خانها هنا، وأحست في الوقت ذاته، بأن بافل بتروفيتش أخذ يدها، وشدّ عليها نظرت إليه، وتجمّدت على تلك الحال، لقد غدا أكثر شحوباً من السابق، وكانت عيناه تلمعان. والأغرب من ذلك، أنّ دمعةً وحيدةً ثقيلةً انحدرت على خده، ثم قال بهمسٍ وحنانٍ:

- فينيتشكا! أحبي أخي، أحبيه! إنه إنسانٌ في منتهى الطيبة! ولا تخونيه من أجل أيّ شخصٍ في الكون، ولا تسمعي كلاماً من أيّ كان! فكري أنت: ما أفظع أن يحب المرء دون أن يكون محبوباً!! لا تتركي أبداً أخي المسكين نيكولاي!

جفت دموع فينيتشكا، وفارقها الخوف من إثر دهشتها العظيمة، ولكن ما أشد، ما ارتعبت عندما ألصق بافل بتروفيتش، بافل بتروفيتش نفسه، يدها إلى شفتيه، وانحنى عليها، لا ليقبلها، بل ليتنهّد مرتعشاً، بين الفينة والأخرى.

- يا إلهي!! هل أصابته نوبةٌ؟، فكّرت في نفسها، بينما نبضت فيه أثناء تلك اللحظة حياته الموات كلها.

صرّ السلم تحت خطواتٍ سريعةٍ... فدفعها بعيداً، وألقى برأسه على الوسادة، فُتح الباب، فظهر نيكولاي بتروفيتش مرحباً غضاً مورد الخدين، وكان ميتيا الغض المتورد، كأبيه يتراقص على

صدره في قميصٍ لا غير، وتشتبك رجلاه العاريتان، بالأزرار الكبيرة لمعطف أبيه الريفي.

هرعت إليه فينيتشكا على الفور، وطوّقته مع ميتيا بيديها، ومال رأسها على كتفه، دهش نيكولاي بتروفيتش، فإن فينيتشكا المتواضعة الخجول، لم تكن تلاطفه مطلقاً، بحضور شخصٍ ثالثٍ.

- ماذا دهاك؟!!، سألها، والتفت إلى أخيه، وهو يسلّمها ميتيا، ثم اقترب من بافل بتروفيتش، وقال مستفسراً:

- هل ساءت حالتك؟

فدسّ هذا وجهه في المنديل القطني، وقال:

- كلا... بالعكس، حالتي أفضل بكثيرٍ.

- عبثاً استعجلت في الانتقال إلى الأريكة، قال نيكولاي بتروفيتش، ثم أضاف ملتفتاً إلى فينيتشكا، إلى أين أنت؟، ولكنها كانت قد صفقت الباب خارجةً، جئت لأريك طفلي العملاق، لقد اشتاق إلى عمّه، فلماذا أخذته هي؟ ولكن ماذا دهاك؟ هل حدث بينكما شيءٌ؟

فقال بافل بتروفيتش بصيغةٍ مهيبةٍ:

- يا أخي!

ارتعش نيكولاي بتروفيتش مرتعباً، دون أن يعرف السبب، فكرر بافل بتروفيتش قوله:

- يا أخي، اقطع عهداً، بأنك ستنفذ طلباً لي.

- أي طلبٍ؟ قلْ.

- إنه طلبٌ هامٌ جداً، عليه تتوقف، كما أعتقد، سعادة حياتك كلّها، طوال هذا الوقت كنت أفكر كثيراً، بما أريد أن أقوله لك الآن... أخي أدِ واجبك؛ واجب الإنسان النزيه النبيل، وضع حداً للغواية، والقدوة السيئة من جانبك، وأنت من أفضل الناس!

- ما الذي تعنيه يا بافل؟

- تزوج من فينيتشكا رسمياً... إنها تحبك، وهي أمٌّ لابنك.

تراجع نيكولاي بتروفيتش خطوةً، وصفق يداً بيد.

- أهذا أنت الذي يقول ذلك؟ أنت بافل الذي كنت أعتبره، دوماً ألدّ خصمٍ لهذا النوع من الزواج!! أهذا أنت الذي يتكلم؟! ألا تعلم بأن الشيء الوحيد الذي منعني من أداء ما وصفته أنت محقاً بواجبي، إنما هو احترامي لك؟!

- عبثاً كنت تحترمني إذن، اعترض بافل بتروفيتش بابتسامةٍ كئيبةٍ، أكاد أعتقد بأن بازاروف محقٌّ، عندما لامني على النزعة

الأرستقراطية. كلا، يا أخي العزيز، كفانا تظاهراً وتفكيراً بالمجتمع الراقي، فقد غدونا كهولاً متواضعين، وحان الوقت؛ لكي نضع جانباً كلّ الهموم الباطلة، ونؤدي واجبنا بالذات، كما تقول أنت، وسوف ترى أننا سنلقى السعادة فضلاً عن ذلك.

هرع نيكولاي بتروفيتش ليعانق أخاه هاتفاً:

- لقد فتحت عيني نهائياً! وليس عبثاً أني كنت أوكد دوماً، بأنك أطيب، وأذكى إنسانٍ في العالم، وأنا أرى الآن، أن حلمك يضاهي نبلك.

فقاطعه بافل بتروفيتش:

- على مهلك، على مهلك، لا تدعس رجل أخيك الحليم الذي تبارز، وهو في الخمسين من العمر تقريباً كما يفعل ملازم ثانٍ، هكذا إذن، تقرر الأمر: ستكون فينيتشكا... (عديلة لي)[122].

- آه، يا عزيزي بافل! ولكن ماذا سيقول أركادي؟

- أركادي؟ ما عساه أن يقول؟! سيفرح. إنه لا يؤيد الزواج، ولكنه سيسر للشعور بالمساواة، وبالفعل، فما الداعي للتفرقة (في القرن التاسع عشر)[123]؟

- آه، بافل، بافل! دعني أقبّلك مرةً أخرى، ولا تخف، فسأكون حذراً.

تعانق الشقيقان، ثم سأل بافل بتروفيتش:

- ماذا ترى، ألا يتعين إخبارها بنيّتك في الحال؟

فاعترض نيكولاي بتروفيتش:

- ما الداعي للعجلة؟ فهل دار بينكما حديثٌ بهذا الخصوص؟

- حديثٌ بيننا؟ (ما هذه الفكرة؟)[124]

- طيّب، ينبغي أن تُشفى أولاً، أما هذه القضية، فليست آنيةً، ينبغي التفكير بالأمر جيداً...

- ولكنك صممت، أليس كذلك؟

- طبعاً، صممت، وأنا ممتنٌ لك من الفؤاد، سأتركك الآن، إذ ينبغي أن ترتاح، فإن أيّ انفعالٍ يؤذيك... ولكننا سنتحدث في الأمر، فيما بعد، حاولْ أن تغفو، يا حبيبي، والله يعافيك!

فكّر بافل بتروفيتش، عندما ظلّ لوحده: «لماذا يشكرني؟ وكأنما، لم يكن ذلك متوقفاً عليه هو! أما أنا فسأرتحل، حالما يتزوج، إلى مكانٍ ما بعيدٍ، إلى درزدن أو فلورنسة، وسأظلّ هناك إلى أن أفطس».

بلل بافل بتروفيتش جبهته بالكولونيا، وأغمض عينيه، كان رأسه الجميل النحيل المضاء بنور النهار الساطع مستقراً على الوسادة البيضاء، كرأس جثةٍ... بل كان هو جثةً هامدةً في الواقع.

25

في ظل شجرة دردارٍ باسقةٍ في بستان نيكولسكويه جلست كاتيا مع أركادي على مصطبةٍ معشوشبةٍ، وعلى الأرض قربهما، ربضت الكلبة فيفي، ولوت جسمها الطويل على نحوٍ رشيقٍ بالشكل الذي ينعته الصيادون «برقدة الأرنب». لزم أركادي الصمت، وكذلك كاتيا، أمسك بكتابٍ مفتوحٍ بالكاد، في حين راحت هي تلتقط من السلة ما تبقى فيها من فتات الرغيف الأبيض، وتلقي به إلى مجموعةٍ صغيرةٍ من العصافير، كانت تتقافز وتزقزق بما يلازمها من تهورٍ وجبنٍ، عند قدميها تماماً، كان نسيمٌ خفيفٌ يداعب أوراق الدردار، ويحرّك بهدوءٍ بقعاً ضوئيةً ذهبيةً باهتة إلى قدّامٍ، وإلى وراءٍ في الممشى القاتم، وعلى ظهر فيفي الأصفر، وكان ظلٌّ متوازنٌ ينسكب على أركادي وكاتيا. ومن حينٍ لآخر، يلمع شريطٌ من الضوء الساطع في شعرها، لزما الصمت، ولكن تقارباً مطمئناً تجلى في صمتهما، وفي هيئة جلوسهما معاً؛ كان كلّ منهما، كأنما لا يفكر بجاره، ولكنه مسرورٌ في الخفاء؛ لقربه منه، تغير محياهما منذ أن رأيناهما في آخر مرّةٍ: فقد بدا أركادي أكثر هدوءاً، بينما بدت كاتيا أكثر حيويةً وجرأةً.

ثم تحدث أركادي:

- ألا ترين أن الدردار اسمٌ على مسمى؟! فليس هناك شجرةٌ تضاهيها في خفتها وشفافيتها.

رفعت كاتيا بصرها إلى أعلى، وقالت: أجل، بينما فكر أركادي في نفسه: «إنها لا تلومني، مثل بازاروف، على كلامي الجميل»، ثم قالت كاتيا مشيرةً بنظرةٍ من عينيها إلى الكتاب في يد أركادي:

- لا أحب هايني عندما يضحك، ولا عندما يبكي، إنني أحبه عندما يغرق في التأملات والأحزان.

- أما أنا، فأحبه عندما يضحك، قال أركادي.

- تلك آثارٌ قديمةٌ من اتجاهك الساخر... ففكر أركادي: «آثارٌ قديمةٌ! ماذا لو سمع بازاروف ذلك!» تمهل قليلاً، وسوف نغير آراءك.

- من يغير آرائي، أنت؟!

- أختي، وبورفيري بلاتونيتش الذي لم تعد تتشاجر معه، وخالتي التي رافقتها إلى الكنيسة أول أمس.

- ما كان بوسعي أن أرفض! أما آنا سيرغييفنا، فهي نفسها، كما تتذكرين، كانت متفقة مع يفغيني في أمورٍ كثيرةٍ.

- كانت أختي آنذاك متأثرةً به مثلك تماماً.

- آنذاك؟ مثلي؟ هل لاحظت إنني صرت أتخلص من تأثيره؟

لاذت كاتيا بالصمت، فواصل أركادي كلامه:

- أعرف أنه لم يعجبك بتاتاً.

- ليس بوسعي أن أحكم عليه.

- هل تعلمين، يا كاتيا، بأنني كلّ مرّةٍ أسمع فيها هذا الجواب لا أثق به؟.. فليس هناك إنسانٌ لا يستطيع كلّ منا، أن يحكم عليه! ذلك مجرّد تملصٍ.

- أقول لك الحقيقة... لا أستطيع القول بأنه لا يعجبني... ولكنني أحس بأنه غريبٌ عليَّ، وبأني غريبةٌ عليه... بل، وحتى أنت غريبٌ عليه.

- لماذا؟

- كيف أجيب؟.. إنه بريٌّ مفترسٌ، بينما نحن أليفون.

- وأنا أليفٌ أيضاً؟

أومأت كاتيا برأسها إيماءة إيجابٍ.

فحكّ أركادي ما وراء أذنه، وقال:

- اسمعي، يا كاتيا، ذلك في الواقع أمرٌ مغيظٌ.

- هل تريد أن تكون مفترساً؟

- كلا، ولكنني أرغب أن أكون نشيطاً شديد البأس.

- هذا أمرٌ لا يخضع للرغبة... صديقك، مثلاً، لا يرغب في ذلك، ولكنه موجودٌ فيه.

- احم! أنت تعتقدين بأنه أثّر على آنا سيرغييفنا تأثيراً كبيراً، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن لا أحد يستطيع أن يغلبها لأمدٍ طويلٍ، أضافت كاتيا بصوتٍ خافتٍ.

- لماذا تظنين ذلك؟

- أنفتها شديدةٌ؟!... كلا، ليس ذلك ما أقصده... إنها تعتز، باستقلالها غاية الاعتزاز.

- فمن لا يعتز به؟، قال أركادي، وفكّر: «وما نفعه؟».

وفكرت كاتيا أيضاً: «وما نفعه؟» إن أفكاراً متماثلةً تتبادر دوماً إلى أذهان الشباب الذين كثيراً ما يلتقون بودٍّ.

ابتسم أركادي، واقترب قليلاً من كاتيا، فقال همساً:

- إنك تخافين منها بعض الشيء، أليس كذلك؟ اعترفي.

- ممن؟

- منها، كرر أركادي بلهجةٍ ذات وزنٍ.

- وأنت؟، سألته كاتيا بدورها.

- وأنا أيضاً. لاحظي، قلت: وأنا أيضاً.

هددته كاتيا بسبابتها قائلةً:

- ذلك يثير دهشتي، فإن أختي لم تكن تميل إليك في أي وقتٍ، أفضل مما هي الآن، إنها تميل إليك أكثر بكثيرٍ، مما في زيارتك الأولى.

- حقاً؟!

- ألم تلاحظ ذلك؟ ألا يبعث السرور فيك؟

تفكر أركادي قليلاً، ثم قال:

- ما الذي جعلني أستحق عطف آنا سيرغييفنا؟ هل السبب أني أحضرت لها رسائل والدتك؟

- أجل، وهناك أسبابٌ أخرى، لن أقولها لك.

- لماذا؟

- لن أقولها.

- آه! اعرف ذلك، إنك عنيدةٌ جداً.

- أجل، عنيدةٌ.

- وشديدة الملاحظة.

ألقت كاتيا على أركادي نظرةً جانبيةً.

- ربما يثير ذلك غضبك؟ بمَ تفكر؟

- من أين لك هذه القابلية، على الملاحظة الشديدة الموجودة لديك فعلاً؟! إنك ترتعبين، لأبسط الأمور ولا تثقين بأحدٍ، وتتحاشين الجميع...

- عشت لوحدي أمداً طويلاً، لذا صرت أطيل التأمل، ولكن هل أنا أتحاشى الجميع قاطبةً؟

ألقى أركادي نظرةً ممتنةً على كاتيا، وواصل كلامه:

- ذلك شيءٌ رائعٌ، ولكن الناس في مثل حالتك، أريد أن أقول الذين يمتلكون ما تمتلكين، نادراً ما يتمتعون بهذه الموهبة، فالحقيقة يصعب عليها أن تصل إليهم، كما يصعب عليها أن تصل إلى القياصرة.

- ولكنني لست غنيةً.

استغرب أركادي قولها، ولم يفهم في الحال، وخطرت على باله فكرةٌ: «حقاً، فالضيعة كلّها تعود لأختها!»، ولم تكن هذه الفكرة مريرةً بالنسبة له، فقال:

- ما أحسن لهجة قولك هذا!

- ماذا؟

- قلت ذلك، بأطيب، وأبسط شكلٍ، دون خجلٍ ولا تباهٍ، وبالمناسبة، فأنا أتصور أن الإنسان الذي يعلم، ويقول إنه فقيرٌ، ينبغي أن ينطوي على شيءٍ خاصٍ، على بعض الغرور.

- إنني لا أشعر بشيءٍ من ذلك، بفضل أختي، ولم أشر إلى حالتي المادية، إلا، لأن الحديث ساقني إلى ذلك.

- حسناً، ولكن اعترفي، أليس لديك شيءٌ من الغرور الذي ذكرته تواً.

- مثلاً؟

- مثلاً، استميحك عذراً على سؤالي: إنك لن تتزوجي من شخصٍ غنيٍّ، أليس كذلك؟

- إذا وقعت في هواه... كلا، يُخيّل إليَّ أنني لن أتزوج منه، حتى إذا وقعت في هواه.

- هكذا إذن، هتف أركادي، ثم أضاف بعد برهةٍ:

- - ما الذي يجعلك ترفضين الزواج منه؟

- حتى الأغنية تتحدث عن عدم التكافؤ.

- ربما تريدين التسلط، أم...

- كلا! ما الداعي لذلك؟ بالعكس، إنني على استعدادٍ للانصياع، ولكن عدم التكافؤ شيءٌ ثقيلٌ، أما الانصياع المقترن باحترام النفس، فأمرٌ مفهومٌ، إنه السعادة، ولكن حالة الخضوع والتبعية... كلا، فأنا غارقةٌ فيها.

- غارقةٌ فيها، كرر أركادي قول كاتيا، وواصل كلامه، أجل، أجل، ليس عبثاً أنك وآنا سيرغييفنا من صلبٍ واحدٍ، فأنت مستقلةٌ مثلما هي، ولكنك أكثر انطواءً، أنا واثقٌ من أنك لن تبادري أبداً إلى الإعراب عن مشاعرك، مهما كانت عميقةً ومقدسةً...

- وكيف يكون الأمر على غير ذلك؟، سألت كاتيا.

- إنكما على نفس القدر من الفطنة، ولديك نفس القدر، من قوة الطباع كما لديها، إن لم أقل أكثر منها...

- لا تقارن بيني وبين أختي من فضلك، قاطعته كاتيا على عجلٍ، فذلك ليس بصالحي أبداً. يبدو، وكأنك قد نسيت أن أختي

حسناءُ ذكيةٌ، ولا يجدر بك، أنت يا أركادي نيكولايفيتش على الخصوص... أن تقول مثل هذه الكلمات، وبمثل هذه الملامح الجادة.

- ماذا تعنين: لا يجدر بي على الخصوص؟ وما الذي يجعلك تعتقدين بأني أمزح؟

- أنت تمزح طبعاً.

- حقاً؟ ولكن ماذا لو كنت واثقاً مما أقول: وماذا لو كنت أعتقد، بأني لم أعبر عن ذلك بعد بالشكل اللازم؟!

- إنني لا أفهمك.

- حقاً؟ ها، أنا أرى الآن، بأنني بالغت كثيراً في امتداح قدرتك على الملاحظة.

- كيف؟

لم يجب أركادي بشيءٍ، وأشاح بوجهه، بينما وجدت كاتيا في السلة قليلاً من فتات الرغيف، وراحت تلقي به إلى العصافير، إلا أن حركة يدها كانت شديدةً، فصارت العصافير تطير بعيداً، قبل أن يتسنى لها، أن تلتقط الفتات.

وقال أركادي فجأةً:

- كاتيا! ربما لن تعبئي بما سأقول، ولكن اعلمي، بأني لن أستبدلك، لا بأختك، ولا بأيّ كان في هذا العالم.

ثم نهض، وابتعد مستعجلاً، كما لو كان، قد ارتعب من الكلمات التي أفلتها لسانه.

أما كاتيا، فقد تراخت كلتا يديها، وهوتا مع السلة على ركبتيها، وطأطأت رأسها، وراحت تنظر طويلاً إلى الجهة التي انصرف إليها أركادي. ظهرت بوادر الحمرة القانية على وجنتيها، لكن الابتسامة لم تعرف سبيلها إلى شفتيها، وكانت عيناها تعبران عن الحيرة، وعن شعورٍ آخرَ لا يزال غير معروف الهوية.

ودوى قربها صوت آنا سيرغيفنا:

- أنت لوحدك؟ خُيل إليَّ أنك توجهت إلى البستان مع أركادي.

حولت كاتيا نظرتها على مهلٍ إلى أختها، التي وقفت على الممشى بملابسها الأنيقة، بل الفاخرة، وراحت تداعب أذني فيفي، بطرف مظلتها المفتوحة، وقالت على مهلٍ أيضاً:

- لوحدي.

- أرى ذلك، أجابت تلك ضاحكةً، يبدو أنه ذهب إلى غرفته.

- أجل.

- هل كنتما تقرأان معاً؟

- أجل.

لامست آنا سيرغييفنا ذقن كاتيا، ورفعت وجهها قليلاً: ألم تتشاجرا؟

- كلا، أجابت كاتيا، وأزاحت يد أختها برفقٍ.

- ما هذه اللهجة المهيبة في الجواب؟! ظننت أني سأجده هنا؛ لأقترح عليه أن يتمشى معي، فقد طلب مني ذلك مراراً. أحضروا لك حذاءً من المدينة، اذهبي وقيسيه، فقد لاحظت يوم أمس أن أحذيتك القديمة قد بليت كلياً، وأنت على العموم، لا تولين ذلك ما يستحقه من اهتمامٍ، بينما لديك ساقان رائعتان! ويداك حلوتان أيضاً... ولكنهما كبيرتان، لذا ينبغي الاستفادة من الساقين، ولكنك لست لعوباً.

واصلت آنا سيرغييفنا سيرها على الممشى، بحفيفٍ ينبعث من فستانها الجميل، نهضت كاتيا من المصطبة، والتقطت هايني وذهبت أيضاً، ولكن لا، لكي تقيس الحذاء.

فكرت في نفسها، وهي ترتقي ببطءٍ وخفةٍ درجات سلم الشرفة الحجري الذي سخنته الشمس: «ساقان رائعتان، تقولين: ساقان رائعتان... وسوف يقع عندهما».

واعتراها الخجل في الحال، فصعدت راكضةً برشاقةٍ. اجتاز أركادي الرواق متجهاً إلى غرفته، فلحق به كبير الوصفاء، وأفاد بأن السيد بازاروف ينتظره فيها.

فتمتم أركادي، وكاد الرعب يستولي عليه:

- يفغيني؟ هل وصل من زمانٍ؟

- وصل توّاً، وأمر بأن لا أخبر آنا سيرغييفنا عنه، طلب أن أوصله إليكم مباشرةً.

«ماذا؟ هل حلت بأهلي مصيبةٌ ما؟»، فكر أركادي، وركض على السلم مستعجلاً، وفتح الباب في الحال. كان منظر بازاروف قد جعله يهدأ فوراً، مع أن العين الثاقبة بوسعها، على ما يبدو، أن تستشف في الهيئة النحيلة للضيف غير المنتظر، وفي ملامحه النشيطة، كالسابق علائم الاضطراب الداخلي، كان جالساً على رفّ النافذة، وعمرته على رأسه، ومعطفه المغبر على كتفيه، ولم ينهض حتى عندما هرع إليه أركادي، وعانقه بصخبٍ واستغرابٍ.

- لم أتوقع مجيئك مطلقاً! ما الذي دفعك؟!، كرر أركادي، وهو يجول في الغرفة، كما لو كان يتصوّر نفسه مسروراً وراغباً في إظهار سروره، كلّ شيءٍ عندنا على ما يرام؟ وهل الجميع بخيرٍ؟، تمتم بازاروف، كفاك هذراً، اطلب لي عصيراً، واجلس،

واستمع إلى ما سأقوله لك بعباراتٍ قليلةٍ، ولكن شديدة الوقع على ما أعتقد.

سكن أركادي، بينما حدثه بازاروف عن مبارزته مع بافل بتروفيتش، دهش أركادي أشد الدهشة، بل، وحزن بعض الشيء، لكنه لم ير ضرورةً للإعراب عن ذلك، واكتفى بالسؤال عما إذا كان جرح عمّه غير خطرٍ حقاً، وعندما تلقى الجواب؛ بأن الجرح مثيرٌ جداً، ولكن ليس من الناحية الطبية، ابتسم على مضضٍ، وانتابه شيءٌ من الرعب والخجل، وبدا بازاروف، وكأنما قد فهمه، فقال:

- أجل، يا أخي، تلك عاقبة العيش مع الإقطاعيين، فالمرء مضطرٌ، إلى أن يغدو مثلهم، ويساهم في جولات الفروسية، وأضاف بازاروف في الختام، شددت الرحال إلى «الآباء» وعرجت... لكي أحيطك علماً بذلك، كان بوسعي أن أقول شيئاً من هذا القبيل، لولا أني أعتبر الكذب بلا جدوىً حماقةً. كلا، الشيطان وحده يعلم، لماذا... جئت إلى هنا، من المجدي للإنسان، كما أعتقد، أن يمسك أحياناً بناصيته، ويجتث نفسه، كما يجتث الفجل من التربة، وهذا ما فعلته أنا مؤخراً... ولكنني رغبت في أن ألقي نظرةً أخرى على ما افترقت عنه، على تلك التربة التي كنت غائصاً فيها، فاعترض أركادي قلقاً:

- آمل بأنّ هذه الكلمات لا تشملني، آمل بأنك لا تفكر في الافتراق عني.

ألقى عليه بازاروف نظرةً ثاقبةً، كادت تنغرز فيه:

- هل تعتقد بأن ذلك سيؤلمك؟ يُخيل إلَيَّ أنك نفسك، قد فارقتني، أنت على قدرٍ كبيرٍ من الطراوة والنظافة... لا بد، وأن أمورك مع آنا سيرغييفنا سائرةٌ على ما يرام.

- أية أمورٍ لي مع آنا سيرغييفنا؟

- أفلم تصل من المدينة إلى هنا من أجلها يا طائري الصغير؟ وبالمناسبة كيف حال مدارس الآحاد هناك؟... ماذا؟ أفلست متيماً بها؟ أم أنه حان الوقت للتواضع؟

- يفغيني، أنت تعلم، بأني كنت على الدوام صريحاً معك، وأؤكد لك، وأقسم بالله، أنك على خطأٍ.

- احم! كلمةٌ جديدةٌ، قال بازاروف بصوتٍ خافتٍ، لا داعي للغضب، فذلك أمرٌ لا يعنيني مطلقاً، وبوسع الرومانسي أن يقول: أحسّ، بأننا على مفترق الطرق، أما أنا، فأقول ببساطةٍ، إننا مللنا بعضنا البعض.

- يفغيني...

- لا ضير في ذلك، يا حبيبي، في العالم أشياءٌ أكثر قيمةً، ولكنها تبعث على الملل أيضاً! أما الآن، أفلا يجدر بنا أن نتوادع؟! منذ أن وصلت إلى هنا، أشعر بأني على أسوأ حالٍ، كما لو قرأت المزيد من رسائل غوغول إلى عقيلة متصرف كالوغا[125]، وبالمناسبة، فإني لم أطلب حل الخيول.

- كيف؟ هذا مستحيلٌ.

- لماذا؟

- ذلك أقصى حدٍّ من عدم اللياقة، ازاء آنا سيرغييفنا التي سترغب في رؤيتك من كلّ بدٍّ. ناهيك عن أثر ذلك في نفسي أنا.

- إنك متوهمٌ.

- على العكس، أنا واثقٌ منه، قال أركادي معترضاً، ثم ما الداعي للتصّنع؟ وما دمنا بهذا الصدد، أفلم تأت إلى هنا من أجلها؟

- ربما، ولكنك متوهمٌ مع ذلك.

غير أن أركادي كان على حقٍّ، فقد رغبت آنا سيرغييفنا في رؤية بازاروف، وبعثت كبير الوصفاء، ليدعوه إليها. استبدل بازاروف ملابسه، قبل أن يتوجه إليها، واتضح أنه وضع بدلته الجديدة بين حاجياته؛ بحيث يسهل التقاطها.

استقبلته أودينتسوفا في غرفة الاستقبال، وليس في الغرفة التي أعرب فيها، على نحوٍ مباغتٍ، عن حبه لها، ومدت له بلطفٍ أصابع يديها، ولكن مسحةً من التوتر العفوي كانت عالقةً بمحياها.

فعاجلها بازاروف قائلاً:

- يا آنا سيرغييفنا، عليَّ في المقام الأول أن أهدئك، فأمامك واحدٌ من البشر الفانين، أدرك خطأه من زمانٍ، ويأمل بأن الآخرين أيضاً، قد نسوا حماقته، إنني مسافرٌ لأمدٍ طويلٍ، ومع أني لست كائناً رقيق القلب، فمن المحزن أن أحمل معي فكرةً تؤكد لي، أنك تتذكرينني باشمئزازٍ، ألست محقاً؟

تنفست آنا سيرغييفنا الصعداء، كشخصٍ ارتقى لتوّه جبلاً عالياً، وأنعشت الابتسامة محياها. مدت يدها لبازاروف مجدداً، وصافحته قائلةً:

- الويل لمن يتذكر الغيظ الماضي، لا سيما، وأني، إذا قلت الحق، أخطأت أنا أيضاً آنذاك بشيءٍ ما، إن لم يكن بالتغنج، وباختصار: فلنبق أصدقاء كالسابق، كان ذلك حلماً، أليس كذلك؟ فمن يتذكر الأحلام يا ترى؟!!

- من يتذكرها؟ لا سيما، وإن الحب شعورٌ متكلفٌ...

- حقاً؟ يسرني كلّ السرور أن أسمع ذلك.

هكذا تكلمت آنا سيرغييفنا، وهكذا تكلم بازاروف، وفكر كلاهما، بأنهما يقولان الحقيقة، فهل كانت كلماتهما تنطوي على الحقيقة؛ الحقيقة كاملةٌ؟ ذلك أمرٌ، لم يكونا يعلمان به هما، ناهيك عن المؤلف، بيد أنهما تجاذبا أطراف الحديث، وكأنما قد صدقا بعضهما البعض كلياً.

وسألت آنا سيرغييفنا بازاروف، عرضاً، عما كان يفعله عند آل كيرسانوف، وكاد يحدثها عن مبارزته مع بافل بتروفيتش، لكنه أحجم عن ذلك خشيةَ أن تظن، بأنه يحاول أن يتصنّع أموراً مثيرةً، فأجابها بأنه كان يعمل طوال الوقت، فقالت آنا سيرغييفنا:

ـ أما أنا، فقد استولت عليَّ الكآبة في بادئ الامر، والله وحده يعرف السبب، حتى أني صممت على السفر إلى الخارج، هل تتصور؟!.. ثم انقشع ذلك كله، حيث وصل صديقك أركادي نيكولايفيتش، فعدت من جديدٍ إلى حالتي المعتادة، إلى دوري الحقيقي.

ـ أي دورٍ، يا ترى؟

دور المربية والمرشدة والأم، سمّه كيفما تشاء، وبالمناسبة هل تعلم بأنني في السابق، لم أكن أفهم جيداً الصداقة الحميمة بينك وبين أركادي نيكولايفيتش، كنت أظن بأنه إنسانٌ ليس ذا شأنٍ

كبيرٍ. أما الآن، فقد عرفته على نحوٍ أفضل، واقتنعت بأنه ذكيٌّ... والأمر الأهم، هو أنه في ريعان الشباب... ليس مثلنا يا يفغيني فاسيليفيتش.

فسأل بازاروف:

- ألا يزال يتهيّب بحضورك؟

- هل كان، بدأت آنا سيرغييفنا كلامها، ولكنها تفكرت قليلاً، وأضافت: أصبح أكثر اطمئناناً، وصار يتحدث معي، في السابق كان يتحاشاني، وبالمناسبة، فأنا أيضاً لم أكن أبحث عن سبيلٍ لمعاشرته، فهو وكاتيا صديقان حميمان.

شعر بازاروف بالأسف، وفكر في نفسه: «لا يمكن للمرأة ألاّ تحتال!»، ثم قال بابتسامةٍ ساخرةٍ فاترةٍ:

- تقولين إنه كان يتحاشاك، ولكن، على ما يبدو، لم يبق خافياً عليك أنه يحبك، أليس كذلك؟

- ماذا؟ هو أيضاً؟، انفلت السؤال من لسان آنا سيرغييفنا.

- وهو أيضاً، كرر بازاروف بانحناءةٍ وادعةٍ، هل من المعقول، أنك لم تكوني تعرفين ذلك، وأني أخبرتك بنبأٍ جديدٍ؟

غضت آنا سيرغييفنا بصرها، وقالت:

ـ أنت على خطأٍ يا يفغيني فاسيليفيتش.

ـ لا أظن، ولكن ربما ما كان يتعيّن عليَّ أن أذكر ذلك، ثم أضاف في سرّه: «ولذا لا تتحايلي بعد الآن».

ـ لِمَ لا تذكره؟! لكنني أعتقد بأنك، في هذه الحالة أيضاً، تعلق أهميةً كبيرةً على الانطباع العابر، ويُخيل إليّ أنك تميل إلى المبالغة.

ـ من الأفضل، يا آنا سيرغييفنا، ألاّ نتحدث عن ذلك.

ـ لماذا؟، اعترضت عليه، ولكنها حولت الحديث إلى جانبٍ آخرَ. كانت مع ذلك تشعر بالخجل من بازاروف، بالرغم، من أنها قالت له، وأقنعت نفسها بأن النسيان قد طوى كلّ شيءٍ، وعندما كانت تتحدث معه بأبسط شكلٍ، وحتى عندما كانت تمزح معه، شعرت بأن الخوف، يأخذ بخناقها بعض الشيء، فالناس على ظهر الباخرة في البحر، يتكلمون ويضحكون بلا اكتراثٍ، ويتجاذبون أطراف الحديث كما على الأرض الصلبة، ولكنه حالما تتوقف الباخرة للحظةٍ، وحالما تظهر أقل إشارةٍ إلى شيءٍ ما، غير معتادٍ تلوح على جميع الوجوه فوراً، مسحة القلق التي تدل على الإحساس الدائم بالخطر المستمر.

استغرق حديث آنا سيرغييفنا مع بازاروف أمداً قصيراً، فقد أخذت تتأمل، وصارت تجيب على نحوٍ غير مركزٍ، ثم اقترحت عليه أخيراً الانتقال إلى الصالة، حيث وجدا الاميرة وكاتيا. فسألت ربة البيت: «أين أركادي نيكولايفيتش؟»، وبعثت في طلبه، عندما علمت بأنه لم يظهر منذ أكثر من ساعةٍ. لم يعثروا عليه في الحال: فقد اعتكف في لجة البستان، وجلس غارقاً في أفكاره مسنداً ذقنه إلى يديه المتصالبتين، كانت أفكاره عميقةً هامةً، ولكن غير حزينةٍ، كان يعلم أن آنا سيرغييفنا قد اختلت ببازاروف، فلم يشعر بالغيرة كما في السابق، بل، على العكس، كان وجهه مشرقاً بهدوءٍ، وبدا، وكأنه مسرورٌ ومستغربٌ لشيءٍ ما، ومصمم على أمرٍ ما.

26

ما كان المرحوم أودينتسوف يهوى التجديد، ولكنه كان يتقبل «مظاهر الذوق الرفيع»، ولذا أنشأ في بستانه، بين المشتل المدفأ والبركة، بنايةً من القرميد الروسي تشبه الرواق اليوناني القديم. وعلى الجدار الخلفي الأصم، لهذا الرواق أو الكاليري، حفرت ستة محاريب لتماثيلَ كان أودينتسوف ينوى جلبها من الخارج، وكان على هذه التماثيل أن تجسد: الانفراد والصمت والتأمل والملنخوليا

والحشمة والحساسية، جُلب أحد هذه التماثيل، وهو تمثال آلهة الصمت، وأصبعها على شفتيها، ونصب في محرابه، لكن أطفال الخدم كسروا أنف التمثال في اليوم ذاته، ومع أن الجصّاص المجاور، اعتزم أن ينحت له أنفاً أفضل بمرتين من السابق، فقد أمر أودينتسوف برفعه، ولذا احتل التمثال مكانه، في ركن مستودع الطاحونة، حيث ظل هناك سنين طويلةٍ يثير الرعب الوسواسي لدى الفلاحات، وتغطى الجانب الأمامي من الرواق بشجيراتٍ كثيفةٍ، فلا يلوح فوق بحرٍ من الخضرة إلا تيجان الأعمدة. كان الجو في الرواق بارداً حتى في الظهيرة. ولم تكن آنا سيرغييفنا تهوى التردد على هذا المكان منذ أن رأت فيه أفعى، إلا أن كاتيا غالباً، ما تجلس على المصطبة الحجرية الواسعة المبنية عند أحد المحاريب. كانت، وسط النضارة والظلال، تطالع أو تعمل أو تنساق للإحساس بالسكون المطبق، ذلك الإحساس المعروف لكلّ شخصٍ، على ما يبدو، وتكمن روعته في التوقع الأبكم اللاشعوري تقريباً، لموجة الحياة العريضة التي تنداح، بلا انقطاعٍ حولنا، وفي دخيلتنا.

في اليوم التالي لوصول بازاروف، جلست كاتيا على مصطبتها المفضلة، وجلس أركادي قربها من جديدٍ، فقد رجاها أن تصطحبه إلى «كاليري».

بقي على موعد الفطور زهاء الساعة، وحل الضحى اللافح، محل الصباح الندي، وظل محيا أركادي محتفظاً بمسحة الأمس، وكانت كاتيا مهمومةً، فبعد احتساء الشاي مباشرةً؛ استدعتها أختها إلى مكتبها ونصحتها، بعد شيءٍ من الملاطفة التمهيدية، الأمر الذي كان دوماً، يخيف كاتيا لدرجةٍ ما، بأن تلتزم الحذر في سلوكها مع أركادي، وتتحاشى خصوصاً الأحاديث الانفرادية معه، مما لاحظته خالتها، وكلّ من في الدار كما زعمت، زد على ذلك أن آنا سيرغييفنا كانت معتكرة المزاج مساء أمس، بل وأن كاتيا نفسها، كانت تشعر بالخجل، وكأنما اقترفت ذنباً، وعندما لبّت طلب أركادي قطعت على نفسها عهداً، بأن تلك هي آخر مرّةٍ، وبدأ أركادي كلامه بشيءٍ من الحياء، وعدم التكلف في الوقت ذاته:

- كاتيا! منذ أن أسعدني الحظ في الوجود، وإياك في دارٍ واحدةٍ تحدثت معك عن أمورٍ كثيرةٍ، بينما ظلت مسألةٌ واحدةٌ هامةٌ جداً بالنسبة لي... لم أتناولها بعد، ثم أضاف قائلاً، وهو يلاحظ، ويتحاشى نظرة كاتيا المتسائلة المسلطة عليه: لقد قلت هنا أمس أنني تغيرت. وبالفعل، فقد تغيرت لدرجةٍ كبيرةٍ، وأنت تعرفين ذلك أفضل، من أي إنسانٍ آخرَ، فأنا مدينٌ لك، في الواقع، بهذا التغيير.

- أنا؟.. لي؟.. تمتمت كاتيا.

فواصل أركادي كلامه:

- إنني لم أعد غلاماً متعجرفاً، كما كنت، عندما وصلت إلى هنا، وليس عبثاً أني بلغت الثالثة والعشرين، وأنا لا أزال كالسابق، راغباً في أن أغدو إنساناً نافعاً، وأن أكرس كلّ قوايّ للحقيقة، ولكنني لم أعد أبحث عن مثلي العليا، حيثما كنت أبحث عنها في الماضي، فهي تلوح لي... أقرب بكثيرٍ، ولم أكن قبل الآن أفهم نفسي، فقد كنت أتوخى حلّ مهماتٍ فوق طاقتي... وقد تفتحت عيناي مؤخراً، بفضل شعورٍ واحدٍ... إنني لا أتكلم بشكلٍ واضحٍ تماماً، ولكنني آمل بأنك ستفهمينني...

لم تحر كاتيا جواباً، ولكنها كفت عن التحديق في أركادي، وتكلم هو من جديدٍ، بصوتٍ أكثر اضطراباً، في حين واصل شرشور بين أوراق البتولا ترتيل أنشودة بلامبالاة:

- أعتقد أن من واجب كلّ إنسانٍ شريفٍ أن يكون صريحاً منتهى الصراحة، مع الناس الذين... مع الذين... وباختصارٍ مع الأشخاص الأعزاء عليه، ولذلك فإني... إني أنوي...

وهنا خانت البلاغة أركادي، فاضطرب، وتلعثم، واضطر إلى الصمت قليلاً، لم ترفع كاتيا بصرها طوال الوقت، وبدا وكأنها لم

تفهم إلامَ يقود محدثها هذا الكلام، فظلت تنتظر شيئاً، ثم بدأ أركادي كلامه، بعد أن استجمع قواه من جديدٍ:

- أتوقع، بأني سأثير دهشتك، لا سيما، وأن هذا الشعور يمسّك أنت على نحوٍ ما... لاحظي: على نحوٍ ما... لقد لمتني أمس، حسبما أتذكر، على قلة جديتي، واصل أركادي كلامه، ومظهره يشبه مظهر شخصٍ تورّط في مستنقعٍ، وصار يشعر، بأنه يغوص فيه مع كلّ خطوةٍ يخطوها، ولكنه، مع ذلك يستعجل إلى الأمام على أمل الخلاص، بأسرع ما يمكن، إن هذه الملامة كثيراً ما توّجه إلى الشباب... وتسلّط عليهم... حتى عندما لا يعودون يستحقونها، ولو كنت أمتلك المزيد من الثقة بالنفس...، (ساعديني، ساعديني قليلاً!)، فكر أركادي بائساً، ولكن كاتيا ظلت كالسابق مشيحةً بوجهها، ولو كان باستطاعتي أن آمل...

- لو كان باستطاعتي أن أثق بما تقول، تهادى في تلك اللحظة صوت آنا سيرغييفنا الصافي.

صمت أركادي في الحال، بينما شحب لون كاتيا. كان الممشى يحاذي الشجيرات التي تحجب الرواق، وكانت آنا سيرغييفنا تتمشى هناك بمرافقة بازاروف، وما كان بوسع كاتيا وأركادي أن يرياهما، ولكنهما سمعا كلّ كلمةٍ، مع حفيف الفستان، بل، وحتى

الأنفاس، سارا بضع خطواتٍ وتوقفا، كما لو كان ذلك عمداً، في مواجهة الرواق مباشرةً، وواصلت آنا سيرغييفنا كلامها:

- ألا ترى أننا نحن الاثنين على خطأ؟ لم نعد في ريعان الشباب، وخصوصاً أنا، عشنا عمراً، وتعبنا، وكلانا، فما الداعي للتواضع؟، ذكي، فقد اهتممنا ببعضنا البعض في بادئ الأمر، وثار لدينا الفضول... وبعد ذلك...

- وبعد ذلك نفقت أنا، عاجلها بازاروف.

- أنت تعرف أن هذا ليس هو السبب في خلافنا، ومهما يكن من أمرٍ، فالسبب الرئيسي، هو أننا لم نكن بحاجةٍ ماسةٍ إلى بعضنا البعض، ففينا الكثير من... التماثل، إن صحّ القول. ولم نفهم ذلك في الحال. أما أركادي فعلى العكس...

- هل أنت بحاجةٍ إليه؟، سألها بازاروف.

- كفاك يا يفغيني فاسيليفيتش، أنت تقول بأنه يشعر بميلٍ نحوي. وقد خُيل إليَّ دوماً أنه معجبٌ بي، وأنا أعلم بأني يمكن أن أكون بمثابة مربيةٍ له، ولكن لا أخفي عليك أنني صرت أفكر به لدرجةٍ أكبر، ففي هذا الشعور الفتي الغضّ شيءٌ ما رائعٌ...

- كلمة جذّابٍ أكثر مناسبةً لهذه الحال، قاطعها بازاروف، وكانت فورة المرارة واضحةٌ في صوته المكبوت الهادئ، تحدث

أركادي أمس معي، ببعض التحفظ، فلم يقل شيئاً عنك، ولا عن أختك... وتلك إشارةٌ هامةٌ.

فقالت آنا سيرغييفنا:

- إنه يعامل كاتيا معاملة الأخ لأخته، وهذا شيءٌ يعجبني فيه، مع أنه ربما لا يجدر بي أن أسمح بمثل هذا التقارب بينهما.

- هل ذلك، هو شعور الأخت ازاء أختها؟، سأل بازاروف متمهلاً.

- طبعاً... لماذا توقفنا؟ فلنذهب، ما أغرب هذا الحديث بيننا، أليس كذلك؟ وهل كنت أتوقع بأني سأتحدث معك على هذا النحو؟ أنت تعرف، بأني أخشاك... وأنا في الوقت ذاته أثق بك لأنك، في الواقع، طيب القلب تماماً.

- لست طيب القلب أبداً، هذا أولاً، وثانياً: لقد فقدت أية أهميةٍ بالنسبة لك، ولذا تقولين بأني طيب القلب... لا فرق بين ذلك، وبين وضع إكليلٍ من الزهور على رأس الميت.

- يفغيني فاسيليفيتش، ليست لدينا سلطةٌ على...، تكلمت آنا سيرغييفنا، إلا أن الريح هبت ووشوشت الأوراق، وطارت كلماتها بعيداً، ثم قال بازاروف بعد برهةٍ:

- أنت حرةٌ طليقةٌ.

ولم يعد بالإمكان سماع الحوار، فقد ابتعدت الخطوات... وسكن كلّ شيءٍ.

التفت أركادي إلى كاتيا، وكانت جالسةً بنفس الوضعية، لكنها طأطأت رأسها بدرجةٍ أكبر. فقال بصوتٍ مرتعشٍ، وهو يشدّ يداً على يدٍ:

- كاتيا! أحبك إلى الأبد دون رجعةٍ، ولا أحب أحداً غيرك، كنت أريد أن أقول لك ذلك، وأعرف رأيك فيه إنني ألتمس يدك، لأني لست غنياً، ولأني أشعر بالاستعداد، لتحمل كلّ التضحيات... لماذا لا تجيبين؟ ألا تصدقينني؟ هل تظنين بأني أقول شيئاً طائشاً؟ ولكن تذكري هذه الأيام الأخيرة! فلم تقتنعي من زمانٍ بأن كلّ شيءٍ ما عداك، افهميني، كلّ شيءٍ اختفى من زمانٍ، دون أن يترك أثراً؟ تطلعي إليَّ، انطقي، ولو بكلمةٍ واحدةٍ... إنني أحب... أحبك... صدقيني!

ألقت كاتيا على أركادي نظرةً صافيةً ذات شأنٍ، وكادت تبتسم بعد تأملٍ عميقٍ، ثم قالت:

- حسناً.

قفز أركادي من المصطبة:

- حسناً؟ هل، قلت: حسناً، يا كاتيا؟! ماذا تعني هذه الكلمة؟ هل تعني إني أحبك، وإنك تصدقينني، أم... أم...؟ أنا أخشى من إكمال السؤال.

- حسناً، كررت كاتيا، ولكنه فهمها هذه المرة. فتلقف يديها الكبيرتين الرائعتين، وضغطهما على صدره، وهو يتنفس بعسرٍ من شدة التأثر والإعجاب، كانت ساقاه بالكاد تحملانه، وراح يكرر: «كاتيا، كاتيا...». أما هي، فقد بكت على نحوٍ عذريٍّ، ثم ضحكت بهدوءٍ لدموعها، من لم ير مثل هذه الدموع، في عيني المحبوب لا يعرف، بعد مدى السعادة التي يمكن للإنسان على الارض أن يتذوقها، وهو متجمدٌ كلياً بسبب الامتنان والحياء.

في ساعةٍ مبكرةٍ من صباح اليوم التالي بعثت آنا سيرغييفنا في طلب بازاروف، حضر إلى مكتبها، فسلمته بضحكةٍ متكلفةٍ ورقةً بريديةً مطويةً. وكانت تلك الرسالة من أركادي يلتمس فيها يد أختها.

قرأ بازاروف الرسالة، بلمح البصر، وبذل جهده كي لا يعرب عن شعور الشماتة الذي استولى عليه في الحال، ثم قال:

- هكذا إذن، ولكنك، كما يخيل إليَّ، كنت حتى يوم أمس تعتقدين، بأنه يحب كاتيا حب الأخ لأخته، فما الذي تنوين فعله

الآن؟

- ماذا تنصحني أنت؟، سألته آنا سيرغييفنا، وهي تتابع ضحكتها.

فأجابها بازاروف بضحكةٍ أيضاً، مع أنه لم يكن مسروراً أبداً، وما كان راغباً في الضحك على الإطلاق، كما لم تكن راغبةً فيه هي:

- أظن أن من الضروري تبريك الشابين، فهما زوجٌ طيبٌ من كل النواحي، ثروة كيرسانوف لا يستهان بها، وهو وحيد أبيه، ثم إن أباه طيّب القلب، ولن يعترض.

جابت أودينتسوفا الغرفة، وكان الاحمرار والشحوب يتناوبان في الظهور على محياها، ثم قالت:

- هل تعتقد بذلك؟ حسناً! لا أرى مانعاً... وأنا مسرورةٌ لكاتيا.. ولأركادي نيكولايفيتش... بديهيٌّ أنني سأنتظر جواب أبيه، وسوف أبعثه هو إليه، اتضح أني كنت بالأمس على حقٍّ عندما قلت لك بأننا لم نعد من الشباب... فكيف لم ألحظ شيئاً؟ ذلك ما يثير دهشتي!

ضحكت آنا سيرغييفنا من جديدٍ، وأشاحت بوجهها في الحال، فقال بازاروف، وقد ضحك هو الآخر:

- أصبح شباب اليوم أكثر تحايلاً.

وبعد برهةٍ من الصمت قال مجدداً:

- وداعاً، أتمنى لك أنت تنجزي هذا الأمر على أفضل ما يكون، أما أنا فسأفرح من بعيدٍ.

- ماذا؟ هل ستسافر؟ ما الذي يمنعك الآن من البقاء؟ ابق... فالحديث معك ذو شجونٍ... كما لو كان المرء يسير على شفا هوةٍ سحيقةٍ؛ في البداية ينتابه الوجل، وفيما بعد لا يدري من أين تأتيه الشجاعة، ابق.

- شكراً لك يا آنا سيرغييفنا على هذا العرض، وعلى امتداح مواهبي الحوارية، ولكن يُخيل إليَّ أني صرفت وقتاً طويلاً جداً، في الوجود في وسطٍ غريبٍ عليَّ، فالأسماك الطائرة تستطيع البقاء في الجو بعض الوقت، ولكنها سرعان ما تقع على الماء من جديدٍ، فاسمحي لي، أن أندفع أنا أيضاً إلى بيئتي.

تطلعت أودينتسوفا إلى بازاروف، كانت ابتسامةً ساخرةً مريرةً ترتسم على وجهه الشاحب المتشنج، وفكرت في نفسها «كان يحبني!»، وأحسّت بالعطف عليه، فمدت له يدها بشعورٍ من الودّ.

فهمها هو، فقال متراجعاً خطوةً إلى الوراء:

- كلا! إنني إنسانٌ فقيرٌ، ولكنني لم أتقبل الصدقات حتى الآن، وداعاً يا سيدتي، معك العافية.

فقالت آنا سيرغييفنا بحركةٍ عفويةٍ:

- أنا واثقةٌ من أن هذا ليس لقاءنا الأخير.

- ربما، فكلّ شيءٍ ممكنٌ في هذا العالم، أجاب بازاروف، وانحنى لها، وانصرف.

وفي اليوم ذاته قال لأركادي، وهو جالسٌ القرفصاء يعدّ حقيبته:

- ها، قد صممت على بناء عشٍ لك، أليس كذلك؟ لا بأس، ذلك شيءٌ حسنٌ، ولكن عبثاً تحايلت، كنت أتوقع منك وجهةً أخرى تماماً، أم أن ذلك ربما كان مباغتاً لك؟

فأجاب أركادي:

- لم أكن أتوقعه، بالضبط عندما فارقتك، ولكن لماذا تتحايل أنت، وتقول «شيءٌ حسنٌ»، كما لو أني لا أعرف رأيك بالزواج؟

- آه، يا صديقي العزيز! ما هذه التعابير؟! لاحظ ما أفعل: في الحقيبة مكانٌ فارغٌ، وأنا أحشوه بالقش، وكذا الأمر في حقيبة حياتنا، نحشوها بأيّ شيءٍ كان على شرط ألاّ يظل فيها فراغٌ، لا

تزعل، أرجوك، فأنت تتذكر، على ما يبدو، رأيي في كاتيا، فإن سواها من الفتيات يشتهرن بالذكاء، لمجرد أنهن يتأوّهن بذكاءٍ، أما فتاتك، فلن تتنازل عن حقٍّ لها، بل وسوف تضبطك أنت، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ. صفق غطاء الحقيبة، ونهض، أما الآن، فأكرر القول مودعاً... ولا داعي لخداع النفس: أودعك إلى الأبد، ولقد شعرت أنت بذلك... وتصرفت بحصافةٍ، فأنت لم تخلق لحياتنا المريرة اللاذعة؛ حياة العزوبة، وليست فيك وقاحةٌ، ولا حقدٌ، بل لديك بسالة الشباب، وحماس الشباب، وهذا أمرٌ لا يصلح لنا، فالنبلاء، من أمثالك، لا يمكنهم أن يسيروا إلى أبعد من الاستكانة الكريمة أو الفوران الكريم، بينما ذلك شيءٌ تافهٌ، وأنتم، مثلاً، لا تحاربون، لكنكم تتصورون أنفسكم فرساناً، أما نحن، فنبتغي المعركة حقاً، أين أنت من ذلك؟! إن غبارنا يؤذي عينيك، وأوساخنا تلوثك، بل وأنك لم تبلغ مستوانا، فأنت معجبٌ بنفسك عفوياً، ويبعث السرور فيك؛ كونك تلوم نفسك بنفسك، ذلك شيءٌ مملٌ بالنسبة لنا، فنحن بحاجةٍ إلى التنديد بالآخرين! نحن بحاجةٍ إلى تحطيم الآخرين! إنك شابٌ رائعٌ، ولكنك، مع ذلك، مجرّد نبيلٍ ليبراليٍّ رقيقٍ.

فتمتم أركادي حزيناً:

- تودعني إلى الأبد، يا يفغيني، وليست لديك كلماتٌ أخرى تقولها لي؟

حكّ بازاروف قفاه، وقال:

- لديَّ، يا أركادي، لديّ كلماتٌ أخرى، ولكني لن أقولها؛ لأنها رومانسية، بكلّ ما فيها من لطافةٍ تافهةٍ، ولكن عجّل أنت بالزواج، وابنِ عشك، وأنجب المزيد من الأطفال، وسوف يكونون أذكياء؛ لمجرد أنهم سيولدون في الوقت المناسب، وليس مثلما، ولدنا أنا وأنت، أها! أرى الخيول جاهزةً، آن الأوان، لقد ودعت الجميع... ماذا؟ هل نتعانق؟

ارتمى أركادي على رقبة معلمه، وصديقه السابق، فانهمرت الدموع من عينيه.

وقال بازاروف بهدوءٍ:

- ذلك هو فعل الفتوة! إنني أعلّق آمالي على كاتيا، فسوف تواسيك بسرعةٍ!

وعندما صعد إلى العربة قال لأركادي:

- وداعاً يا أخي!، ثم أشار إلى زاغين جاثمين جنباً إلى جنب، على سقف الإسطبل، وأضاف قائلاً: انظر! وتعلّم!

فسأل أركادي:

- ماذا يعني ذلك؟

- كيف؟ هل أنت ضعيفٌ إلى هذا الحد في علم الطبيعة؟ أم إنك نسيت أن الزاغ أفضل طيرٍ يحافظ على الأواصر العائلية؟ إليك مثالاً يحتذى!.. وداعاً، سنيور!

هدرت العربة، وتهادت.

لقد قال بازاروف الحقيقة، فعندما تحدث أركادي مع كاتيا في المساء، نسي معلمه كلياً، وصار يخضع لها بالتهريج، شعرت كاتيا بذلك، ولم تستغرب له. كان يتعين عليه أن يرتحل في اليوم التالي إلى مارينو، إلى نيكولاي بتروفيتش، ولم ترغب آنا سيرغييفنا في التضييق على الشابين، لكنها لم تتركهما وحيدين لأمدٍ طويل بسببٍ من اللياقة لا غير. وقد أبعدت عنهما، بكلّ لطفٍ، الأميرة التي تلقت خبر الخطوبة بهياجٍ ونحيبٍ. في بادئ الأمر كانت آنا سيرغييفنا تخشى أن يغدو منظر سعادتهما أمراً ثقيلاً عليها بعض الشيء، ولكن اتّضح العكس تماماً، فهذا المنظر لم يثقل عليها، بل شغلها وجعلها، في الاخير أكثر حناناً. فرحت آنا سيرغييفا لذلك، واغتمت له في الوقت ذاته، وفكرت في نفسها: «يبدو أن بازاروف على حقّ، فليس هناك غير حب الاستطلاع، والفضول، والرغبة في الاستقرار، والأنانية...»، ثم قالت بصوتٍ عالٍ:

- أطفال! فهل الحب شعورٌ متكلفٌ؟

بيد أن كاتيا وأركادي لم يفهماها، فقد غدت غريبةً عليهما، وظل عالقاً في بالهما الحوار الذي استمعا إليه دون قصدٍ، وبالمناسبة، فقد هدأتهما آنا سيرغييفنا في القريب العاجل، ولم يكن ذلك عسيراً عليها؛ اذ هدأت هي نفسها.

27

سُرّ العجوزان بازاروف؛ لوصول ابنهما سروراً لا حدود له، فلم يكونا يتوقعان وصوله. واضطربت آرينا فلاسيفنا، وصارت تحوم في الدار إلى درجةٍ جعلت فاسيلي إيفانوفيتش يشبّهها «بالكروان»، وبالفعل كان الذيل الأبتر في بلوزتها القصيرة يضفي عليها مسحة الطيور، أما هو، فكان يتمتم، ويعض على الطرف الكهرماني لغليونه الطويل، ويدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ممسكاً عنقه بأصابعه، وكأنما يجرب ما إذا كان رأسه مركباً عليه بالشكل اللازم أم لا. وكان يفتح فمه الواسع على حين غرةٍ، ويقهقه دون ضجيجٍ.

وقال بازاروف الابن لأبيه:

- جئت، يا شيخ، لأبقى عندك ستة أسابيعَ كاملةٍ. أريد أن أعمل، فلا تشوش عليَّ من فضلك.

فأجاب فاسيلي إيفانوفيتش:

- سوف لن ترى وجهي. لن أشوش عليك مطلقاً!

وقد وفى بوعده، فبعد أن أسكن ابنه في مكتبه كالسابق، كاد يختفي عنه، وصار يمنع زوجته من التمادي فى إبداء حنانها، وقال لها: «كنا، أيتها الأم، قد أضجرنا ينيوشا بعض الشيء في مجيئه الأول، أما الآن، فينبغي أن نكون أكثر دهاء»، وافقت آرينا فلاسيفنا زوجها في الرأي، ولكنها لم تربح الكثير من ذلك؛ إذ لم تعد ترى ابنها إلا أثناء الطعام، وصارت تخشى نهائياً التحدث معه، فما تكاد تقول «ينيوشا!»، وما يكاد ابنها يلتفت إليها، حتى تنهمك في ملامسة شراريب حقيبتها، وتمتم: «لا شيء، لا أقصد شيئاً»، ثم تتوجه إلى فاسيلي إيفانوفيتش، وتقول له بعد أن تسند خدها إلى يدها: «كيف لي، يا عزيزي، أن أعرف ما يشتهيه ينيوشا في الغداء اليوم، هل يريد شوربة الكرنب أم حساء البنجر مع الكرنب؟»، «لماذا لا تسألينه بنفسك؟»، «أخشى أن أضجره!». إلا أن بازاروف سرعان ما كفّ من تلقاء نفسه عن الاعتكاف؛ فقد زايلته حمى العمل، وحلّ محلها ضجرٌ كئيبٌ، وقلقٌ مكتومٌ، ولوحظ إرهاقٌ غريبٌ في حركاته وسكناته، وحتى مشيته الصلبة الجسورة السريعة قد تبدلت، لم يعد يتمشّى على انفرادٍ، وصار ينشد المعاشرة. أخذ يحتسي الشاي في غرفة الاستقبال،

ويتجول في البستان مع فاسيلي إيفانوفيتش، ويدخّن معه بصمتٍ، واستفسر ذات مرةٍ عن صحة الخوري ألكسي. في بادئ الأمر سُرّ فاسيلي إيفانوفيتش لهذا التحول، ولكن فرحته لم تطل، وصار يتشكى لزوجته هامساً: «ينيوشا يعذبني؛ لا أعتقد بأنه مستاءٌ أو غير قانعٍ، فذلك شيءٌ هينٌ، ولكن المصيبة هي أنه متألمٌ حزينٌ، وصامتٌ دوماً، فياليته يلومني، ويلومك على الأقل، لقد أصابه الهزال، وشحب لونه»، فهمست العجوز: «يا إلهي! يا إلهي! حبّذا لو ألبست الطلسم على عنقه، ولكنه لن يسمح لي بذلك»، وحاول فاسيلي إيفانوفيتش عدّة مراتٍ أن يسأل ابنه بكلّ حذرٍ عن عمله، وعن صحته وعن أركادي... لكن بازاروف كان يجيبه باستهانةٍ، وعلى مضضٍ. ذات مرّةٍ، لاحظ بازاروف أن أباه يحاول أن يوجه الحديث معه بلطفٍ إلى وجهةٍ معينةٍ، فقال له بكآبةٍ: «لماذا تدور حولي، وكأنك تسير على أطراف الأصابع؟ هذه العادة أسوأ من سابقتها»، فأجاب فاسيلي إيفانوفيتش المسكين على عجلٍ: «كيف؟ أنا لا أقصد شيئاً!»، وظلت عقيمةً أيضاً تلميحاته السياسية، فعندما تحدث ذات مرّةٍ عن قرب انعتاق الفلاحين، وعن التقدم كان يأمل بإثارة عطف ابنه، ولكن هذا قال بلا اكتراثٍ: «سمعت أبناء الفلاحين، وأنا أسير قرب السياج أمس ينشدون، بدلاً من الأغاني

القديمة: حان زمان الوداد، والقلب ينبض بالهوى... ذلك هو التقدم الذي تريده».

كان بازاروف يتوجه أحياناً إلى القرية، فيتحدث مع فلاحٍ ما مازحاً كعادته، وكان يقول له: «اعرض عليَّ، أيها الأخ، آراءك بشأن الحياة، ففيكم، كما يقال، كلّ قوة روسيا ومستقبلها، وبكم سيبدأ عصٌر جديدٌ في التاريخ؛ سوف تمنحوننا اللغة الحقيقة والقوانين»، فيلزم الفلاح الصمت أو يجيب بكلماتٍ من نوع: «نحن نستطيع... كذلك، لأننا، يعني... بقدر استطاعتنا»، وكان بازاروف يقاطعه: «ولكن حدثني عن عالمكم، ما هو؟ هل هو ذلك العالم المستقر على قرن الثور؟»

- الأرض، يا سيدي، هي المستقرة على قرن الثور؛ أوضح له الفلاح على نحو مسكّنٍ وبلهجةٍ ترتيليةٍ خانعةٍ ساذجةٍ، ومعروفٌ أن إرادة الأسياد تواجهنا، أي تواجه عالمنا، ولذا فأنتم آباؤنا وأسيادنا، وكلما كان السيد متشدداً، كان الفلاح مرتاحاً.

وبعد أن استمع بازاروف إلى مثل هذا الحديث ذات مرةٍ هزّ كتفيه احتقاراً، وأشاح بوجهه، بينما عاد الفلاح أدراجه، فسأله فلاحٌ آخر؛ متوسط العمر متجهم الوجه، كان قد استمع من بعيدٍ، من عتبة كوخه، إلى الحديث مع بازاروف:

- عم تحدثتما؟ عن الضريبة المستحقة؟

- أية ضريبةٍ يا أخي العزيز؟!، أجابه الفلاح الأول، ولم يعد في صوته أثرٌ للهجة الترتيلية الخانعة، بل ترامت منه لهجةٌ مستهينةٌ قاسيةٌ، ثرثر شيئاً ما، أراد أن يحكّ لسانه. أمرٌ معروفٌ، فهو سيدٌ، وهل يفهم السيد شيئاً؟

- من أين له أن يفهم؟!، أجاب الفلاح الثاني، ونفض كلاهما قبعتيهما، وأرخيا زناريهما، وراحا يتحدثان عن شؤونهما وحاجاتهما. أما بازاروف المتكابر هذا الذي هزّ كتفيه احتقاراً والذي يجيد الكلام مع الفلاحين، كما تفاخر في جداله مع بافل بتروفيتش، فلم يكن حتى؛ ليتصور بأنه بدا في أنظارهما؛ مجرد بهلولٍ لا أكثر...

بيد أنه عثر في آخر المطاف على ما يشغل به نفسه. ذات مرّةٍ ضمد فاسيلي إيفانوفيتش بحضوره رجلٌ فلاحٌ جريحٌ، ولكن يدي العجوز كانتا ترتعشان، فلم يفلح في شد الضماد، لذا ساعده ابنه، ومنذ ذلك الحين أخذ يساهم في عمل أبيه، دون أن يكفّ في الوقت ذاته، عن التهكم على الوسائل التي ينصح بها هو، وعلى أبيه الذي يستخدمها في الحال. إلا أن تهكم بازاروف لم يكن يربك فاسيلي إيفانوفيتش قيد شعرةٍ، فقد وجد فيه مسرةً. كان يمسك رداءه المنزلي الملوث بأصبعين على بطنه، ويأخذ أنفاساً من غليونه

وهو يستمتع بمتعةٍ إلى بازاروف، وكلما كانت تهجماته أشد؛ كان أبوه السعيد يقهقه بطيبة قلبٍ أكبر، فيكشف عن جميع أسنانه السوداء بلا استثناءٍ، وكان يستعيد هذه التهجمات البليدة أحياناً، والخالية من المعنى، ويظل طوال عدة أيامٍ يكرر، مثلاً، بمناسبةٍ وبغير مناسبةٍ: «تلك قضيةٌ لا جدوى فيها!»، وذلك؛ لمجرد أن ابنه استخدم هذا التعبير، عندما علم بأن أباه كان يتوجه لأداء صلاة الصبح، وهمس فاسيلي إيفانوفيتش لزوجته: «الحمد لله! لم يعد كئيباً! لو تعلمين كيف لامني اليوم؛ إنه معجزةٌ!»، وكانت مشاعر الافتخار والاعتزاز تستحوذ عليه؛ عندما يتذكر أن له معاوناً كهذا، وكان يقول لفلاحةٍ ما ترتدي قفطاناً رجالياً، وقبعةً ذات نتوءاتٍ، وهو يسلمها قنينة ماءٍ هوليارد، أو علبة مروخ البنج:

- أجل، أجل، عليك يا عزيزتي أن تحمدي الله كلّ لحظةٍ؛ لأن ابني قد حلّ ضيفاً عليَّ: فنحن نعالجك الآن، بأحدث طريقةٍ علميةٍ، هل أنت فاهمةٌ؟ وحتى إمبراطور الفرنسسن نابليون، لا يملك طبيباً أفضل، أما الفلاحة التي جاءت تتشكى من مغصٍ في البطن، وهي نفسها لا تفهم معنى هذه الكلمات، فكانت تنحني احتراماً، وتدسّ يدها في عبّها؛ كي تستخرج أربع بيضاتٍ ملفوفةٍ بطرف منشفةٍ.

ذات مرّةٍ، اقتلع بازاروف سناً لبائعٍ متجولٍ، ومع أن هذه السن هي من الأسنان العادية، فإن فاسيلي إيفانوفيتش احتفظ بها كتحفةٍ نادرةٍ، وعرضها على الأب ألكسي، وراح يكرر، بلا كللٍ:

- انظر إلى جذورها، ما أقواها! وما أقوى يفغيني! لقد تطاير البائع في الجو... ويُخيل إليَّ أنه لو كان شجرة بلوطٍ؛ لتطاير أيضاً!...

- شيءٌ يستحق المديح!، قال الأب ألكسي أخيراً، دون أن يعلم كيف يجيب، وكيف يتخلص من العجوز، وهو في أوج حماسه.

ذات مرةٍ أحضر فلاحٌ من القرية المجاورة أخاه المصاب بالتيفوئيد إلى فاسيلي إيفانوفيتش. كان المريض التعيس يحتضر، وهو منبطحٌ على حزمة قشٍ، وقد أغمي عليه من زمانٍ، وغطت بقعٌ قاتمةٌ جسده. أعرب فاسيلي إيفانوفيتش عن أسفه؛ لأن أحداً لم يفكر بالاستفادة من الإسعاف الطبي قبل الآن، وأعلن عن استحالة إنقاذ المريض، وبالفعل، فقد قضى نحبه في عربة النقل قبل أن يصل به أخوه إلى داره.

وبعد ثلاثة أيامٍ دخل بازاروف على أبيه في غرفته، وسأله: عما إذا كان عنده حجر جهنمٍ.

- نعم، ما حاجتك إليه؟

- يلزمني... في كيِّ جرحٍ.

- جرح من؟

- جرحي.

- جرحك؟! كيف؟ أيّ جرحٍ؟ أين هو؟

- هنا، على الأصبع، توجهت اليوم إلى القرية التي أحضروا منها الفلاح المصاب بالتيفوئيد. ولسببٍ ما قرروا هناك أن يشرّحوه، أما أنا، فلم أتمرن على التشريح من زمانٍ.

- ثم ماذا؟

- لذا طلبت من طبيب القضاء، أن يسمح لي بالتشريح، فجرحت أصبعي.

شحب لون فاسيلي إيفانوفيتش على الفور، ولم ينبس ببنت شفةٍ. هرع إلى مكتبه، وعاد في الحال يحمل قطعةً صغيرةً من حجر جهنم، هم بازاروف، بأن يأخذ الحجر، ويخرج، ولكن فاسيلي إيفانوفيتش قال:

- بالله عليك، اسمح لي أن أفعل ذلك بنفسي.

ضحك بازاروف ساخراً:

- ما أشد رغبتك في الممارسة!

- لا تمزح، رجاءً. أرني أصبعك. الجرح طفيفٌ، ألا يؤلمك؟

- اضغط بشدةٍ، لا تخش شيئاً.

توقف فاسيلي إيفانوفيتش:

- ماذا تعتقد يا يفغيني، أليس الأفضل كيّه بالحديد؟

- كان ينبغي القيام بذلك في حينه، أما الآن، فحتى حجر جهنم لا يفيد في الواقع، فإذا كنت قد أصبت بالعدوى، فقد فات الأوان.

- كيف... فات الأوان...، نطق فاسيلي إيفانوفيتش بالكاد.

- كيف لا؟! مرّ على ذلك أكثر من أربع ساعاتٍ.

كوى فاسيلي إيفانوفيتش الجرح بقدرٍ أكبر، وقال:

- ألم يكن لدى طبيب القضاء حجر جهنم؟

- كلا.

- كيف، يا الهي؟! طبيبٌ، ولا يمتلك هذا الشيء الضروري.

- يا ليتك رأيت مباضعه!، قال بازاروف، وانصرف.

ظل فاسيلي إيفانوفيتش حتى ساعةٍ متأخرةٍ من المساء، وطوال النهار التالي، يتحجج بأية وسيلةٍ ممكنةٍ لدخول غرفة ابنه، ومع أنه لم يكن يلمّح إلى الجرح، بل يحاول التحدث عن أمورٍ

ثانويةٍ تماماً، فإنه كان يحدّق في عيني ابنه بإصرارٍ، ويراقبه بقلقٍ، حتى نفد صبر بازاروف، وهدده بالسفر. قطع فاسيلي إيفانوفيتش عهداً، بأنه لن يقلق، لاسيما، وأن آرينا فلاسيفنا التي أخفى عنها هو كلّ شيءٍ طبعاً، أخذت تلاحقه متسائلةً، عما حدث له، وعن السبب في عدم نومه. في غضون يومين كاملين، كان يتشجع بالرغم من أن مظهر ابنه الذي تفحّصه خلسةً، طوال الوقت لم يكن يرضيه تماماً... ولكن صبره نفد في اليوم الثالث أثناء الغداء، فقد جلس بازاروف مطأطأ الرأس، ولم يمسّ شيئاً من طعامٍ.

- لِمَ لا تأكل يا يفغيني؟، سأله أبوه متظاهراً بعدم القلق، الطعام، على ما أعتقد، قد أعد جيداً.

- لا أشتهي، فلن آكل.

- هل انعدمت شهيتك؟ ورأسك؟ هل يوجعك؟، أضاف الأب بوجلٍ.

- يوجعني، فما الذي يجعله، لا يوجعني؟

عدلت آرينا فلاسيفنا قامتها، وتأهبت، وواصل فاسيلي إيفانوفيتش كلامه:

- أرجوك، يا يفغيني، لا تزعل؛ هلا سمحت بأن أجسّ نبضك؟

نهض بازاروف:

- أقول لك أن حرارتي مرتفعةٌ، حتى من دون جسّ النبض.

- وهل شعرت بقشعريرةٍ؟

- أجل، أنا ذاهبٌ؛ لأرقد، فأرسلوا لى قدحاً من نقيع الزيزفون، أصبت بزكامٍ، ولا بدّ.

- لذا سمعتك البارحة تسعل، قالت آرينا فلاسيفنا.

- أصبت بزكامٍ، كرر بازاروف، وانصرف.

انشغلت آرينا فلاسيفنا، بإعداد نقيع زهر الزيزفون، بينما دخل فاسيلي إيفانوفيتش الغرفة المجاورة، وتشبّث بشعر رأسه صامتاً.

لم ينهض بازاروف في ذلك اليوم، وقضى ليلته كلها في وسنٍ ثقيلٍ يشبه الإغماء، بُعيد منتصف الليل فتح عينيه بمشقةٍ، فرأى في ضوء القنديل وجه أبيه الشاحب، محنياً عليه وأمره بالانصراف، فلبّى هذا أمره، ولكنه عاد في الحال على أطراف أصابعه، وأطلّ من وراء باب الخزانة، وظل يتطلّع إلى ابنه طوال الوقت. لم تقم

آرينا فلاسيفنا، هي الأخرى، فقد فتحت باب المكتب بعض الشيء، وصارت تتردد بين الفينة، والأخرى لتسمع كيف يتنفس ينيوشا، وتلقي نظرةً على فاسيلي إيفانوفيتش. كانت ترى فقط ظهره المحدودب الجامد، ولكن ذلك بحدّ ذاته كان يخفف عليها أحزانها لدرجةٍ ما. في الصباح حاول بازاروف أن ينهض، لكن الدوار ألمّ به، ونزف الدم من أنفه، فرقد من جديدٍ، وكان فاسيلي إيفانوفيتش يرعاه بصمتٍ. دخلت عليه آرينا فلاسيفنا فسألته عن حاله، فأجاب: «أحسن»، واستدار نحو الجدار. أومأ فاسيلي إيفانوفيتش لزوجته إيماءةً غاضبةً بكلتا يديه، فعضت هي على شفتها؛ كيلا تنتحب، وانصرفت. احلولك كلّ ما في الدار فجأةً، واغتمَّت كلّ الوجوه، وخيّم سكونٌ غريبٌ، ونقل من الباحة إلى القرية ديكٌ مِصياحٌ، لم يفهم لأمدٍ طويلٍ؛ لماذا تصرفوا معه على هذا النحو. ظل بازاروف راقداً، ووجهه إلى الجدار، حاول فاسيلي إيفانوفيتش أن يوّجه إليه أسئلةً مختلفةً، ولكنها كانت ترهقه، فتسمّر العجوز في مقعده، واكتفى بطقطقة أصابعه أحياناً. كان يتوجه للحظاتٍ إلى البستان، فيقف هناك متجمداً، كما لو أن حدثاً لا مثيل له أثار دهشته، وكانت الدهشة الشديدة لا تفارق وجهه، ثم يعود إلى ابنه من جديدٍ متحاشياً تساؤلات زوجته، وأخيراً أمسكت بيده، وسألته بارتعاشةٍ، وبشيءٍ من التهديد: «ماذا به؟». تنبّه الأب في الحال،

وحمل نفسه على الابتسام رداً على سؤالها، بيد أنه، ويا للفظاعة، أطلق ضحكةً عفويةً بدلاً من الابتسامة. كان قد بعث في طلب الطبيب منذ الصباح، ورأى أن من الضروري إخبار ابنه بذلك؛ كيلا يزعل.

استدار بازاروف على الأريكة فجأةً، وأخذ يحدق في أبيه ببلادةٍ وطلب ماءً.

قدم له فاسيلي إيفانوفيتش قدح الماء، ولمس جبهته عرضاً، كانت ملتهبةً للغاية.

فقال بازاروف بصوتٍ بطيءٍ أبحَ:

- يا شيخ، حالتي سيئةٌ جداً؛ أصبت بالعدوى، وسوف تدفنني بعد بضعة أيامٍ.

- ترنح فاسيلي إيفانوفيتش، كما لو أن أحداً ضربه على رجليه، ثم تمتم:

- يفغيني! ما هذا الكلام!... سامحك الله! لقد أصبت بالبرد، لا أكثر...

- كفاك، قاطعه بازاروف على مهلٍ، لا يجوز للطبيب أن يتكلم هكذا، كل أعراض العدوى موجودةٌ، وأنت تعرف ذلك

بنفسك.

- أين هي أعراض ال... عدوى؟ عفوك يا يفغيني!

- فما هذا إذن؟، قال بازاروف، ورفع ردن قميصه، وعرض على أبيه البقع الحمراء الفظيعة التي ظهرت واضحةً.

ارتعد فاسيلي إيفانوفيتش، واقشعرّ من الرعب، ثم قال في الأخير:

- لنفترض، لنفترض... حتى... ولو كان هناك شيءٌ من قبيل... العدوى...

- تقيح الدم، قال الابن مصححاً.

- نعم... من قبيل... العدوى...

- تقيح الدم، كرر بازاروف بوضوحٍ وصرامةٍ- أم أنك نسيت دفاترك الطبية؟

- أجل، أجل، كما تشاء... ومع ذلك، فسوف نعالجك!

- هيهات! ولكن القضية ليست في ذلك، فأنا لم أكن أتوقع، بأني سأموت بهذه العجالة، تلك صدفةٌ، وصدفةٌ، إذا قلنا الحقّ، غير سارةٍ أبداً. عليك الآن مع أمي أن تستفيدا من قوة الدين فيكما،

وهذه فرصةٌ سانحةٌ لكي تجرباه، ارتشف قليلاً من الماء، وواصل كلامه:

- لديَّ إليك رجاءٌ... ما دمت لا أزال مسيطراً على أفكاري، فغداً أو بعد غدٍ؛ سيحيل دماغي نفسه على التقاعد، كما تعلم، وأنا الآن أيضاً لست واثقاً تماماً، مما إذا كنت أتكلم بوضوحٍ أم لا. فطوال رقادي خيّل إليَّ لو أني دجاجةٌ بريةٌ سوداءُ، وأنا الآن كالمخمور، هل تفهمني جيداً؟

- بالطبع يا يفغيني، إنك تتكلم على ما يرام تماماً.

- ذلك أفضل، قلت لي إنك بعثت في طلب الطبيب... لقد هدأت نفسك بذلك... أما الآن فهدئني أنا: ابعث رسولاً...

- في طلب أركادي نيكولايفيتش، عاجله العجوز.

- من هو أركادي نيكولايفيتش هذا؟، قال بازاروف، كما لو كان يتأمل، آ، أجل! ذلك الفرخ! كلا، لا تمسّه، أصبح زاغاً، ولا تستغرب، فليس ما أقوله هذياناً. ابعث رسولاً إلى أودينتسوفا، إلى آنا سيرغييفنا... تلك الإقطاعية، هل تعرفها؟، هز فاسيلي إيفانوفيتش رأسه بالإيجاب، وليقل لها إن يفغيني بازاروف يبعث إليها بالتحية، وإنه يحتضر، هل ستنفذ طلبي؟

- سأنفذه... ولكن هل يجوز أن تموت أنت، أنت يا يفغيني... حكِّم عقلك! فأين هي العدالة إذن؟

- ذلك أمرٌ لا علم لي به، ولكن ابعث الرسول.

- سأبعثه في الحال، وسأكتب لها رسالةً.

- كلا، لا داعي للرسالة، فليقل: بأني أبعث إليها بالتحية، ولا شيء آخر، أما أنا، فسأعود من جديدٍ إلى كلابي. ما أغرب الأمر! أريد أن أوقف التفكير بالموت، ولكنني لا أستطيع. لا أرى غير بقعةٍ ما...

استدار بعسرٍ إلى الجدار من جديد، فخرج فاسيلي إيفانوفيتش من المكتب، وحالما وصل إلى غرفة زوجته انهار على ركبتيه أمام الأيقونات، ودمدم بأنينٍ:

- ابتهلي، يا آرينا، ابتهلي! ابننا يحتضر.

وصل الطبيب؛ طبيب القضاء الذي لا يملك حجر جهنمٍ، فحص المريض، ونصح بالانتظار وقال في الحال بضع كلماتٍ عن احتمال الشفاء، فسأل بازاروف:

- هل صادف، وأن رأيت أناساً في مثل حالتي، لم يتوجهوا إلى «دار الخلود»؟

ثم أمسك فجأةً بقائمة الطاولة الثقيلة الموجودة، قرب الأريكة، وهزّ الطاولة، وزحزحها من مكانها، وقال:

- لا أزالُ قوياً، بينما يتعيّن عليَّ أن أموت!... ذلك الفلاح العجوز، استطاع على الأقل أن يملّ من الحياة، أما أنا... ولكن من يتجرأ على رفض الموت؟! فهو يرفضنا، وكفى!، وأضاف بعد لحظةٍ:

- من ينتحب هناك؟ أمي؟ يا للمسكينة! فمن الذي ستطعمه بعد الآن حساء الكرنب المدهش؟! وأنت، يا فاسيلي إيفانوفيتش، تبكي أيضاً كما يُخيل إليَّ؟ فما دامت المسيحية لا تعينك حاول أن تكون فيلسوفاً، رواقياً على الأقل! ألم تكن تتباهى، بأنك فيلسوفٌ؟

- أيّ فيلسوفٌ أنا؟!، أجاب فاسيلي إيفانوفيتش، وانهمرت الدموع على خديه.

أخذت حالة بازاروف تتدهور ساعةً بعد ساعةٍ، واستفحل المرض على نحوٍ سريعٍ، مما يجري عادة في حالات التسمم الجراحي. لم يكن قد فقد وعيه بعد، وكان يفهم ما يقال له، ولا يزال يصارع الموت. همس شادّاً على قبضته: «لا أريد أن أهذي، فما أسخف ذلك!»، ولكنه قال في الحال: «إذا خصمنا عشرة من ثمانية فكم يبقى؟». كان فاسيلي إيفانوفيتش يجول كالمجنون، وهو

يعرض هذه الوسيلة، أو تلك، ويغطي رجلي ابنه طوال الوقت، وكان يقول بانفعالٍ: «ينبغي لفّه بشراشفَ باردةٍ... واستخدام المقيئات... واللصاقات على البطن... وفصد الدم»، وكان الطبيب الذي استعطفه؛ كي يبقى يرد عليه بالإيجاب، ويسقي المريض شراب الليمون، ويطلب تارةً غليوناً وتارةً ما «يقويه ويدفئه» هو، أي الفودكا، وجلست آرينا فلاسيفنا على مصطبةٍ واطئةٍ قرب الباب، ولم تغادر مكانها إلا لتصلي بين حينٍ وآخر. فقبل بضعة أيامٍ انزلقت من يديها مرآة الزينة وتحطمت، بينما اعتادت هي على اعتبار ذلك فألاً سيئاً، ولم تستطع حتى أنفيسوشكا أن تقول لها شيئاً، أما تيموفييتش، فقد توجّه إلى أودينتسوفا.

قضى بازاروف ليلةً سيئةً... فقد عذبته حمّى قاسيةٌ، وعند الفجر تحسنت حاله شيئاً، فطلب من آرينا فلاسيفنا أن تمشط له شعره، وقبّل يدها، واحتسى جرعتين من الشاي، وانتعش فاسيلي إيفانوفيتش بعض الشيء فقال:

- الحمد لله؟ حل البحران... وانتهى.

فقال بازاروف:

- ما أشد تأثير الكلمة! عثر عليها فقال: «البحران» وهدأ باله، لا يزال الإنسان يؤمن بالكلمات. شيءٌ مدهشٌ. فإذا نعتوه، مثلاً،

بالأحمق، ولم يضربوه اكتأب، وإذا امتدحوا ذكاءه، ولم يعطوه مالاً شعر بالارتياح.

تأثر فاسيلي إيفانوفيتش؛ لخطبة بازاروف المقتضبة هذه، والتي تشبه «تهجماته» السابقة، فهتف متظاهراً بالتصفيق:

- عظيمٌ!

ابتسم بازاروف بحزنٍ، ثم قال:

- ماذا تعتقد؟ هل انتهى البحران أم حل؟

- حالك أفضل، هذا ما أراه، وهذا ما يفرحني، أجاب فاسيلي إيفانوفيتش.

- حسناً. الفرحة لا تضرّ مطلقاً، ولكن هل بعثت في طلب تلك؟ أتذكر؟

- بعثت بالطبع.

لم يستمر التغير نحو الأفضل أمداً طويلاً، فقد تكررت نوبات المرض، وجلس فاسيلي إيفانوفيتش إزاء بازاروف، وبدا العجوز، وكأن ألماً شديداً ينهشه، همَّ بالكلام مراراً، ولكنه كان عاجزاً عن النطق، ثم قال أخيراً:

- يفغيني! يا ولدي، يا عزيزي، يا حبيبي!

أثّرت هذه المناجاة غير المعتادة على بازاروف... فرفع رأسه قليلاً؛ كي يتخلص على ما يبدو من الغيبوبة التي أرهقته، وقال:

- ماذا يا أبتي؟

واصل فاسيلي إيفانوفيتش كلامه، وركع أمام بازاروف، بالرغم من أن هذا لم يفتح عينيه، ولم يكن بوسعه أن يراه:

- يفغيني، يا يفغيني! حالك الآن أفضل، وسوف تشفى بعون الله، ولكن انتهز هذه الفرصة وابعث السلوى في نفس أمك ونفسي وأدِّ واجبك المسيحي! ما أصعب عليَّ أن أقول لك ذلك، إنما أمرٌ فظيعٌ... والأفظع منه... أنه إلى الأبد، يا يفغيني... فكّرفي الأمر، ما أفظعه...

تقطّع صوت العجوز بينما انسحبت مسحةٌ غريبةٌ على وجه ابنه، بالرغم من أن عينيه ظلتا مغمضتين، وقال أخيراً:

- لا أرفض، إذا كان ذلك يبعث السلوى فيكما، ولكن يُخيل إليَّ أنه لا داعي للاستعجال، فأنت نفسك تقول إن حالتي غدت أفضل.

- أفضل، يا يفغيني، أفضل، ولكن من يدري؟ كل شيءٍ بيد الله، أما الذي يؤدي واجبه...

- كلا، سأنتظر قليلاً، قاطع بازاروف، أنا متفقٌ معك بأن البحران قد حل، وإذا كنّا على خطأ، فما العمل؟ فالقرابين تستلم، حتى ممن هم في غيبوبةٍ.

- ماذا تقول يا يفغيني؟..

- سأنتظر، أمّا الآن، فأريد أن أنام، لا تزعجني.

وهبط رأسه على الوسادة.

نهض العجوز، فجلس على المقعد، وأمسك بذقنه، وراح يعضّ على أصابعه...

طرقت سمعه فجأةً طقطقة مركبةٍ ذات نوابضَ، وهي طقطقةٌ مسموعةٌ خصوصاً في سكون الأرياف. كانت العجلات الخفيفة تقترب أكثر، فأكثر، وها قد ترامى إليه نخير الخيول، نهض فاسيلي إيفانوفيتش على عجلٍ، واندفع إلى النافذة، دخلت باحة داره مركبةٌ ذات مقعدين تجرها أربعة خيولٍ، فهرع إلى الباحة في غمرة فرحةٍ خرقاءَ، دون أن يميز من هو القادم، فتح الخادم ببزةٍ رسميةٍ باب المركبة، فظهرت منها سيدةٌ بوشاحٍ أسود وبدلةٍ سوداءَ...

- أنا أودينتسوفا. يفغيني فاسيليفيتش على قيد الحياة؟ أنت أبوه؟ أحضرت معي طبيباً.

- سيدتي الكريمة! هتف فاسيلي إيفانوفيتش، وتلقف يدها، وضغطها بارتعاشٍ إلى شفتيه، في حين نزل من المركبة على مهلٍ طبيبٌ قميءٌ بملامحَ ألمانيةٍ يرتدي نظاراتٍ، لا يزال حياً، ولدي يفغيني حيّ، وسوف يحيا!.. يا زوجتي! هبط علينا ملاكٌ من السماء...

- ماذا؟ يا إلهي!، تمتمت العجوز راكضةً من غرفة الاستقبال، وسقطت في الحال عند قدمي آنا سيرغييفنا، دون أن تفهم شيئاً، وراحت تقبّل أذيال بدلتها كالمجنونة.

- لا داعي لذلك! لا داعي!، قالت آنا سيرغييفنا، بيد أن آرينا فلاسيفنا، لم تكن تسمعها، في حين راح فاسيلي إيفانوفيتش يكرر: «ملاكٌ! ملاكٌ!».

- (أين المريض)[126]؟ أين هو؟، سأل الطبيب أخيراً بشيءٍ من الغضب.

فعاد فاسيلي إيفانوفيتش إلى رشده، وقال:

- هنا، هنا، تفضل، واتبعني، وأضاف مما يتذكره بالألمانية: (أيها الزميل المحترم)[127].

- آ، قال الألماني، وابتسم بتكشيرةٍ ذاويةٍ.

اقتاده فاسيلي إيفانوفيتش إلى المكتب، وانحنى على أذن ابنه، حتى لامسها، وقال:

- طبيبٌ من آنا سيرغييفنا أودينتسوفا، وهي هنا أيضاً.

فتح بازاروف عينيه فوراً:

- ماذا قلت؟

- قلت آنا سيرغييفنا أودينتسوفا هنا، وقد أحضرت إليك هذا السيد الطبيب.

نظر بازاروف إلى ما حواليه:

- إنها هنا... أريد أن أراها.

- ستراها، يا يفغيني، ولكن يتعيّن في البداية التكلم مع السيد الطبيب. سأحدثه عن سير المرض لأن طبيب القضاء ارتحل، وسوف نتشاور بعض الشيء.

- لا بأس، تحدثا على عجلٍ، ولكن ليس باللاتينية، فأنا أفهم ما تعنيه jam moritur[128].

وبدأ الطبيب الجديد كلامه، مخاطباً فاسيلي إيفانوفيتش:

- (يبدو أنك تجيد الألمانية يا سيدي)[129]

- (عندي... لديَّ...)[130]، ولكن حبّذا لو تكلمت بالروسية.

فقال الطبيب بروسيةٍ ركيكةٍ:

- آ! هكذا إذن... لعل...

وبدأ التشاور.

بعد نصف ساعةٍ، دخلت آنا سيرغييفنا المكتب بصحبة فاسيلي إيفانوفيتش، وتسنى للطبيب أن يخبرها همساً، بأنه لا أمل مطلقاً في شفاء المريض.

نظرت إلى بازاروف... فتوقفت، عند الباب؛ لشد ما أدهشها وجهه الملتهب والمحتضر في الوقت ذاته، بعينيه الغائمتين المتجهتين صوبها. لقد أرعبها خوفٌ باردٌ مرهقٌ، ولاحت في ذهنها للحظةٍ فكرةٌ: ربما شعرت بشيءٍ آخرَ، لو كانت تحبّه حقاً.

فقال هو بجهدٍ:

- شكراً، لم أكن أتوقع ذلك، فعلت خيراً، ها، قد التقينا من جديدٍ كما وعدت أنت.

فقال فاسيلي إيفانوفيتش:

- ما أطيب آنا سيرغييفنا.

- اتركنا يا أبتي. هل تسمحين يا آنا سيرغييفنا؟ يخيّل إليّ الآن...

وأومأ برأسه إلى بدنه المسجى العاجز.

انصرف فاسيلي إيفانوفيتش، فكرر بازاروف:

- شكراً، لقد فعلت، كما يفعل القياصرة، يقال إن القياصرة أيضاً يعودون إلى المحتضرين.

- يفغيني فاسيليفيتش، آمل...

- آه، يا آنا سيرغييفنا. فلنقل الحقيقة. لقد انتهيت، وقعت تحت العجلة، ولذا ما كان هناك داعٍ للتفكير في المستقبل، الموت شيءٌ قديمٌ، إلا أنه يداهم كلّ شخصٍ بشكلٍ جديدٍ. لم أجبن حتى الآن... وستحل الغيبوبة، ثم النهاية!، لوّح بيده تلويحةً يائسةً واهنةً، فما الذي ينبغي أن أقوله لك... كنت أحبك! وما كان لهذا الأمر أيّ معنىً في السابق، وليس له أيّ معنىً الآن بالطبع، فالحب مجرّد شكلٍ، أما شكلي أنا، فقد أخذ يتفسّخ، الأفضل أن أقول: ما أروعك! إنك الآن، أيضاً جميلةٌ... ما أحلاك!!...

ارتعشت آنا سيرغييفنا عفوياً.

- لا تقلقي... اجلسي هناك، ولا تقتربي مني، فإن مرضي معدٍ.

اجتازت آنا سيرغييفنا الغرفة مسرعةً، وجلست على المقعد قرب الأريكة التي يرقد عليها بازاروف، فهمس هو:

- ما أنبلها! آه، ما أقرب ذلك! وما أشد فتوتها ونضارتها وصفاءها!!... في هذه الغرفة الكريهة!.. وداعاً! عيشي طويلاً، فذلك أفضل شيءٍ، وتمتعي ما دام الوقت متسعاً. انظري ما أفظع هذا المشهد: دودةٌ تكاد تكون مسحوقةً، ولكنها لا تزال مغرورةً. ألم أكن أفكر بأني سأنجز أعمالاً كثيرةً، ولن أموت؟ فأين مني الموت؟ لديَّ مهمةٌ، وأنا جبارٌ! أما الآن، فإن كلّ مهمة هذا الكائن الجبّار تتلخص في؛ أن يقضي نحبه بشكلٍ لائقٍ، مع أن ذلك لا يشغل بال أحدٍ... غير أنني، رغم كلّ شيءٍ، لا أخاف...

صمت بازاروف، وأخذ يتلمس قدحه بيده، فناولته آنا سيرغييفنا إياه، دون أن تخلع قفازها، وهي تتنفس بخوفٍ، وتكلم هو من جديدٍ:

- سوف تنسينني، فلا رفقةٌ بين الميت والحي، وسوف يقول لك أبي، مثلاً، ما أعظم خسارة روسيا بفقداني!!... ذلك هراءٌ، ولكن لا تثنيه عن اعتقاده، فليكن ذلك على الأقل مبعثاً للسلوى في نفسه.. حاولي أن تداري أمي أيضاً، ففي مجتمعك الراقي الكبير لن تجدي أناساً مثلهما أبداً... هل، إن روسيا بحاجةٍ إليَّ، يا ترى؟.. كلا، ليست بحاجةٍ إليَّ، على ما يبدو، فمن بحاجةٍ إليه؟ إنها بحاجةٍ

إلى الإسكافي والخياط والقصاب... يبيع اللحوم... والقصاب... عفواً، بدأت أفكاري تتشوش... هناك غابةٌ....

وضع بازاروف يده على جبينه.

وانحنت عليه آنا سيرغييفنا:

- يفغيني فاسيليفيتش، أنا هنا...

سحب يده فوراً، ونهض قليلاً، فقال بقوةٍ مفاجئةٍ، ولمعت عيناه بآخر بريقٍ:

- وداعاً، وداعاً... اسمعي... إنني لم أقبّلك آنذاك... فانفخي القنديل المحتضر كي ينطفئ...

لامست آنا سيرغييفنا جبينه بشفتيها، فقال:

- كفايةً!

وهبط على الوسادة:

- الآن... حلّ الظلام...

انصرفت آنا سيرغييفنا بهدوءٍ، فسألها فاسيلي إيفانوفيتش همساً: ماذا؟

- غفا، أجابت بصوتٍ يكاد لا يُسمع.

ما كان مقدراً، لبازاروف أن يستيقظ، فعند المساء غطّ في غيبوبةٍ مطبقةٍ، وفي اليوم التالي قضى نحبه. أدّى الأب ألكسي الطقوس الدينية اللازمة. وعندما جرى تطهيره، ولامس الزيت المقدس صدره؛ تفتحت عينيه، وخُيّل للحاضرين أن شيئاً ما يشبه ارتعاشة الرعب، انعكس للحظةٍ على وجهه الجامد؛ من رؤية القس بغفارته الكهنوتية والمبخرة المدخنة، والشموع أمام الأيقونة، وعندما لفظ النفس الأخير، وعم الدار العويل، استولى على فاسيلي إيفانوفيتش هياجٌ مباغتٌ، فراح يصرخ بصوتٍ مبحوحٍ، وبوجهٍ ملتهب معوجٍ، ويهزّ قبضته في الهواء كأنه يهدد أحداً: «قلت بأني سأثور، وسأثور، سأثور!». إلا أنّ آرينا فلاسيفنا تعلقت بعنقه، والدموع تنهمر من عينيها، وانكب كلاهما على وجهه، وفيما بعد، تحدثت أنفيسوشكا في غرفة الخدم فقالت: «نكّسا رأسيهما جنباً إلى جنبٍ كنعجتين في الظهيرة...».

غير أنّ قيظ الظهيرة يتبدد، ويحل المساء، ثم الليل، وعندها تحين العودة إلى المأوى الهادئ، حيث يحلو المنام للمتعبين والمرهقين...

مضت ستة شهورٍ، خيّم الشتاء بصقيعه الصامت القارس الصافي، وثلجه الصرار ونداه الوردي المتجمد على الأشجار، وسمائه الزمردية الشاحبة، وأكاليل الدخان فوق المداخن، وأعمدة البخار المتصاعدة من الأبواب التي لا تفتح إلا لماماً، ووجوه الناس الغضة وعناء الجياد المقشعرة من البرد. أشرف ذلك اليوم من شهر يناير على الأفول، وعصر برد المساء الهواء الساكن، وضغطه بمزيدٍ من الشدة، وانطفأ الغسق الدامى بلمح البصر، واشتعلت الأنوار في نوافذ الدار في مارينو. انشغل بروكوفيتش، ببدلته الرسمية السوداء، وقفازيه الأبيضين ومسحته المهيبة أكثر من المعتاد، في إعداد المائدة لسبعة أشخاصٍ. قبل أسبوعٍ جرت في كنيسة الأبرشية الصغيرة، بهدوءٍ ومن دون شهودٍ تقريباً، مراسيم زفاف أركادي وكاتيا وزفاف نيكولاي بتروفيتش وفينيتشكا، وفي ذلك اليوم أقام نيكولاي بتروفيتش مأدبةً توديعيةً؛ لأخيه الذي ينوي السفر إلى موسكو؛ لتصريف بعض الشؤون، أما آنا سيرغييفنا، فقد سافرت إلى موسكو أيضاً على إثر الزفاف بعد أن أنعمت على الزوجين الشابين بسخاءٍ.

في تمام الساعة الثالثة التأم الجمع حول المائدة، أجلسوا ميتيا إلى المائدة أيضاً، وقد ظهرت لديه مربيةٌ ترتدي قبعةً من الديباج المخرم. جلس بافل بتروفيتش بين كاتيا وفينيتشكا، واستقرّ

«الزوجان» قرب عروسيهما. لقد تغير أصحابنا هؤلاء في الآونة الاخيرة؛ فقد بدوا، وكأنما أصبحوا أكثر رواءً ونضجاً. أما بافل بتروفيتش، فهو الوحيد الذي أصيب بهزالٍ، مما أضفى، بالمناسبة، المزيد من الرشاقة والرصانة على ملامحه المعبرة... ثم إن فينيتشكا لم تعد على ما كانت عليه؛ ارتدت بدلةً حريريةً جديدةً، وشدت شريطاً مخملياً عريضاً على شعرها مع سلسلةٍ ذهبيةٍ تطوّق جيدها. جلست بسكونٍ ووقارٍ ورزانةٍ، فهي رزينةٌ إزاء نفسها، وإزاء كلّ ما يحيط بها، كانت تبتسم، وكأنما تريد أن تقول: «اعذروني، فليس الذنب ذنبي». ولم تكن تبتسم وحدها على هذه الشاكلة، فالآخرون أيضاً كانوا يبتسمون، وكأنما هم يعتذرون، لقد كانوا جميعاً يشعرون بشيءٍ من الحرج، وبشيءٍ من الحزن، ولكنهم في الواقع كانوا على أحسن حالٍ. كان كلّ منهم يداري الآخر بحذرٍ مدهشٍ، وكأنما اتفقوا جميعاً على تمثيل ملهاةٍ ساذجةٍ، بينما كانت كاتيا أهدأ الجميع، فهي تتطلع إلى ما حواليها وادعةً أليفةً، وكان بإمكان المرء أن يلاحظ أن نيكولاي بتروفيتش قد أحبها بجنونٍ، وقبيل انتهاء الغداء؛ نهض يحمل قدحاً، وتوّجه إلى بافل بتروفيتش قائلاً:

- إنك تتركنا... تتركنا، يا أخي العزيز، لأمدٍ غير طويلٍ طبعاً، ومع ذلك لا يسعني إلا أن أقول لك بأنني... بأننا.... وإنني

بقدر ما إننا... الطامة الكبرى في أننا لا نجيد إلقاء الخطب! يا أركادي، هلا تكلمت أنت!

- كلا، يا أبتي، فأنا لم أستعد لذلك.

- وهل تعتقد بأني قد تهيأت جيداً؟ اسمح لي، يا أخي، أن أعانقك، وأتمنى لك التوفيق، وعدْ إلينا بأسرع ما يمكن!

تبادل بافل بتروفيتش القبلات مع الجميع، دون أن يستثني ميتيا بالطبع، وبالاضافة إلى ذلك قبّل يد فينيتشكا التي لم تتعود بعد على مد يدها بالشكل اللازم، وارتشف القدح الذي ملأوه له من جديدٍ، وقال بتنهيدةٍ عميقةٍ: «فلتكونوا سعداء يا أصدقائي!»، وأضاف بالإنجليزية Farewell [131]. لم ينتبه أحدٌ إلى هذه الكلمة، ولكن الجميع تأثروا تأثراً شديداً.

- تكريماً لذكرى بازاروف، همست كاتيا في أذن زوجها، وقرعت كأسها بكأسه، وردّ عليها أركادي؛ بأن شدّ على يدها بقوةٍ، ولكنه لم يتجرأ على رفع هذا النخب بصوتٍ عالٍ.

تلك هي الخاتمة، أليس كذلك؟ ولكن ربما يرغب أحدٌ من القراء في معرفة ما يفعله الآن، الآن بالذات، كلٌّ من شخوص روايتنا، فنحن على استعدادٍ لتلبية رغبته.

تزوجت آنا سيرغييفنا مؤخراً؛ ليس بدافع من الحب، بل بدافعٍ من المعتقد. وزوجها إنسانٌ لبيبٌ للغاية، قانونيٌّ شديد البأس في

بلوغ مقاصده العملية، وهو يتحلّى بإرادةٍ صلبةٍ وموهبةٍ كلاميةٍ رائعةٍ، وهو إنسان طيبٌ وباردٌ كالثلج، لا يزال في مقتبل العمر، ولكنه سيغدو فيما بعد من الشخصيات الروسية المرموقة، وهما يعيشان في وئامٍ تامٍ، ومن المحتمل أنهما سيستمتعان بالسعادة... بل، ومن المحتمل أنهما سيبلغان الحب. أما الأميرة (خ)... فقد توفيت، وطواها النسيان منذ يوم وفاتها، وسكن الأب كيرسانوف مع ابنه في مارينو، وأخذت أحوالهما تتحسن. فصار أركادي اقتصادياً غيوراً، وغدت «المزرعة» تعود بدخلٍ غير ضئيلٍ، وأصبح نيكولاي بتروفيتش وسيطاً عقارياً[132]، وهو يعمل بكلّ ما أوتي من قوةٍ، فيتجول بلا كللٍ في منطقة عمله، ويلقي الخطب المسهبة. كان متمسكاً بالرأي القائل بضرورة «إفهام» الفلاحين أيّ: تكرار كلماتٍ بعينها طوال الوقت حتى يستولي عليهم الإرهاق، ومع ذلك، إذا قلنا الحقّ، فهو لم يكن يُرضي تماماً، لا النبلاء المثقفين الذين يتكلمون عن «الانعتاق» تارةً بلهجةٍ حماسيةٍ، وتارةً بلهجةٍ سوداويةٍ، ولا النبلاء غير المتعلمين الذين يتهجمون بوقاحةٍ على «هَيذا الانعتاق». فإن نيكولاي بتروفيتش بالنسبة لأولئك وهؤلاء؛ متساهلٌ أكثر من اللازم. أما كاتيا، فقد رزقت ولداً أسمته نيكولاي، وصار ميتيا يمشي على نحوٍ ممتازٍ، ويتكلم بطلاقةٍ. ولا تعجب فينيتشكا بأحدٍ، بعد زوجها وميتيا،

إعجابها بكنتها، وعندما تجلس هذه إلى البيانو تستطيع فينيتشكا أن تظل قربها مسرورةً طوال النهار. ونذكر بالمناسبة شيئاً عن بيوتر. فقد تحجر نهائياً بسبب الغباوة، والغطرسة وصار يتلفظ الكلمات بغير الصيغة المعتادة، ولكنه تزوج هو الآخر، وتسلم صداقاً كبيراً من أهل العروس. وهي ابنة بستانيّ من سكان المدينة رفضت خطيبين صالحين لمجرد أنهما لا يمتلكان ساعة يدٍ. أما بيوتر، فكانت لديه جزمةٌ قصيرةٌ لماعةٌ فضلاً عن الساعة.

على مدرج برول[133] في دردزن بوسعكم أن تروا، في أفضل أوقات النزهة ما بين الثانية والرابعة، رجلاً في حوالي الخمسين؛ أشيب الشعر كلياً، وكأنما يعاني من النقرس، ولكنه لا يزال وسيماً أنيق الملبس، يتحلى بتلك السمة الخاصة التي لا تتهيأ إلا لشخصٍ يوجد أمداً طويلاً في أرقى فئات المجتمع. إنه بافل بتروفيتش. غادر موسكو إلى الخارج من أجل استعادة صحته، وصمم على الإقامة في دردزن، حيث يتلاقى أكثر ما يتلاقى مع الإنجليز والسياح الروس. كان يسلك مع الإنجليز سلوكاً بسيطاً أقرب إلى التواضع، ولكنه يحافظ على كرامته، وكانوا هم يعتبرونه شخصاً مملاً بعض الشيء، إلا أنهم يحترمون فيه رجلاً نبيلاً حقاً «a perfect gentleman». وكان هو أقل تكلفاً مع الروس، حيث يطلق العنان لحدة طباعه، ويسخر مازحاً من نفسه ومنهم، إلا أن

ذلك كله يصدر عنه بشكلٍ مقبولٍ تماماً لا يتعارض وأصول اللياقة. وهو يتمسك بالنزعة السلافية، الأمر الذي يحظى، كما هو معروف (بالاحترام والتقدير)[134] في المجتمع الراقي. إنه لا يقرأ شيئاً بالروسية، ولكن لديه على مكتبه منفضةٌ فضيةٌ بشكل خفٍّ فلاحيٍّ روسيٍّ، ثم إن سيّاحنا يتقاطرون عليه بكلّ رغبةٍ. وقد تفضل ماتفي إيليتش كوليازين، الذي أصبح في المعارضة المؤقتة، بزيارته وهو في طريقه إلى مياه بوهيميا المعدنية. أما السكان المحليون الذين نادراً ما يتقابل معهم، والحقّ يقال، فيكادون يبجلونه تبجيلاً. وما كان بوسع أحدٍ أن يحصل على تذكرةٍ إلى جوقة البلاط أو المسرح...والخ بنفس السهولة والسرعة اللتين يحصل بهما عليها (البارون كيرسانوف)[135]، ولا يزال يعمل المعروف على قدر المستطاع، ولا يزال يخلق ضجةً بعض الشيء: فليس عبثاً أن كان في وقتٍ ما كالليث. ولكن حياته غدت عسيرةً... أكثر عسراً مما يتوقع هو... فيكفي؛ لمعرفة ذلك إلقاء نظرةٍ عليه في الكنيسة الروسية، حيث يغرق في تأملاته مائلاً إلى الجدار في ركنٍ ما دون حراكٍ، ويعضّ على شفتيه بمرارةٍ، ثم يعود إلى رشده فجأةً، ويرسم شارة الصليب على نحوٍ لا يكاد يلحظ...

ولقد سافرت كوكشينا هي الأخرى إلى الخارج، فهي حالياً في هيديلبرغ تدرس المعمار الذي أُكتشف فيه، على حد تعبيرها، قوانينُ جديدةٌ، ولم تعد تدرس العلوم الطبيعية، ولا تزال كالسابق تعاشر الطلبة، وخصوصاً طلبة الفيزياء والكيمياء الروس الذين تعج بهم هيديلبرغ، والذين يدهشون للوهلة الأولى الأساتذة الألمان السذج بنظرتهم الواقعية إلى الأمور، كما يدهشون نفس أولئك الأساتذة فيما بعد بتبطرهم التام وكسلهم المطبق. ومع اثنين أو ثلاثة من أمثال هؤلاء الكيمياويين الذين لا يميزون بين الأوكسجين والآزوت، ولكنهم مفعمون بالرفض والاعتزاز بالنفس، ومع يليسيفيتش العظيم في بطرسبورغ، يتسكع سيتنيكوف الذي يستعد هو الآخر لكي يكون عظيماً، ويواصل، على حد قوله، «قضية» بازاروف. ويقال إن شخصاً ما ضربه مؤخراً، ولكنه ثأر منه، حيث لمّح في مقالةٍ تافهةٍ مشبوهةٍ دسّت في مجلةٍ تافهةٍ مشبوهةٍ إلى أن ذاك الذي ضربه جبانٌ، وهو يسمي ذلك تهكماً. ولا يزال أبوه متعسفاً إزاءه، أما زوجته فتعتبره مغفلاً و... أديباً.

هناك مقبرةٌ ريفيةٌ صغيرةٌ في أحد أرجاء روسيا النائية، وهي، شأنها شأن جميع مقابرنا تقريباً، ذات منظرٍ كئيبٍ: فقد اعشوشبت من زمان الخنادق المحيطة بها، وتدلت الصلبان الخشبية الرمادية اللون، وصارت تتعفن تحت سقوفها التي كانت

مطليةً بالأصباغ في غابر الزمان، وأزيحت الألواح الحجرية عن أماكنها جميعاً، كما لو أن أحداً قد دفعها من الأسفل، وبالكاد تعطي شجرتان منتوفتان أو ثلاثٌ ظلالاً شحيحةً، وتجول الأغنام بين القبور دون عائقٍ... ولكن بين تلك القبور قبرٌ لا يمسّه إنسانٌ، ولا يدوسه حيوانٌ؛ الطيور فقط تحطّ عليه، وتصدح عند الفجر. يحيط به سياجٌ من حديدٍ، وقد غرست شوحتان فتيتان عند جانبيه. في هذا القبر يرقد يفغيني بازاروف، ومن قريةٍ غير بعيدةٍ غالباً ما يتردد عليه عجوزان بلغا من العمر عتياً. يسيران بمشيتهما المتثاقلة، وهما يسندان بعضهما البعض، وعندما يقتربان من السياج يهبطان، فيركعان على ركبهما، ويبكيان بمرارةٍ لأمدٍ طويلٍ، ولأمدٍ طويلٍ أيضاً يتطلعان بانتباهٍ إلى الحجر الصامت الذي يرقد ابنهما تحته. ويتبادلان بضع كلماتٍ، وينفضان الغبار عن الحجر، ويعدّلان وضعية بعض أغصان الشوحتين، ويصلّيان من جديدٍ، ولا يقويان على مغادرة هذا المكان الذي يبدو، وكأنه أقرب الأماكن الموصلة إلى ابنهما، وإلى الذكريات المرتبطة به... فهل يُعقل أن صلواتهما ودموعهما عقيمةٌ يا ترى؟! وهل يُعقل أن الحب المقدس، الحب المخلص، عاجزٌ يا ترى؟! كلا! فمهما كان القلب الذي أطبقت عليه ظلمة القبر متحمساً متمرداً خاطئاً، فإن الزهور التي تنمو على ترابه تتطلع إلينا مطمئنةً بعيونها البريئة:

فهي لا تحدثنا فقط عن السكون الأبدي، عن لجة سكون الطبيعة «اللامبالية»، بل تحدثنا أيضاً عن الرضوان الأبدي، وعن الحياة اللانهائية...

1862

بصدد «الآباء والبنون»

كنت أستحم على ساحل البحر في مدينة فينتنور الصغيرة بجزيرة وايت في أغسطس 1860، وعندها تبادرت إلى ذهني لأول مرّةٍ فكرة «الآباء والبنون»، هذه القصة التي انتهى بسببها - وإلى الأبد كما يبدو- ميل جيل الشباب الروسي إليّ، وحسن موقفهم مني. وقد سمعت، وقرأت مراراً في المقالات النقدية بأنني، في مؤلفاتي، «أنطلق من الأفكار» أو «أمرر الأفكار». امتدحني البعض على ذلك، ولامني البعض الآخر. أما أنا، فأريد بدوري، أن أؤكد بأنني لم أحاول مطلقاً أن أرسم أية شخصيةٍ، إلا إذا توفّر لدي منطلقٌ أستند إليه، ومنطلقي هذا ليس فكرةً، بل هو شخصٌ حيٌّ، تضاف إليه العناصر المناسبة وتختلط به تدريجياً. وبما أنني لا أمتلك قدراً كبيراً من حرية الابتكار، فأنا أشعر دوماً بحاجةٍ إلى هذه التربة التي أتمكن من السير عليها بثباتٍ. وهذا بالذات ما حدث لقصة «الآباء والبنون»، فقد استندت في تصوير بطلها الرئيسي بازاروف إلى شخصيةٍ فعليةٍ، لطبيبٍ من الأقاليم

أثار دهشتي وإعجابي (توفي قبيل عام 1860بقليل). وقد تجسدت في هذا الإنسان الرائع في رأيي، تلك البداية التي ولدت للتو، وكانت في دور الاختمار، والتي سُميت فيما بعد بالنهلستية أو الرفض. كان تأثير هذه الشخصية عليّ شديداً للغاية، ولكنه غير واضحٍ تماماً في الوقت ذاته، فأنا نفسي، في بادئ الأمر، لم أتمكن من فهمه بشكلٍ عميقٍ، فصرت أنصت وأتطلع باهتمامٍ كبيرٍ إلى كلّ ما يحيط بي، وكأنني أريد التثبت من صحة أحاسيسي. ومما كان يحيرني أنني لم أجد في أيّ نتاج من نتاجاتنا الأدبية، ولا تلميحاً لما كان يلوح أمام أنظاري، ويخيل إليّ في كلّ مكانٍ، فأخذ الشك يدب في ذهني: ألست أركض وراء شبحٍ لا غير؟ وأتذكر أن روسيّاً كان يعيش معي في جزيرة وايت، وهو يتحلّى بذوقٍ رهيفٍ جداً وتقبّلٍ رائعٍ لما نعته المرحوم أبولون غريغوريف[136] «بنفحات العصر».

أطلعته على الأفكار التي تشغل بالي، فعقدت الدهشة لساني عندما سمعته يقول: «أعتقد أنك سبق وقدمت نموذجاً من هذا النوع... في شخصية رودين، أليس كذلك؟». لم أحر جواباً، فبماذا أجيب؟ رودين وبازاروف نموذجٌ بشريٌّ واحدٌ؟

تأثرت بهذه الكلمات لدرجةٍ كبيرةٍ، حتى بقيت عدّة أسابيعَ أتحاشى التفكير بما عزمت عليه. ولكنني عندما عدت إلى باريس

شرعت بالعمل من جديد: فالحبكة اختمرت في ذهني شيئاً فشيئاً. وفي الشتاء كتبت الفصول الأولى، إلا أنني أكملت القصة في روسيا، في الريف، خلال تموز. وفي الخريف قرأتها على بعض معارفي، وأجريت بعض التنقيحات والإضافات عليها. وفي آذار 1862 نشرت «الآباء والبنون» في مجلة «روسكي فيستنك» («البشير الروسي»).

وأقول هنا، دون الدخول في تفاصيل الآثار التي تركتها هذه القصة: إنني عندما عدت إلى بطرسبورغ.... سمعت آلاف الأصوات تكرر كلمة «نهلستي».... وشعرت آنذاك بأحاسيسَ متنوعةٍ، ولكنها مرهقةٌ ممضةٌ بقدرٍ واحدٍ. شعرت بالبرود الذي بلغ حدّ الغضب عند الكثيرين من الذين أعزهم، وأتعاطف معهم، وتلقيت التهاني التي تقرب من التقبيل من أناسٍ أكرههم، من معسكر الأعداء. أربكني ذلك وحيرني... وآلمني. لكن ضميري لم يؤنبني: فكنت أعرف جيداً أن موقفي من النموذج الذي ابتدعته موقفٌ نزيهٌ خالٍ من التحيّز ضده، بل هو متعاطفٌ معه[137]، فأنا أحترم رسالة الفنان والأديب لدرجةٍ لا تسمح لي بالافتراء في هذا المجال، ولعل كلمة «أحترم» في غير محلها تماماً هنا، فأنا، ببساطةٍ، لا أستطيع، ولا أجيد العمل على نحوٍ آخرَ. كما لم يكن هناك ما يدفعني إلى ذلك...

إن السادة النقاد لا يتصوّرون بشكلٍ صائبٍ تماماً ما يعتمل في نفس الكاتب، ولا يعرفون ممّ تتكون على وجه التحديد أفراحه وأتراحه، أمانيه وطموحاته، نجاحاته وإخفاقاته، فلا علم لهم، مثلاً، بتلك المتعة التي يشير إليها غوغول، وتتلخص في تعذيب النفس وسوط عيوبها من خلال الشخوص الوهميين الذين يصورهم الكاتب. والنقاد واثقون تماماً من أن الكاتب لا يفعل شيئاً غير «تمرير أفكاره» من كلّ بدّ، ولا يريدون أن يصدقوا بأن تجسيد الحقيقة، وتصوير واقع الحياة بقوةٍ ودقةٍ، أعظم سعادةً للأديب، حتى إذا كانت هذه الحقيقة تتعارض مع ميوله... عندما صوّرت شخصية بازاروف استبعدت من مجال اهتماماته كل ما له علاقةٌ بالفن، وأضفيت عليه حدةً وخشونةً في أسلوب الكلام، ولم يكن ذلك بسبب رغبةٍ هوجاءَ في إهانة جيل الشباب (!!!)، بل بفعل مراقبتي لصاحبي الدكتور(د) وأمثاله. «تلك هي الصورة التي نشأت عليها الحياة»، وهذا ما أوحته لي التجربة التي ربما كانت خاطئةً، ولكنها - وأنا، أكرر ذلك - تجربةٌ نزيهةٌ. ما كان يلزمني أن أفتعل وأنتحل، ولذا توجّب عليّ أن أصوّر شخصية بازاروف على هذا النحو بالذات. ولم تلعب ميولي الشخصية أيّ دورٍ بهذا الخصوص. وربما سيدهش الكثيرون من قرائي، إذا قلت لهم بأني أؤيد بازاروف في كلّ معتقداته تقريباً، ما عدا آراءه في

الفن. كل ذلك والبعض يقول بأني ألتزم جانب «الآباء»... مع إني جانبت الحقيقة في تصوير شخصية بافل كيرسانوف، وبالغت في عرض نواقصه بصورةٍ كاريكاتوريةٍ تقريباً وجعلت منه أضحوكةً!

ويكمن سبب سوء الفهم كله، و«الطامة الكبرى»، كما يُقال، في أن النموذج الذي عرضته بشخصية بازاروف لم يمر بعد بالأطوار التدريجية التي تمر بها النماذج الأدبية عادةً. ولم يكن من نصيبه ـ كما كان من نصيب أونيغين[138] وبيتشورين[139] ـ عصرٌ كاملٌ من التمجيد والمديح والرضا. فمنذ لحظة ظهور هذا الإنسان الجديد ـ بازاروف- كان موقف المؤلف منه انتقادياً... موضوعياً. وهذا ما شوش على الكثيرين. من يدري؟ ربما كان في ذلك ظلمٌ إن لم نقل خطأٌ. فإن لنموذج بازاروف، على الأقل، حقوقاً في المديح والرضا بقدر حقوق النماذج التي سبقته. وقد ذكرت تواً أن موقف المؤلف من بطل الرواية قد شوش القارئ، فالقارئ يشعر بالحرج دوماً وسرعان ما تستولي عليه الحيرة، وحتى الكآبة، عندما يرى المؤلف يعامل الشخصية التي يصورها معاملته لكائنٍ حيٍّ، فيلاحظ ويعرض على الملأ جوانبها الرديئة والجيدة، والأهم، إذا كان المؤلف لا يبدي تعاطفاً جلياً أو نفوراً واضحاً إزاء بطله. والقارئ على استعداد للانسياق وراء الغضب، إذ يجد نفسه

مضطراً إلى أن يشق الطريق بنفسه، بعد أن اعتاد السير على دربٍ مطروقٍ. وتتبادر إلى ذهنه أفكارٌ من قبيل: «هذه قضيةٌ شاقةٌ! الكتب موجودة لأجل التسلية، وليس لإجهاد الفكر. ثم هل كان من الصعب على المؤلف أن يخبرني كيف أفكر بهذه الشخصية كما يفكر فيها هو؟!» أما إذا كان موقف المؤلف في تلك الشخصية أقل تحديداً ووضوحاً، وإذا كان المؤلف نفسه لا يدري هل يحبّ بطله أم لا، كما حدث لي بخصوص بازاروف، «فالميل العفوي» الذي أشرت إليه في يومياتي لا يعني الحبّ، فالحال تغدو على أسوأ ما يكون! والقارئ مستعدٌّ، عندئذ، أن ينسب إلى مؤلفٍ أو يفرض عليه تعاطفاً لا وجود له، أو نفوراً لا أساس له، وذلك لمجرد أن يخرج من حالة «اللاتحديد» المزعجة.

قالت لي سيدةٌ ظريفةٌ بعد أن فرغت من مطالعة كتابي: «العنوان الحقيقي لقصتك هو «لا الآباء ولا البنون». وأنت نفسك نهلستي». وأعرب البعض عن مثل هذا الرأي بشدةٍ أكبرَ، عندما صدرت «الدخان»[140]. وأنا هنا، لا أجرؤ على الاعتراض، فلربما كانت هذه السيدة على حقّ. في مجال التأليف، وأنا أحكم على ذلك من تجربتي، يفعل المرء ليس ما يريده، بل ما يستطيع فعله بالقدر الذي يوفق فيه.

أتصوّر أن الحكم على النتاجات الأدبية ينبغي أن يصدر en gros[141]، وعندما نطالب المؤلف بالنزاهة الكاملة ينبغي أن ننظر إلى سائر جوانب نشاطه بهدوءٍ، إن لم أقل بلاأبالية. ورغم رغبتي الشديدة في إرضاء نقادي، فإنني لا أستطيع القول بأني مذنبٌ في تجنب النزاهة.

تجمعت لدي بخصوص «الآباء والبنون» طائفةٌ من الرسائل والوثائق الأخرى التي تستحق الاهتمام، وقد لا تخلو المقارنة بينها من فائدةٍ. ففي الوقت الذي يتهمني فيه البعض بإهانة جيل الشباب والتخلف والظلامية، ويقولون لي إنهم «يحرقون صوري الفوتوغرافية وسط قهقهة الاحتقار»، يلومني البعض الآخر غاضبين، على العكس، بالتزلف إلى نفس جيل الشباب هذا. وكتب لي أحدهم قائلاً: «إنك تزحف عند قدمي بازاروف! فأنت تتظاهر فقط بأنك تشجبه، ولكنك في الواقع تتزلف إليه، وتنتظر منه، كالصدقة، ابتسامةً تافهةً!»....

وهكذا يا إخواني الشباب، أوجه كلامي إليكم. أريد أن أقول لكم على لسان غوته معلمنا جميعاً:

Greift nur hinein ins volle Menschenleben!
Ein jeder lebt's —nicht vielen ist's bekannt,
[142]Und wo ihr's packt—da ist's interessant!

إن قوة «التشبث»، قوة «تصيد» الحياة هذا، لا تمنحها إلا الموهبة، ولكن الموهبة لا تكتسب، ثم إن الموهبة وحدها غير كافيةٍ، فلا بد من التفاعل المتواصل مع البيئة التي ينوي الكاتب تجسيدها: لا بد من الصدق؛ الصدق الذي لا يرحم، فيما يخص أحاسيس الكاتب الشخصية، ولا بد من الحرية؛ الحرية الكاملة في الآراء والمعتقدات، ولا بد، أخيراً، من التعلم والمعرفة!.. فالعلم نور، كما يقول المثل الشعبي، ولكنه ليس نوراً فقط، إنه الحرية أيضاً. ليس هناك ما يحرر الإنسان أكثر من المعرفة، وليس هناك ميدانٌ يحتاج إلى الحرية أكثر من ميدان الفن والشعر، وليس من قبيل الصدفة أن يقال عن الفن، حتى في اللغة الرسمية بأنه حرٌّ «طليقٌ». فهل يستطيع الإنسان أن «يتشبّث» بما يحيطه، و«يتصيّده» إذا كان مقيداً من الداخل؟ كان بوشكين قد تحسس هذه الحقيقة بعمقٍ. فليس عبثاً أن قال في السوناتا الخالدة التي يتعيّن على كلّ مبتدئٍ أن يحفظها عن ظهر قلبٍ ويتذكرها كالوصية:

سِرْ على طريق الحرية

بهدى العقل الحرّ...[143]

.... كلا، لا يمكن للفنان الحقيقي أن يعيش من دون الصدق، من دون المعرفة بأوسع معاني الكلمة، في الموقف من نفسه، ومن

الأفكار والأنظمة التي يتبناها، بل وحتى في الموقف من شعبه ومن تاريخ بلاده، لا يمكن العيش من دون هذا الهواء...

إيفان تورغينيف

1868 -1869

بادن-بادن

Notes

[1←]

في الأصل بالفرنسية Agathe. آثرنا أن نترجم بين هلالين ما ورد في النص الروسي بلغات أخرى (المترجم)

[2←]

في عام 1848 قامت ثورتا فبراير ويونيو في فرنسا. وكان الرعب من الثورة قد حمل قيصر روسيا نيكولاي الأول على اتخاذ إجراءات مشددة منها منع السفر إلى الخارج. فترة حكم الإمبراطور نيكولاي الأول هي 1825-1855. (ص 10)

[3←]

صيغة التحبب من اسم اركادي «المترجم»

[4←]

الروس يخاطبون الغرباء بصيغة الجمع احتراماً لهم، ولكننا آثرنا أن نترجم ذلك بصيغة المفرد، عدا الحالات التي يخاطب فيها الخدم أسيادهم. (المترجم)

[5←]

في الأصل بالفرنسية Il est libre, en effet.

[6←]

عهد إمبراطورة روسيا يكاتيرينا الثانية (1762-1796). (ص 21)

[7←]

مقتطف من ملحمة «يفغيني اونيغين» (الفصل السابع) للشاعر الروسي العبقري ألكسندر بوشكين (1799-1837). (ص 23)

[8←]
في الأصل بالانجليزية «shake hands».

[9←]
في الأصل بالفرنسية «s’est dégourdi».

[10←]
في 3 يناير 1857 تشكلت برئاسة القيصر الإسكندر الثاني لجنة سرية لإعداد إصلاح عام 1861 بغية منح الحرية للفلاحين الأقنان. وبعد عام (8 يناير 1858) تحولت هذه اللجنة إلى اللجنة الرئيسية. وفي عام 1858 تشكلت بأوامر قيصرية في كافة أرجاء روسيا لجان الألوية. وهي هيئات انتخابية للنبلاء والإقطاعيين مهمتها إعداد مشاريع تحرير الأقنان. (ص 27)

[11←]
في الأصل Galignani. وهي جريدة يومية ليبرالية أسسها جوفاني غالينياني وصدرت بالإنجليزية في باريس اعتباراً من عام 1814 (المترجم).

[12←]
في الأصل بالفرنسية Vous avez change tout cela.

[13←]
مقتطف من مسرحية «مصيبة الذكاء» الهزلية (الفصل الثاني، المشهد الخامس) للكاتب الروسي غريبويدوف (1795-1829). (ص 37)

[14←]
يوستوس ليبيغ (1803- 1873) عالم كيماوي ألماني مؤلف عدة كتب في نظرية وتطبيق الزراعة. (ص 42)

[15←]

في الأصل باللاتينية Dytiscus marginatus.

[16←]

«سلك الوصفاء» مدرسة عسكرية لأبناء الوجهاء، يتخرج فيها وصفاء البلاط القيصري. (ص 44)

[17←]

أبو الهول الأسطوري كائن خرافي في الميثولوجيا الإغريقية له جسم أسد وجناحان ورأس امرأة وصدرها. وقد أصبح رمزاً للأحاجي والألغاز. (ص 47)

[18←]

آرثر ويليام ولينغتون (1769-1852) قائد عسكري وسياسي إنجليزي انتصر على نابليون في معركة واترلو عام 1815 بمساعدة الجيش البروسي. (ص 51)

[19←]

لودفيغ-فيليب ملك فرنسا من (1830-1848) أرغمته ثورة فبراير 1848 على التنازل عن العرش والفرار إلى بريطانيا حيث توفي هناك. (ص 51)

[20←]

ضرب من لعب الورق. (المترجم)

[21←]

في الأصل بالفرنسية «Mais je puis vous donner de l’argent».

[22←]

الكسي ييرمولوف (1861-1772) جنرال روسي بطل الحرب الوطنية 1812 ضد نابليون. في الفترة من 1817 -1827 كان قائداً عاماً للقوات الروسية في القوقاز. (ص 57)

[23←]
صدرت رواية الكاتب الروسي ماسالسكي (1861-1802) التاريخية بأربعة مجلدات في عام 1832. (ص 57)

[24←]
في الأصل بالفرنسية Renaissance.

[25←]
في الأصل باللاتينية Bena.

[26←]
في الأصل باللاتينية pater familias.

[27←]
في الأصل بالألمانية Stoff und Kraft، كتاب العالم الفسلجي الألماني فريدريك بوخنر (1899-1824). (المترجم)

[28←]
في الأصل بالألمانية.

[29←]
في الأصل بالفرنسية Mathieu، يقصد ماتفي كوليازين. (المترجم)

[30←]
المقصود عهد إمبراطور روسيا الإسكندر الأول (1825-1801) حيث شاع في الأوساط الأرستقراطية الاهتمام باللغة الفرنسية والاستهانة

بقواعد اللغة الروسية. (ص 74)

[31←]
في الأصل بالفرنسية bien public.

[32←]
في الأصل بالفرنسية.

[33←]
المقصود رفض بازاروف «لكل القرارات المتعارف عليها في حياة الناس»، أي النظام السياسي والاجتماعي القائم والتصورات الدينية وغيرها. (ص 77)

[34←]
يقصد مصطلح «المادية» الذي هو بالروسية أيضاً لاتيني الأصل (materialism). (المترجم)

[35←]
القلموق قبائل رعوية من أصل مغولي. يعيش الشعب القلموقي حالياً في جمهورية كلميكيا ذات الحكم الذاتي. (المترجم)

[36←]
في الأصل بالفرنسية un barbouilleur.

[37←]
في الفاتيكان (المقر البابوي في روما) كثير من المتاحف التي تضم آثاراً فنية قيمة (من رسم ونحت وغيرهما). في خمسينات وستينات القرن التاسع عشر نشأ في الرسم الروسي اتجاه واقعي جديد. ورفض الرسامون الشباب الطريقة الأكاديمية التقليدية التي تطالب بتقليد النماذج الكلاسيكية، والفن الإيطالي على الخصوص، وأخذوا ينادون بخلق فن

روسي أصيل مشبع بالأفكار التقدمية الديمقراطية. وهذا هو، أساساً، السبب في نسيان الرسامين الروس لكنوز الفاتيكان. (ص 82)

[38←]
في الأصل بالفرنسية bon soir.

[39←]
في الأصل بالألمانية Stoff und Kraft.

[40←]
في الأصل بالفرنسية Pardon, monsieur.

[41←]
في الأصل بالفرنسية L’energie est la premiére qualité d’un homme d’état.

[42←]
فرانسوا غيزو (1787- 1874) مؤرخ وسياسي فرنسي. (ص 91)

[43←]
في السنوات الأخيرة من عهد الإسكندر الأول أولعت الأرستقراطية الروسية بمختلف التعاليم الدينية والغيبية. (ص 92)

[44←]
ايتين دي بونوكونديلياك (1715-1780) فيلسوف مثالي فرنسي، صدر مؤلفه الأساسي «بحث في الأحاسيس» عام 1754. (ص 92)

[45←]
صوفيا سفيتشينا (1782-1859) كاتبة روسية غيبية الاتجاه، حظيت مؤلفاتها التي صدرت عام 1860 باهتمام كبير لدى أوساط النبلاء من

المجتمع الروسي. (ص 92)

[46←]
في الأصل بالانجليزية «is quite a favourite».

[47←]
في الأصل بالفرنسية il a fait son temps.

[48←]
في الأصل بالفرنسية Eudoxie.

[49←]
في الأصل بالفرنسية émancipée.

[50←]
في الأصل بالفرنسية Victor.

[51←]
في الأصل بالفرنسية Entrez.

[52←]
في الأصل بالفرنسية Victore.

[53←]
يبدو أن كيسيلياكوف شخص متخيّل. أما «الوقائع الموسكوبية» فهي جريدة يومية بدأت تصدر في عام 1756. واعتباراً من ستينات القرن التاسع عشر صارت تعبر عن آراء أكثر فئات الإقطاعيين ورجال الدين رجعية. (ص 101)

[54←]

جورج صاند هو الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية اورورا روديفان (1804-1876) التي تناولت في مؤلفتها قضايا حقوق المرأة. (ص 101)

[55←]
رولف امرسون (1803-1882) كاتب وفيلسوف أميركي. (ص 101)

[56←]
يلمح تورغينيف هنا ساخراً إلى محرري مجلة «سفريمنك» غ. يليسييف (1821-1891) و م. انتونوفيتش (1835-1918)، حيث نحت من اسميهما اسم يلسييفيتش. (ص 102)

[57←]
باثفايندر (المنقب) بطل روايات الكاتب الأميركي جيمس فينيمور كوبر (1789-1851) «الجورب الجلدي» و«المنقب» و«البراري» و«آخر الموهيكان». (ص 102)

[58←]
روبرت بونزين (1811-1899) عالم ألماني شهير أستاذ الكيمياء في جامعة هيدلبيرغ. (ص 103)

[59←]
في الأصل بالفرنسية Pierre.

[60←]
في الأصل بالفرنسية mon amie.

[61←]
جوزيف بيير برودون (1809-1865) كاتب اجتماعي واقتصادي فرنسي من مؤسسي الفوضوية وخصم حرية المرأة. كان يعتبر الوظيفة الرئيسية للمرأة هي الأمومة. (ص 104)

[62←]
توماس ماكولي (1800-1859) مؤرخ إنجليزي، من أشهر كتبه «تاريخ انكلترا» (1848-1855). (ص 105)

[63←]
في الأصل بالفرنسية «De l’amour». جول ميشليه (1798-1874) كاتب ومؤرخ فرنسي. صدر كتابه المذكور عام 1859. (المترجم)

[64←]
في الأصل بالفرنسية Eudoxie.

[65←]
مقطع من قصيدة «السكير وزوجته» للشاعر الفرنسي بيرانجيه (1780-1857). (ص 106)

[66←]
في الأصل بالفرنسية.

[67←]
المقصود موّال «ليل غرناطة» للملحن سيمور-شيف الذي اشتهر كذلك بتلحين ارتجالي لقطع موسيقية مقتبسة من أوبرا ميخائيل غلينكا «ايفان سوسانين» و«روسلان ولودميلا». (ص 107)

[68←]
في الأصل بالفرنسية en vrai chevalier français.

[69←]
في الأصل بالفرنسية «Enchante».

[70←]

في الأصل بالفرنسية Zut», «Ah fichtrrre» «pst, pst, mon» «bibi.

[71←]
في الأصل بالفرنسية Merci.

[72←]
في الأصل باللاتينية Optime.

[73←]
في الأصل بالإيطالية al fresco.

[74←]
ميخائيل سبيرانسكي (1772-1839) من رجالات الدولة في روسيا، ابن قسيس ريفي، واضع مشروع التحويلات في جهاز الدولة في عهد القيصر الإسكندر الأول. (ص 122)

[75←]
من عادات الروس ان يحيوا بعضهم البعض بكلمة «مرحباً» مرة واحدة في اليوم لا أكثر. (المترجم)

[76←]
بطل ملحمة شيلر «الفارس توغينبورغ». (المترجم)

[77←]
في الأصل بالفرنسية Pelouse et Frémy «Notions générales de Chimie» جول بيلوز (1807-1867) وادموند فريمي (1814-1894) عالمان فرنسيان صدر كتابهما في باريس عام 18٥3.

[78←]

في الأصل بالفرنسية.

[79←]
في الأصل بالفرنسية «Ganot, «Traité élémentaire de physique expérimentale ادولف غانو عالم فيزيائي ورياضي (1804-1887).

[80←]
صيغة التحبب من اسم يفغيني. (المترجم)

[81←]
كريستوفر هوفيلاند (1762-1836) طبيب ألماني مؤلف كتاب «في إطالة العمر البشري» (1796) الذي حظي بإقبال واسع في حينه. (ص 174)

[82←]
في الأصل باللاتينية Suum cuique.

[83←]
المقصود الجريدة الطبية التي صدرت في بطرسبورغ من عام 1833 حتى عام 1869. (ص 177)

[84←]
نظرية غير علمية للتدليل على السجايا الشخصية والملكات الذهنية من دراسة شكل الجمجمة. (المترجم)

[85←]
لوكاس شينلين (1793-1864) بروفيسور ألماني في الطب. (ص 178)

[86←]
يوهان راديماخير (1772-1849) عالم ألماني في الطب. (ص 178)

[87←]

فريدريك هوفمان (1660-1742) عالم ألماني في الطب. (ص 178)

[88←]

جون براون (1735-1788) طبيب إنجليزي في الباطنية. (ص 178)

[89←]

بيوتر فيتغينشتين (1768-1842) فيلد مارشال ساهم في الحرب الوطنية 1812. وفي الفترة 1818-1828. قاد الجيش الثاني (الجنوبي) الذي تشكلت فيه جمعية الديسمبريين السرية. (ص 179)

[90←]

فاسلي جوكوفسكي (1783-1852) شاعر ومترجم روسي كبير. (ص 179)

[91←]

يلمح إلى الجمعية الجنوبية السرية للديسمبريين بزعامة الثوري باقل بيتسل (1793-1826). (ص 179)

[92←]

باراتسيلس اسم مستعار للطبيب والعالم الطبيعي السويسري ثيوفراست هونهايم (1493-1541) الذي اكتشف كثيراً من الأعشاب الطبية واستخدام طريقة المراقبة في دراسة الأمراض. (ص 179)

[93←]

في الأصل باللاتينية in herbis, verbis et lapidibus لعله يقصد مكان المعالجة بها. (المترجم)

[94←]

في الأصل باللاتينية ad patres.

[95←]

حظي نضال إيطاليا في سبيل التحرر من نير الأجنبي وفي سبيل توحيد الوطن باهتمام المجتمع الروسي في الستينات. ونوقشت هذه المسألة بحماس في الصحافة الدورية الروسية وفي مجلة «سوفريمنك» الثورية الديمقراطية ومجلة «الصغير». (ص 182)

[96←]

هوراس (65-8 قبل الميلاد) شاعر روماني شهير تغنى في قصائده ورسائله بالتمتع بالحياة في أحضان الطبيعة. (ص 183)

[97←]

إله الأحلام في الميثيولوجيا اليونانية. (المترجم)

[98←]

يوحنا المعمدان، كما يقول الإنجيل، بشر بظهور المسيح، فقطعت رقبته وحمل رأسه على طبق. (ص 184)

[99←]

رواية عاطفية وعظية للكاتب الفرنسي دوكريه-دومينيل (1761-1819) صدرت ترجمتها الروسية في السنوات 1794 و 1800 و 1804. (ص 185)

[100←]

آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح، تعتبر الأصل الذي تطورت عنه البيانو. (المترجم)

[101←]

لوتسوس شنشيناتوس (القرن السادس - القرن الخامس قبل الميلاد) أرستقراطي روماني كان يعيش ببساطة ويحرث الأرض بنفسه فاشتهر صيته كمواطن مثالي. (ص 186)

[102←]
اعتبر جان جاك روسو (1712-1778) العمل البدئي واحداً من شروط تربية الإنسان وحياته السعيدة. (ص 186)

[103←]
في الأصل باللاتينية gratis.

[104←]
في الأصل باللاتينية homo novus.

[105←]
في الأصل باللاتينية amice.

[106←]
من اوبرا الملحن الإيطالي جاكومو مايربر (1791-1864) «روبرت الشيطان» (1831). (ص 191)

[107←]
الكسندر سوفوروف (1729-1800) قائد روسي كبير عبرت قواته جبال الألب عام 1799. (ص 192)

[108←]
هذا القول تكرار حرفي تقريباً لما قاله عن شعر بوشكين الكاتب ن. اوسبينسكي أثناء لقائه مع تورغينيف في باريس عام 1861. وكتب تورغينيف إلى انينكوف بهذا الخصوص يقول:

وقبل أيام مر بنا اوسبنسكي (نيكولاي) الحاقد على البشر، وتناول الغداء عندي. ورأى أن من واجبه أن يتهجم على بوشكين مؤكداً بأن بوشكين لم يفعل شيئاً في كل قصائده غير الصراخ: «إلى المعركة! إلى المعركة! دفاعاً عن روسيا المقدسة». (الينكوف، مذكرات أدبية، بطرسبورغ، 1909). (ص 198)

[109←]
ابنا زيوس، توأمان. (المترجم)

[110←]
منفى نابليون. (المترجم)

[111←]
بغية استخدامها فيما بعد بدلاً من الخيول المتعبة في منتصف الطريق. (المترجم)

[112←]
في الأصل بالفرنسية Du calme, du calme.

[113←]
ظهرت أولى مدارس الآحاد لمحو الأمية بين الكبار في بطرسبورغ وكييف (1859) ثم في مدن أخرى كثيرة. ولعب المثقفون الثوريون دوراً كبيراً في تأسيس هذه المدارس معتبرينها ليس فقط شكلاً لتنوير الشعب بل وشكلاً علنياً للدعاية ضد الحكومة. (ص 217)

[114←]
كان الفيلسوف والمؤرخ الروسي يوري سامارين قد فضح في «رسائله من ريغا» والتي انتشرت مخطوطة في موسكو وبطرسبرغ في أواخر الأربعينات الاستغلال البشع الذي تعرض له فلاحو البلطيق من قبل البارونات الألمان. واعتباراً من عام 1856 انتقدت الصحافة مراراً سياسة نبلاء البلطيق الرجعية في المسألة الفلاحية، وفيما بعد أشار الكاتب الروسي الكبير نيكولاي تشيرنيشيفسكي (1828- 1889) إلى الطابع الوحشي «لحقوق» وامتيازات بارونات البلطيق. (ص 219)

[115←]
في الأصل بالفرنسية A bon entendeur, salut !.

[116←]
في الأصل باللاتينية utile dulei.

[117←]
في الأصل بالفرنسية vertige.

[118←]
المجهول الخفي بطل عدة روايات للكاتبة الإنجليزية آن راداكليف (1764-1823) التي تتميز مؤلفاتها بوصف الفظائع والأهوال الخيالية والحوادث المثيرة. (ص 241)

[119←]
روبيرت بيل (1788-1830) سياسي انجليزي محافظ. (ص 242)

[120←]
في الأصل بالفرنسية Couchez-vous.

[121←]
في الأصل بالفرنسية C’est de la même famille.

[122←]
في الأصل بالفرنسية belle-sœur.

[123←]
في الأصل بالفرنسية au dix-neuvième siècle.

[124←]
في الأصل بالفرنسية Quelle idée.

[125←]
المقصود الرسالة التي بعثها الكاتب الروسي العظيم نيكولاي غوغول (1809- 1852) إلى سميرنوفا في 4 يوليو 1846. وأدرجت بتحرير طفيف ضمن كتاب غوغول «مقتطفات من المراسلات مع الأصدقاء» (1847) ولكن الرقابة حذفتها. ودعا الكاتب فيها إلى الكمال الأخلاقي الديني وتخلى عن مؤلفاته الأدبية. ونشرت الرسالة لأول مرة في جريدة «العصر والنشرة الاقتصادية» عام 1860 تحت عنوان «هذه هي عقيلة المتصرف». (ص 264)

[126←]
في الأصل بالألمانية Wo ist der Kranke?.

[127←]
Wertester Herr Collega.

[128←]
يحتضر.

[129←]
في الأصل بالألمانية Der Herr scheint des Deutschen mächtig zu sein.

[130←]
في الأصل بالألمانية ich habe.

[131←]
وداعاً.

[132←]

الوسيط العقاري موظف في روسيا في فترة تطبيق الإصلاح الفلاحي لعام 1861. كان يعين من بين النبلاء لإقرار الوثائق العقارية وحل الخلافات بين الفلاحين والإقطاعيين، وكان يمتلك سلطة قضائية وبوليسية على الفلاحين. (ص 305)

[133←]

يقع مدرج برول على أسوار قلعة درزدن، سمي باسم هنري برول (1700-1763) وزير الملك البولوني أغسطس الثالث. (ص 306)

[134←]

في الأصل بالفرنسية Très distinguè.

[135←]

في الأصل بالألمانية der Herr Baron von Kirsanoff.

[136←]

شاعر وناقد أدبي روسي (1822- 1864).

[137←]

أسمح لنفسي هنا بإيراد المقطع التالي من يوميات: «الأحد، 30 يوليو. قبل ساعة ونصف ساعة تقريباً فرغت، أخيراً، من كتابة روايتي... لا أدري هل ستلقى نجاحاً. ربما ستنهال عليّ «سوفريمنك» و«المعاصر» بسيل من الإهانات بسبب بازاروف، ولن تصدق بأني كنت، طوال كتابتي للرواية، أشعر بميل عفوي نحوه...» (ملاحظة تورغينيف).

[138←]

بطل ملحمة بوشكين «يفغيني أونيغين».

[139←]

الشخصية الرئيسية في رواية ليرمونتوف «بطل زماننا».

[140←]
صدرت رواية ايفان تورغينيف «الدخان» عام 1867.

[141←]
عموماً (بالفرنسية).

[142←]
اغرز يدك (لا أستطيع أن أترجم هذا التعبير بشكل أفضل) في الداخل، في أعماق الحياة البشرية! الجميع يعيشون تلك الحياة، ولكن ما أقل الذين يعرفونها. وعندما تتشبث بركن منها ستجد المتعة هناك! (ملاحظة تورغينيف).

[143←]
من قصيدة ألكسندر بوشكين «أيها الشاعر»، 1830.